3700

التاريخ السياسي

للخلافـــــة العباسيـــــة

١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م

الدكتورة/ فائزة إسماعيل أكبر

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

جامعة الملك عبد العزيز - جدة

ⓒ فائزة اسماعيل أكبر ، ١٤٢٤ هـ

فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أكبر ، فائزة اسماعيل

التاريخ السياسي للخلافة العباسية ١٣٢ - ٦٥٦ هـ ، ٧٥٠ - ١٢٥٨ م. / فائزة اسماعيل أكبر - جدة ، ١٤٢٤ هـ

٣٥٤ ص، ٢٤ سم

ردمك ٧ - ٦٩٧ - ٤٣ - ٩٩٦٠

١ - الدولة العباسية أ - العنوان

ديوي ٩٥٣،٠٤ ١٥٦ / ١٤٢٤

رقم الإيداع : ١٥٦ / ١٤٢٤

ردمك: ٧ - ٦٩٧ - ٤٣ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مطبعة الثغر

جدة - هاتف : ٦٤٧٢٣٤٠ (٠٢) - فاكس : ٦٤٨١٠٣٩ (٠٢)

إهداء

إلى الغائب الحاضر ،

إلى الذي غرس حب العلم في نفسي ،

إلى روح والدي (رحمه الله)

مُقدِّمَة

يعدُّ هذا المؤلف قراءة لتاريخ الدولة العباسية ، من الناحية السياسية ، ومحاولة لتفسير بعض منعطفات هذه الفترة التي شكلت حوادثها بصمة مميزة في التاريخ الإسلامي ؛ مّما استدعى النظر فيها . وتقديمها للقارئ في ثوبٍ لسنا نزعم بأنه جديد ، ولكنه رؤية متواضعة لتفسير بعض تلك المنعطفات .

إذ أنه من الملفت للنظر أن الدراسات التي قام بها الباحثون للتاريخ السياسي لهذه الدولة على كثرتها ، ورصانة معظمها تميزت إما بالإسهاب الشديد في سرد وعرض المعلومات ، وإما بالاقتصار على دراسة تاريخ العصر الأول منه فقط ، الذي عرف باسم (العصر العباسي الأول) .

وطيلة دراستي وتدريسي لتاريخ الدولة العباسية لم أتمكن من الحصول على كتاب متوازن لأحداث تاريخ هذه الدولة منذ قيامها سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وحتى سقوطها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . مما حدا بي للشروع في كتابة هذا المؤلف بصورة متوازنة ، ملمة بأغلب جوانبه ، محللة كثيراً من أحداثه ، هادفة إلى تمكين القارئ العادي وطالب العلم من استيعاب أحداثه الطويلة والمتشعبة بسلاسة ويسر ما أمكن .

علماً بأن هذا الكتاب – رغم سعته – اقتصر على الجانب السياسي ، ولم يتعرض للجانب الحضاري من تاريخ هذه الفترة ، أو إلى تاريخ الدويلات المستقلة عنها ؛ وذلك لأن هذين الموضوعين يحتاجان لدراسة مستقلة ؛ أود أن أقوم بإعدادهما مستقبلاً وآمل أن لا يطول الزمن قبل ظهورهما .

حكمت دولة الخلافة العباسية قرابة ٥٢٤ عاماً من ١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م ابتدأت بخلافة أبي العباس السفاح وانتهت بوفاة المستعصم ، عندما زالت الخلافة على أيدي المغول . ولم تكن هذه الفترة الزمنية الطويلة – بالطبع – على نمط واحد من حيث قدرات الدولة ، وقوة الخلافة ، وتطور أوضاعها السياسية ؛ لذلك قمت بتقسيم موضوعات الكتاب إلى ثلاثة عشر فصلاً موزعة على النحو التالي:

تضمن الفصل الأول دراسة عامة لأوضاع خراسان قبل قيام الدولة العباسية ، فاشتمل على عرض جغرافي عام لمنطقة خراسان ، وأهم المدن بها ، ثم تحدث عن الفتح العربي لهذه المنطقة ، ومعاهدات الصلح ؛ وذلك لما لتلك المعاهدات من أهمية في تنسيق العلاقات بين المسلمين الفاتحين ، وأهالي المنطقة . كما اشتمل على معرفة أهم القبائل العربية التي استوطنت خراسان، والدور المؤثر الذي لعبته هذه القبائل في مناصرة الدعوة العباسية فيما بعد . كما اشتمل أيضاً على سياسة الأمويين الإدارية والمالية ، وما لازمته من سلبيات طوال فترة حكمهم لهذه المنطقة نتج عنه تكتلات ساخطة فيه على حكم بني أمية سواء كانوا من عرب خراسان ، أو من أهلها الفرس والموالي .

ويشمل الفصل الثاني ظهور الدعوة العباسية بعد أن مرت بمرحلتين ؛ المرحلة السرية لها ، على يد الإمام محمد بن علي في الحميمة ، والانقلاب العسكري في خراسان على يد الإمام إبراهيم بن محمد ، أضف إلى ذلك ما كان لهذا الإقليم من مساهمة فعلية في مرحلتي التنظيم السري والجهري للدعوة العباسية . وقيامهما على أرض خراسان .

أما الفصل الثالث فسُلط الضوء فيه على مرحلة التأسيس وبناء الدولة في عهد كل من أبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور ، وما قام به أبو جعفر من أعمال سياسية وعمرانية لعبت دوراً مهماً في سياسة العصر العباسي الأول .

وتناولت في الفصل الرابع الحديث عن عصر المهدي ، والهادي وجهودهما في استكمال سياسة سلفيهما الداخلية والخارجية .

وينفرد الفصل الخامس بدراسة شاملة لعهد هارون الرشيد عصر التضاد ، والتيارات المتباينة ، وما تضمنته هذه الفترة من تألق سياسي ، وعسكري ، وفكري ، وتطور دبلوماسي سلمي مع إظهار دور البرامكة السياسي والاقتصادي والثقافي في العهد الأول من خلافة الرشيد .

ويعرض الفصل السادس للصراع بين الأحزاب السياسية والعنصرية بعد وفاة الرشيد ، الذي تجسد في الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون . مع دراسة شاملة لعهد المأمون .

بينما يتناول الفصل السابع الحديث عن الخليفتين المعتصم وابنـه الواثق ، وظهور عنصر جديد في حلبة التنافس العسكري أو ما تعارف المؤرخون على تسميتهم (بالأتراك) ، وهم المشارقة ، وهيمنتهم على مقدرات الخلافة .

ويتحدث الفصل الثامن عن تفوق العنصر الجديد من المشارقة وتوليهم المناصب القيادية العسكرية ، وتولي عدد من الخلفاء العباسيين الذين وقعوا تحت سلطة هؤلاء القادة العسكريين ابتداء من الخليفة المتوكل ، وحتى الخليفة المهتدي مـن العـام ٢٣٢هـ إلى العام ٢٥٦هـ الموافق ٨٤٧-٨٧٠م . وهو ما سميته بـ(عصر تخبط السلطة العسكرية) .

ويعرض الفصل التاسع لعودة الحكومة إلى بغداد عاصمة الخلافة وإعادة الهدوء النسبي إليها في عهد الخلفاء الثلاثة ، المعتمد ، والمعتضد ، والمكتفى ، مع ذكر أهم الأحداث التي ظهرت في هذه الفترة كثورة الزنج ، وحركة القرامطة . وما تعرضت له الخلافة من فوضى عسكرية بعد وفاة الخليفة المكتفى في عهد كل من الخليفة المقتدر والقاهر .

بينما يناقش الفصل العاشر مسألة ظهور عصر جديد هو إمرة الأمراء الذي استمر عشر سنوات من ٣٢٤هـ/٩٣٦م خلال حكم الراضي ، وانتهى بدخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م .

ويعرض الفصل الحادي عشر لوقوع الخلافة تحت سيطرة البويهيين الشيعة . وقد تولى خلال هذا العصر أربعة خلفاء هم ، المطيع والطائع ، والقادر ، والقائم وينتهي بدخول السلاجقة الأتراك إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م .

ويتحدث الفصل الثاني عشر عن دولة الأتراك السلاجقة الذي يبتدئ من سنة ٤٤٧هـ ، وينتهي سنة ٥٥٢هـ/١٠٥٥-١١٥٧م وما تمخض عنه من أحداث ، مبينة حقيقة العلاقات التي سادت بين دولة الخلافة العباسية ، والسلاجقة التي تأرجحت بين العداء والتعاون . وقد حكم خلال هذه الفترة ستة من الخلفاء وهم القائم ، والمقتدى ، والمستظهر ، والمسترشد ، الراشد ، والمقتفى .

وألقيت في الفصل الأخير الضوء على أحداث المئة عام الأخيرة من عمر الدولة العباسية ، من سنة ٥٥٥-٦٥٦هـ/١١٦٠-١٢٥٨م . وقد حكم خلال هذه الفترة ستة من الخلفاء أيضاً وهم المستنجد ، والمستضئ، والناصر، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعصم ، وهو آخر الخلفاء العباسيين ، وبقتله انتهت الخلافة العباسية ، مظهرة أهم الأحداث في هذه الفترة من ظهور الأتابكيات ، والشاهات ، والمغول ، وما نتج عنه من سقوط الخلافة .

وحتى ألم بجوانب مواضيع الكتاب المتشعبة في المعلومات ، والمواقف والآراء والأفكار ، اعتمدت على أمهات الكتب والمصادر الأولية: منها كتب التاريخ والأنساب ، وكتب الجغرافيا ، والرحلات ، وأيضاً على أهم المراجع الحديثة والدوريات باللغة العربية والأجنبية .

وأخيراً أرجو أن أكون قد ساهمت في إيضاح جوانب مهمة من تاريخ الدولة العباسية ، شكلت رؤية جديدة للأحداث فيها من منظور سياسي مختلف إلى حد ما . كما أرجو أن أكون قد وفقت بما بذلته من جهد لإخراج هذا الكتاب على وجه مُرض . وإن كان فيه ما يقصر عن الهدف ، فعذري أننا بشر وأن يكون في محاولاتي القادمة ما يعوضه .

والله من وراء القصد !

د. فائزة إسماعيل أكبر

أستاذ مشارك

جامعة الملك عبد العزيز

جدة في ١٤٢٣/٣/١هـ

٢٠٠٢/٥/١٤م

الفصل الأول

دراسة عامة لأوضاع خراسان قبل قيام الدولة العباسية

١- عرض جغرافي لمنطقة خراسان ، وأهم المدن بها .

٢- الفتح العربي لخراسان ، ومعاهدات الصلح .

٣- استيطان القبائل العربية في خراسان .

٤- سياسة الأمويين الإدارية والمالية .

دراسة عامة لأوضاع خراسان قبل قيام الدولة العباسية:

لمعرفة أسباب وعوامل سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية يتحتم علينا دراسة أوضاع خراسان عامة ، وذلك لمعرفة أسباب تذمر أهالي هذه المنطقة ، التي قاد رجالها الانقلاب العسكري ضد الحكم الأموي ، ونجحوا في إقامة الدولة العباسية على أنقاضها .

أولاً: عرض جغرافي عام لمنطقة خراسان وأهم المدن بها:

تعني كلمة ((خراسان)) في اللغة الفارسية القديمة ؛ ((بلاد المشرق)) ، أو بلاد الشمس ؛ لأن ((خر)) تعني الشمس ، و((آسان)) أصل الشيء ومكانه(١). وقيل في تسميتها: إنها تنسب إلى خراسان بن عالم بن سام بن نوح ؛ لأن خراسان وهيطل أبناء عالم بن سام بن نوح خرجا من بابل ، فنزل هيطل في البلاد المعروفة بالهياطلة ، أو الهون البيض(٢) ، وهو بلاد ماوراء نهر جيحون ونزل خراسان في المنطقة المعروفة بخراسان في الوقت الحاضر ، فسميت كل بقعة بالذي نزلها(٣).

وتقع خراسان في الشمال الشرقي من إيران ، ويحدها من الشمال نهر جيحون ، ومن الجنوب صحراء دشت كافر ، وخورستان ، وسجستان ، ومن الغرب الصحراء الكبرى وطبرستان وبحر قزوين ، ومن الشمال جبال هندكوش ونهر الأندس(٤).

---

١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، ج٢ ، ص ٣٥٠ ؛ عماد الدين إسماعيل بن محمد أبو الفداء ، تقويم البلدان (بيروت: دار صادر ، د:ت) ، ص ٤٤١ .

٢) الهياطلة أو الهون البيض يشكلون فرعاً من فروع المغول ، وقد كانت المنطقة الواقعة ما بين نهري جيحون وسيحون مأهولة بالأتراك الهياطلة الذين عرفوا باسم (الصغد) .

٣) ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان (بيروت: دار صادر ، د:ت) ، ص ٣١٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٥٠ .

٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص٤٤١ .

وكان إقليم خراسان في أيام العرب ينقسم إلى أربعة أرباع ، نسب كلٌ ربع إلى إحدى المدن الأربع الكبرى ، التي كانت في أوقات مختلفة عواصم للإقليم ، وهذه المدن هي نيسابور ، ومرو ، وهراة ، وبلخ ، وبعد الفتح الإسلامي كانت (مرو) و(بلخ) عاصمتي خراسان[1].

فالربع الأول نيسابور ، وتلفظ بالفارسية: نيشابور ، وإنما سميت بذلك نسبة إلى الملك سابور الثاني الساساني الذي جدد بناءها في القرن الرابعَ الميلادي ، ومن أسماء نيسابور أير شهر ، وإيران شهر ، وبابر شهر والعامة يسمونها (نشاوور)[2] ، وهي مدينة عامرة في أرض سهلة مفترشة البناء مساحتها فرسخ في فرسخ تقريباً ، حسنة الهواء . وتجارها أهل ثراء تؤمها القوافل التجارية كل يوم وتصدر ثياب القطن والأبرسيم إلى جميع البلدان[3]. وبعد الفتح الإسلامي أصبحت كل من المدينتين مرو وبلخ العاصمة الأولى لخراسان إلى أيام الطاهرين الذين نقلوا عاصمتهم إلى نيسابور . فعُمرت وكثرت أموالها حتى قصدها الكتّاب والأدباء وتوافد عليها العلماء والفقهاء[4].

ومن أهم مدن ربع نيسابور ، قندز وربض ومسجدها الجامع وأسواقها بالربض . وفي هذه الأسواق خانات وفنادق يسكنها التجار . وللأساكفة

---

١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٣٢١ ؛ الاصطخري ، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ، مسالك الممالك (بيروت: دار صادر ، د.ت) ، ص٢٥٣-٢٥٤ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة: بشير فرانسيس وآخرون ، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ص٤٢٤ .

٢) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٣٢١ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي ، د.ت) ، ص٣٦١ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٣ (القاهرة: مكتبة مدبولي ، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ، ص٢٩٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٣١ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٢٤ .

٣) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٥٥ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٣ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٣٠٠ .

٤) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٥٥ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٣٢ .

والبزازين والخرازين وغيرهم من أصحاب الحرف خاناتهم[١]. ويتبع نيسابور رساتيق عامرة ، ومن هذه الرساتيق بشت ، بيهق ، كويان ، نسا وأبيورد . ولهذه الرساتيق ستة آلاف قرية مثل عمواس[٢]. وتقع في الجهة الشرقية من نيسابور مدينة المشهد أو (مشهد الإمام) ، وعلى بضعة أميال من شمال مدينة المشهد مدينة طوس . وكانت طوس في القرن الرابع الهجري المدينة الثانية في ربع نيسابور ومن مدنها طبران ونوقان . وبظاهر مدينة نوقان يوجد قبر ((عليّ الرضا بن موسى الكاظم)) ، ويجاوره قبر ((هارون الرشيد)) بقرية يقال لها سناباذ[٣].

أما ثاني أرباع خراسان فهو ربع مرو ، الذي يمتد على نهر مروغاب وتفسيره (مروآب) ؛ أي ((ماء مرو)) ، وينحدر هذا النهر من جبال الغور في شمال شرقي هراة ، ثم يمر بمرو الصغرى ، أي مروالروذ ، ويدور منها شمالاً إلى مرو الكبرى ، أي مرو الشاهجان ، وهو نهر عظيم تتشعب منه أنهار أخرى كثيرةٌ . ومدينة مرو الشاهجان قديمة أزلية بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهي في أرض مستوية ليس بها جبال ، وأرضها سبخة كثيرة الرمال . وتبعد عن مدينة نيسابور نحو سبعين فرسخاً ، وعن مدينة بلخ نحو مائة واثنين وعشرين فرسخاً[٤]. والشاه جان بالفارسية تعني روح الملك ؛ لأن الشاه هو السلطان أو الملك ، والجان هي النفس أو الروح[٥]. وهي مدينة حسنة الترتيب والتقسيم ، وكان بها في القرن الرابع الهجري ثلاثة مساجد جامعة : أولها مسجد القلعة ، ويقال له ((مسجد بني ماهان)) ثم المسجد العتيق ،

---

١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٢-٣٦٣ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٢٥ .

٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٤٠٠ .

٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٣ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٣٠ .

٤) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٥٨ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١١٣ .

٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٢٢٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١١٣ .

والمسجد الجديد الذي أنشئ في الميدان بجوار دار الإمارة والحبس ، وهي من بناء أبي مسلم الخراساني . أما أسواقها التي كانت على أبواب المدينة فنقلها أبو مسلم إلى ربضها حول الميدان ، وكانت من أنظف الأسواق وأكثرهـــا سلعة[١].

واتخذ المسلمون في صدر الإسلام من مرو الشاهجان قاعدة لهم ومعسكراً لجيوشهم ، ومنها تم للمسلمين القضاء على دولة الفرس ؛ لأن ((يزدجر)) ملك الفرس قتل بها . وفيها ظهرت دولة بني العباس ، وبها صبغ أول سواد لبسته المسودة واتخذ السواد شعاراً للعباسيين[٢]. وتشتهر مرو ونواحيها بصناعة الحرير والقز ، وبقطنها يضرب المثل في الجودة ، ويصدر منها لسائر البلدان .

ومن أعظم قرى مرو الشاهجان قرية سِنْج وتقع على نهر ، وبها بساتين كثيرة ، ثم صارت مدينة عظيمة ينتسب إليها جماعة من أهل العلم . ويليها في الجنوب الغربي من مرو في الطريق إلى سرخس مدينة الدندانقان ، وهي مدينة صغيرة محصنة ومسورة ، ولها باب واحد . وقد خربها الأتراك الغزية في شوال سنة ٥٥٣هـــ/١١٥٨م[٣].

وتعدُّ آمل من أشهر مدن ربع مرو ، تقع في غرب نهر جيحون على الطريق بين مرو الشاهجان وبخارى . ولها أسماء عديدة ؛ منها آمل زم ، وآمل جيحون ، وآمل الشط ، وآمل المفازة ، لأن بينها وبين مرو صحراء صعبة المسالك . ولربما أعطيت لها كل هذه الأسماء تمييزاً لها عن مدينة (آمل) الأخرى التـــي كانـــت قاعـــدة طبرستـــان ، وكانـــت تعـــرف أيضاً بأمو وأمويه . وتبعد عـــن مـــرو الشاهجـــان بنحـــو ستـــة وثلاثين فرسخاً ، وعن بخارى بنحو سبعة

---

١) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٥٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٤ .

٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٦٢ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٥ .

٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٧٧ .

عشر فرسخاً[1]. وتقع مروالروذ التي تعرف أيضاً مرو الصغرى على نهر مروغاب وسميت بذلك ؛ لأنها كانت صغيرة بالنسبة لمرو الأخرى , وقد كانت في القرن الرابع الهجري مدينة كبيرة عامرة آهلة بالسكان[2].

وعلى مسيرة يوم واحد من مروالروذ على ضفة نهر المروغاب من ناحية مرو الشاهجان يقع قصر أحنف ، نسبة إلى أحنف بن قيس القائد الذي تم على يديه فتح هذه المناطق سنة ٣١هـ/٦٥٢م . وهي بلدة صحيحة الهواء غنية التربة كثيرة الفواكه والكروم[3].

أما الربع الثالث من أرباع خراسان فهو ربع هراة الذي يقع بأكمله في الوقت الحاضر في بلاد أفغانستان ، ويسقيه نهر هراة . وهراة اسم المدينة ، وقد وصفها ياقوت بأنها مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان ، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة مليئة بالعلماء وأهل الفضل والثراء ، وأنه لم ير مدينة أجل ، وأعظم ، وأفخم منها عندما زارها[4]. وهي مدينة حصينة عليها سور له أربعة أبواب ، وعند كل باب من أبواب المدينة الأربعة سوق ، ومسجدها الجامع في وسط أسواقها. ودار الإمارة خارج الحصن بمكان يعرف (بخراسان أباذ) يبعد عنها نحو ميل[5].

وأكبر مدينة بعد هراة (كروخ) وتشتهر بزراعة المشمش والزبيب اللذين يصدران إلى سائر البلدان ، وهي شعب بين جبال ومساحتها نحو عشرين فرسخاً وجميعها مشتبكة البساتين والمياه والأشجار والقرى العامرة[6].

ومن مدائن هذا الربع ((بوشنج)) ، وهي مدينة جبلية تتميز بزراعة أشجار العرعر الذي يصدر خشبه إلى باقي الأقاليم ، وللبوشنج سـور وخندق وثلاثـة

---

١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٨ .

٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١١٢ .

٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٩ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٤٧ .

٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٩٦ .

٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٦ .

٦) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٦٧ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٧ .

أبواب قدرت مساحته في القرن الرابع الهجري بنحو نصف مساحة مدينـــة هراة ، وتقع غرب هراة بنحو عشرة فراسخ[١]. أما باذغيس فهي ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومروالروذ ، ويقال إن أصل الكلمة باللغة الفارسية ((باذ خيز)) ومعناه هبوب الريح ؛ لكثرة الرياح بها ، وهي مشهورة بزراعة الفستق ، وقصبتها بَون وبامئين[٢].

أما مدينة الباميان فقد كانت قصبة كورة عظيمة ، وتقع في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة ، وليس لها سور حولها ، لأنها تقع على جبل . وتبلغ مساحتها نحو نصف مدينة بلخ . وهي شديدة البرودة كثيرة الثلوج . ويستدل من وصف ياقوت لها بأنها كانت مركزاً بوذياً قديماً قبل الإسلام لأن بها صنمان نقرا في الجبل من أسفله إلى أعلاه يسمى أحدهما (سُرْ خبد) والآخر (خِنكبُد)[٣].

أما رابع أرباع خراسان فهو ربع بلخ . وبلخ اسم قصبتها أيضاً . وهي من مدن خراسان العظمى ، مثل مرو ، وهراة ومساحتها فرسخ في فرسخ (أي ثلاثة أميال في مثله) . وقيل إنها كانت تسمى بـــ (الإسكندرية) قديماً نسبة إلى الإسكندر الأكبر الذي بناها . ويذكر اسمها في كتب الأعاجم ببلخ البهية ، وحولها سور ، يحف به خندق عظيم ، ومسجدها الجامع في وسطها ، وأسواقها حول المسجد الجامع . ولها أبوب عديدة أشهرها باب النوبهار المؤدي إلى ربض النوبهار المعروف أيضاً بربض بلخ الكبير . وهي محطة تجارية تقصدها قوافل التجار من جميع الجهات[٤].

---

١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٠٨ .

٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٣١٨ ، ٣٣٠ .

٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٣٠ .

٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٧٣ ، ٣٧٤ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٣٠٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٧٩

وفي ربض النوبهار ومن أيام الساسانيين ، وجد به بيت من أكبر بيوت النار للمجوس يسمى ((النوبهار)) ، ويعني (الربيع الجديد) ؛ لأن ((نو)) تعني جديد ، و ((بهار)) تعني الربيع . وكانت من عادة الفرس إذا بنوا بناءً حسناً كللوه بالريحان في أول قطفته ، تسمى ((النوبهار)) . وكانت الفرس تعظمه وتحج إليه . وكانت له مواسم عظيمة يحج إليه البوذيون من مختلف الجهات كالهند ، والصين ، وفارس ، وعرف السادن الأكبر لهذا البيت باسم ((برمك)) وهو جد أسرة البرامكة الذين ظلوا يتوارثون هذا المنصب منذ أيام الساسانيين. وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة يسكنها خدامه ، وسدنته . وجعلوا لسادن البيت (البرمك) ما حول النوبهار من الأراضي والضياع سبعة فراسخ من مثلها ملكاً له ، ووقفوا لبيت النوبهار وقوفاً كثيرة وضياعاً عظيمة ، إضافة إلى ما يحمل إليه من الهدايا . وكل ذلك يصل إلى برمك الذي يتولى منصب سدانته . ويقال إن أصحاب الدين الزرادشتي جعلوا بيت النار فيه مضاهاة لبيت الله الحرام في مكة ، ولما افتتح الأحنف بن قيس بلاد خراسان أيام عثمان بن عفان هدم بيت النوبهار ، ودخل أهلها في الإسلام بما فيهم برمك جد أسرة البرامكة(١).

ومن أشهر مدن هذا الربع مدينة الطالقان ، وهي بين بلخ ومروالروذ على بعد ثلاث مراحل منها . وكانت في القرن الثالث الهجري مدينة جليلة عامرة بالسكان ، تقدر مساحتها بحوالي ثلث مساحة بلخ . وهي مدينة تقع بين جبلين ، وبها نهر كبير وبساتين وكروم . ولهذه المدينة أهمية كبيرة في التاريخ العباسي ؛ لأن بها وقعت أول معركة بين قوات أبي مسلم الخراساني والقوات الأموية(٢).

---

١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٣٢٢-٣٢٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٠٧-٣٠٨ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٦٣-٤٦٤ .

٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٧٤ ؛ الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٧٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦-٧ .

ثانياً: الفتح العربي لخراسان ومعاهدات الصلح:

يتفق المؤرخون العرب بأنه قد تم فتح خراسان في أيام الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (٢٢-٣٥هـ/٦٤٢-٦٥٥م) ، وعلى يد ابن خاله القائد العربي عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس(١). وكان الخليفة عثمان بن عفان قد ولى عبد الله بن عامر ولاية البصرة سنة ٢٩هـ/٦٤٩م ، وهو ابن خمسة وعشرين عاماً ، كما ولى في نفس العام سعيد بن أبي العاص على الكوفة ، وأمرهما بإعادة فتح فارس والأقاليم الشرقية بعد ان انتفض أهلها(٢).

وما أن وصل عبد الله بن عامر إلى البصرة حتى خرج في سنة ٣٠هـ/٦٥٠م غازياً إقليم فارس بعد أن حث أهالي البصرة على الجهاد . فاستولى على مدينة اصطخر عنوة وغنم المسلمون منها مغانم كثيرة ، ومن ثم سار إلى خراسان(٣). وفي نفس العام – وبأمر من الخليفة عثمان – خرج أيضاً والي الكوفة سعيد بن العاص غازياً خراسان من جهة الشمال ، ففتح جرجان وفرض على أهلها الجزية ، ووصلت طلائعه إلى طبرستان . ولكنه عندما علم بوصول ابن عامر إلى نيسابور توقف عن المسير ونزل مدينة قومس ، وصالح أهلها كما فعل مع أهالي جرجان ، ثم رجع إلى الكوفة(٤).

وعندما وصل ابن عامر إلى حدود خراسان وجه مجاشع بن مسعود السلمي إلى كرمان ، كما وجه في نفس الوقت عدداً من الحملات إلى رساتيق نيسابور وقراها ، وسار بنفسه إلى نيسابور ، ففتحت بعض هذه الرساتيق عنوة

---

١) البلاذري ، الإمام أبي الحسن ، فتوح البلدان ، د.ط (بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ، ص٣٩٤ ؛ الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) ، ج٤ ، ص٢٦٤ ؛ ابن أعثم الكوفي ، أبي محمد أحمد بن أعثم ، كتاب الفتوح ، تحقيق: علي شيري (بيروت: دار الأضواء ، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ، ج٢ ، ص٣٣٥-٣٣٦ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٢٦٤ .

٣) ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج٢ ، ص٣٣٦-٣٣٧ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ص٢٦٩ ، ٣٠١ .

مثل زام وباخرز وجوين وبيهق . ودافع أهالي نيسابور عن مدينتهم دفاعاً شديداً فلم يتمكن ابن عامر من فتحها بسهولة فحاصرها عدة أشهر . وفي أثناء الحصار وصلته رسالة من أمير طوس كناديك أو كنازيك يطلب منه الأمان مقابل مساعدته على فتح نيسابور ، فلما وافق ابن عامر على طلب أمير طوس جاء الأخير مع جنده إلى نيسابور لتقديم العون . فشدد ابن عامر الحصار على المدينة حتى رضخ مرزبانها طالباً الأمان والصلح . فعقد ابن عامر معه معاهدة صلح يدفع بمقتضاها أهالي نيسابور مبلغاً من المال قدرت بنحو مليون درهم ، وقيل سبعمائة ألف درهم ، وعين قيس بن الهيثم السلمي والياً عليها[١].

وفي هذه الأثناء كان يزدجر الثالث ، ملك الفرس الذي هرب من فارس إلى كرمان ، إثر دخول الجيوش العربية الأراضي الفارسية – ينتقل من مكان إلى مكان محاولاً حشد الجنود ، وفي إثره مجاشع بن مسعود يطارده حتى وصل إلى مدينة مرو الشاهجان ، وفي إحدى ضواحي هذه المدينة قتل يزدجر بمكان يدعى ((طاحونة الزرق))[٢].

وعلى أثر استسلام مدينتي طوس ونيسابور وسقوطهما في يد المسلمين أدرك أهالي المدن الأخرى بأنه لا طاقة لهم بمقاومة الزحف الإسلامي فتقدموا إلى عبد الله بن عامر طالبين الصلح . فأتاه دهقان نسا فصالحه على (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف درهم . أيضاً قدم عليه عظيم أبيورد فصالحه على (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائة ألف درهم . أيضاً طلب مرزبان سرخس الذي كان محاصراً من قبل جيوش عبد الله بن خازم الصلح مقابل إيمان مائة رجل ، إلا أن ابن خازم دخل المدينة عنوة وقتل مرزبانها[٣].

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٥ ؛ ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٣٣٧ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٢٨٦ ؛ الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٢٦٢ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٦٥ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٥ .

كما شخص عظيم هراة إلى ابن عامر طالباً الصلح عن هراة وبوشنج وبادغيس ، فوافق ابن عامر وعقد معه معاهدة صلح يقتضى بموجبها دفع مليون درهم ، وتقديم النصح والعون للمسلمين وإصلاح الأراضي التي تحت يديه . وأن يتم تقسيم الجزية بالتساوي على الأراضي بما فيها سهولها وجبالها. وإذا نقض أي من هذه الشروط فلا عهد له ولا ذمة(١).

وأخيراً عقد مرزبان مرو الشاهجان معاهدة مع ابن عامر يدفع المرزبان بموجبها مليونين ومائتي ألف درهم . وقيل مليوني درهم ، بالإضافة إلى مئتي ألف جريب من البرّ والشعير . وترك للدهاقين تقدير الضرائب وجبايتها . كما اشترطت المعاهدة على السكان المحلين أن يفسحوا المجال لاستيطان العرب المسلمين في قراهم ومنازلهم(٢).

وبعد أن تم للمسلمين إخضاع كل هذه المناطق بعث عبد الله بن عامر في سنة ٣٢هـ/٦٥٢م الأحنف بن قيس إلى آخر المعاقل الساسانية في خراسان ، ألا وهي طخارستان فأتى الموضع الذي سمى بعد ذلك باسم قصر الأحنف وكان عبارة عن حصن من حصون مروالروذ فحاصرها ، وعندما لم يتمكن أهلها من فك الحصار طالبوه بالصلح ، فصالحهم على (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف درهم . ثم مضى إلى مدينة مروالروذ وحاصر أهلها حصاراً شديداً وحاربهم مرات عديدة حتى اضطر مرزبانهم باذام إلى طلب الصلح فصالحهم على (٦٠,٠٠٠) ستين ألف درهم(٣). وهو مبلغ زهيد إذا ما قورن بالضرائب التي فرضت على باقي المدن الخراسانية المفتوحة ، وربما دلّ ذلك على شدة مقاومة الأهالي التي جعلت الأحنف بن قيس يقبل ذلك .

---

١) ٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٦ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٦ ؛ الطبري ، ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٣١٠ .

وكان من شروط المعاهدة:

١- إبقاء جميع الأراضي التابعة للمرزبان في يده وتحت تصرفه .

٢- عدم إخراج الرئاسة (المرزبة) من أسرته .

٣- إعفاء جميع أهله من دفع أي ضريبة .

وفي المقابل طلب الأحنف بن قيس أن يقدم المرزبان وأساورته النصرة والدعم للمسلمين عند الحاجة . وإنْ أسلم فإن له ما للمسلمين من العطاء والمنزلة والأخوة في الدين[١].

توجه الأحنف بن قيس بعد ذلك إلى بلخ ، وفي طريقه افتتح كل من الفارياب والطالقان بعد أن عقد مع أهلها معاهدات صلح . وعندما وصل إلى بلخ حاصر المدينة حصاراً شديداً فصالحه أهلها على (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائة ألف درهم ، وترك ابن عمه أسيد بن المتشمس لاستلام الجزية المفروضة عليهم . اتجه الأحنف بن قيس بجيشه بعد ذلك شرقاً حتى وصل إلى خوارزم على نهر جيحون ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ؛ لأن الشتاء داهمه فرجع إلى بلخ ، ومنها إلى نيسابور المدينة التي اتخذها عبد الله بن عامر قاعدة له[٢].

وبعد فتح خراسان رجع ابن عامر إلى البصرة ، ومنها إلى المدينة لمقابلة الخليفة عثمان بعد أن ترك بها حامية عسكرية صغيرة تقدر بنحو (٤٠٠٠) أربعة آلاف جندي ، للمحافظة على الأقاليم التي تم فتحها .

وهكذا تم فتح إقليم خراسان في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد كانت مهمة صعبة ، خاض المسلمون فيها معارك حربية عديدة ، عازمين على فتح أقاليم جديدة لم تصل إليها الجيوش العربية من قبل .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٣١١ .

٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق: أكرم ضياء العمري ، ط٢ (الرياض: دار طيبة للنشر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ص١٦٥-١٦٦ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٨ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار صادر ، د.ت) ، ج٢ ، ص١٦٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٣١٣-٣١٤ .

ثالثاً: استيطان القبائل العربية في خراسان:

يبدو أنه لم يكن في خطة الحكومة المركزية في المدينة المنورة توطين القبائل العربية في خراسان في تلك الفترة المبكرة من الفتح الإسلامي لها . فالحامية التي تركها عبد الله بن عامر في خراسان ، لم يكن القصد منها الاستيطان ، وإنما التصدي لإخماد أي تحرك أو ثورة قد تصدر من قبل السكان المحليين . فالسنوات التي تلت الفتح الإسلامي لخراسان لم تكن سهلة ، ولا مستقرة . فلم يكن هناك سلام قط ، ولا كانت لخراسان حدود ثابته ، وكان الجيش الإسلامي في صراع دائم مع الأهالي .

وقد قسم عبد الله بن عامر قبل رجوعه إلى البصرة خراسان إلى أربعة أرباع بين أربعة قبائل ، وهي القبائل الرئيسة المكونة لجيشه عند قدومه إلى خراسان ، وهم قبائل قيس ، وتميم ، وأزد ، وخزاعة . وجعل على كل ربع أميراً ، وهم قيس بن الهيثم ، وراشد بن عمرو الجُديدي ، وعمران بن الفصيل البُرجُمي وعمرو بن مالك الخزاعي[١]. واستخلف قيس بن الهيثم وجعله المسئول الأول عن المنطقة بأكملها[٢]. وكانت مهمة هؤلاء الأمراء جمع الأتاوة المفروضة على الأهالي بموجب اتفاقيات الصلح وإرسالها إلى قيس بن الهيثم الذي يقوم بدوره بإرسالها إلى أمير البصرة .

إلا أن الاضطرابات التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان ؛ من حروب أهلية ، وفتن مذهبية أثرت على حركة الفتوح الإسلامية في خراسان وعلى الاستقرار والسلم فيها ؛ وقد أدى إهمال الحكومة المركزية لأمور خراسان إلى ضعف سلطة الوالي ، وضعف الجبهة الداخلية بها ، وإلى ظهور انتفاضات محلية عارمة ضد الحكم الإسلامي ، أجبرت القوات الإسلامية على

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص١٦٧ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٣١٤ .

الانسحاب منها في عهد الخليفة علي بن أبي طالب بعد ان أغلق أهالي نيسابور (قاعدة المسلمين) أبواب المدينة في وجه جندها المسلمين(١).

أما عن كيفية إعادة سلطان المسلمين إلى المنطقة فقد أغفل المؤرخون ذكرها ، إلا ما ذُكر عن قدوم ((ماهوية)) مرزبان مرو إلى الخليفة علي بن أبي طالب بالكوفة طالباً العفو والرضا ، مقراً الصلح الذي أبرم بينه وبين عبد الله بن عامر من قبل ، على أن يؤدي الدهاقنة والأساورة ومن بمرو الجزية. فوافق علي بن أبي طالب ، وكتب له بذلك عهداً(٢). إلا أن خراسان انتفضت مرة أخرى فأرسل إليهم عليّ بن أبي طالب جيشاً بقيادة ((جعدة بن هبيرة المخزومي)) فلم يوفق في إخماد تلك الانتفاضة ، وبقيت خراسان على ذلك الوضع حتى نهاية عهد عليّ بن أبي طالب(٣).

بعد أن تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١هـ/٦٦١م وجه اهتمامه لإعادة سيطرة المسلمين على خراسان . فعين عبد الله بن عامر والياً على البصرة ، وضم إليه ولايتي خراسان وسجستان . فاستطاع ابن عامر أن يعيد فرض سيطرة المسلمين على العديد من المناطق ، من أهمها هراة ، وبوشنج ، وبادغيس ، وكابل ، وقندهار ، وبلخ(٤).

وفي سنة ٤٥هـ/٦٦٥م ولى معاوية بن أبي سفيان أخاه زياداً على البصرة ، وضم إليه خراسان وسجستان ، بعد أن عزل ابن عامر منها(٥). فقسم زياد خراسان إلى أربعة أقسام مستقلة هي : مرو ، نيسابور ، مروالروذ (ومعها الفارياب والطالقان) ، وهراة ومعها باذغيس وبوشنج . وعين على كل قسم أميراً أو والياً ، فجعل على مرو أمير بن أحمر اليشكري ، وعلى نيسابور

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٥٥٨ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٥٥٧ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٩ .

٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٣٨ ، ٤٠٠ .

٥) الطبري ، تاريخ الأمم ، ص٢١٢ ، ٢١٦ .

خُليد بن عبد الله الحنفي ، وعلى مروالروذ قيس بن الهيثم وعلى هراة نافع بن خالد الأزدي ، ولكنه جمعها مرة أخرى كولاية واحدة تحت امرة الحكم بن عمرو الغفاري ، سنة ٤٧هـ/٦٦٧م(١).

وكان أمير بن أحمر أول من عمل على استيطان العرب في القرى المحيطة بمرو سنة ٤٥هـ/٦٦٥م(٢) ، ثم تتابعت عملية استيطان القبائل العربية بها بتتابع الهجرات إليها من البصرة والكوفة . ففي سنة ٥١هـ/٦٧١م ولى زياد بن أبي سفيان ، الربيع بن زياد الحارثي خراسان ، وأرسل معه ٥٠ ألف مقاتل مع عوائلهم ، ٢٥ ألفاً من أهل البصرة ، و٢٥ ألفاً من الكوفة وأسكنهم خراسان(٣).

إلا أن ((صالح العلي)) يرجح بأن العدد الذي نقله زياد من مقاتلة البصرة والكوفة كان ٤٠ ألفاً من البصرة ، وعشرة آلاف من الكوفة . وتعليله لذلك أنه كان في خراسان زمن قتيبة بن مسلم سنة ٩٦هـ/٧١٤م نحو ٥٠ ألفاً من العرب ، منهم ١٠ آلاف فقط من أهل الكوفة ، وأنه ليس هناك دليل على انسحاب ورجوع أهل الكوفة من خراسان بعد وفاة زياد(٤).

وحيث إن سكان البصرة كانوا من قبائل قيس ، وتميم ، وأزد ، وخزاعة فإن الخمسين ألف عائلة التي أرسلها زياد إلى خراسان كانت – وبدون شك تضم عوائل من هذه القبائل . وكان نقلهم فيما يبدو جزءًا من خطة ابن زياد لحل مشكلة مثيري الفتن والاضطرابات من المهاجرين الجدد إلى البصرة الذين لم يحصلوا على العطاء المقرر لهم من بيت المال . ويذكر

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٠٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص٢٢٤ ؛ قلهاوزن ، يوليوس، تاريخ الدولة العربية ، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨م) ، ص٣٩٦ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٠٠ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٠٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص٢٢٦ .

٤) صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، ط٢ (بيروت: دار الطليعة ، ١٩٦٩م) ، ص٤٤ ، حاشية رقم (١) .

صالح العلي أنه في السنوات التي أعقبت مقتل عثمان بن عفان ، وامتناع بعض المقاطعات من إرسال المال المقرر عليها إلى البصرة ، وعدم القدرة على دفع العطاء المعتاد لبعض الجماعات القبلية الذين صاروا ينظرون بعين الحسد إلى إخوانهم من أهل العطاء ، جعلها نذير خطرٍ يهدد أمـــن المدينة[١] .

وبعد وفاة زياد عين معاوية بن أبي سفيان ابنه عبيد الله بن زياد والياً على خراسان ، وجعلها ولاية مستقلة ، فدخلها ابن زياد في أواخـــر سنة ٥٣هـــ/٦٧٣، وهو على رأس ٢٤ ألف مقاتل ، وفي صحبته ((أسلم بن زرعة الكلابي)) و((الجعد بن قيس النمري))[٢]. وبعد أن قضى عبيد الله سنتين في خراسان محارباً الترك في ((بيكند)) ، و((بخارى)) ، و((سمرقند)) ، وغنم غنائم كثيرة رجع إلى البصرة مستخلفاً أسلم بن زرعة على خراسان[٣]. والذي لا شك فيه أن بعضاً من هؤلاء المقاتلة جاءوا مع قبائلهم وعائلاتهم فاستوطنوا في خراسان في أطراف المدن مِن خط الدفاع على ضفة نهر جيحون .

ثم انضم إلى هذا العدد من المهاجرين والفاتحين جموع من قبيلة ((الأزد))، وكانت قد تحركت من عُمان إلى البصرة ، ومنها إلى خراسان تحت قيادة زعيمها المهلب بن أبي صفرة عندما ولاه الحجاج بن يوسف على خراسان سنة ٧٨هـــ/٦٩٧م[٤]. وقد لحق بهؤلاء ٢٠ ألف مقاتل أرسلهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى واليه الجنيد بن عبد الرحمن ، عشرة آلاف من البصرة بزعامة ((عمرو بن مسلم)) ، وعشرة آلاف من الكوفة تحت قيادة عبد الرحمن بن نعيم[٥].

---

١) صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية ، ص٤٩ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٠١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص٢٥٧ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٠١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص٢٩٨ ؛ ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج٤ ، ص٣١٧ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ٣١٩ .

٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ٤١٨ .

وهكذا نـــرى أن القبائل العربية التي هاجرت إلى خراسان كانت غالبيتها من البصرة ، وبعضاً منها من الكوفة وبذلك يكون مجموع العرب من مقاتلين وغيرهم بلغ عدداً لا يستهان به . وكان طبيعياً أن تحمل هذه القبائل تقاليدها القبيلية معها إلى البيئة الجديدة ، واستقرت غالبية هذه القبائل في مرو مركز الإدارة العربية ، والقرى المحيطة بها ، مثل سينان ، وميهرجان ، وفنين ، واللين وغيرها . وكانت قرية بونية تابعة لقبيلة طي وقرية باسان لبني نصر ، وقرى سفيذنج واللين وفنين لقبيلة خزاعة . وهناك قرى أخرى لكندة وبني العنبر . كما استوطن العرب القرى المحيطة ببلخ حين اتخذها أسد بن عبد الله القسري مركزاً له ، وبنى القرى حولها لجنده كما استوطن قسم منهم مدناً أخرى في بلاد ما وراء النهر . فكان للمقاتلة العرب مراكز عسكرية وقتية تبدل مواضعها بتبدل خطة القواد العسكرية ، لذلك كان استقرار الجند فيها وقتياً[١].

وبمرور الزمن أخذت هذه القبائل العربية في الاختلاط بالسكان المحليين ، وبدأوا يألفون حياة الاستقرار ، والاشتغال بالتجارة والزراعة ، فتزوجوا الفارسيات وتكلموا اللغة الفارسية وقلدوا العادات الفارسية من مأكل وملبس ، وبلغ من اندماج هؤلاء العرب في المحيط الإيراني الفارسي أن اتخذوا مع أسمائهم القبلية أنساباً للمدن التي سكنوها ، فهذا طوسي مثل قحطبة بن شبيب الطائي الطوسي ، وذاك كرماني مثل جديع بن علي الأزدي الكرماني ، وثالث مروزي وبلخي أو نيسابوري[٢]. وقد استعمل اصطلاح ((أهل خراسان)) و((أهل القرى)) في مصادرنا التاريخية للدلالة على القبائل التي سكنت واستقرت في مدن وقرى خراسان ، وليس للدلالة على السكان المحليين[٣].

---

١) فاروق عمر فوزي ، بحوث في التاريخ العباسي (بيروت: دار القلم ، ١٩٧٧م) ، ص٤٢ .

٢) مصطفى شاكر ، دولة بني العباس (الكويت: وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣م) ، ج١ ، ص٩٦ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٥٥-٣٥٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٠٠-٣٠٥ .

رابعاً: سياسة الأمويين الإدارية والمالية في خراسان:

كان إقليم خراسان في عهد الدولة الأموية يتبع والي العراق الذي يحكمها حكماً مباشراً ، أو يعين عليها والياً من قبله ، وقد استمر هذا الإجراء الإداري متبعاً خلال العهدالأموي حتى تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩هـ/٧١٧م ، فألغى نظام ولاية العراق ، وعين بدلاً من ذلك ولاة على البصرة والكوفة ، وفصل إقليم خراسان عن العراق ، ووضعها تحت سيطرته المباشرة ، وعين لها والياً مستقلاً(١).

وقد سار يزيد بن عبد الملك على سياسة عمر أول الأمر ، إلا أنه أعاد وحدة ولاية العراق وخراسان فأصبحت خراسان تابعة للعراق مرة ثانية(٢). ولما جاء هشام بن عبد الملك إلى سدة الحكم اتبع سياسة يزيد في أول الأمر ولكنه عاد وفصل خراسان عن العراق ، وجعلها تحت حكمه المباشر بعد أن عين عليها والياً من قبله لمعالجة أوضاعها المضطربة ؛ نتيجة للخصومات والصراعات القبلية وتعصب الولاة بها(٣).

فخراسان كانت كغيرها من الأقاليم التي تأثرت بالعصبية القبلية التي استغل أغلب بني أمية ثاراتها القديمة لمصالحهم الخاصة . فمنذ أن تسلم معاوية بن أبي سفيان الحكم لعب على وتر الصراع التاريخي (القيسي – اليمني) داعماً اليمنين بتفضيله الكلبيين عقب زواجه من ميسون بنت بحول الكلبي ، وذلك حتى يضمن لابنه يزيد خلافة قوية بتأييد أخواله الكلبيين أصحاب السيادة في الشام في ذلك الوقت(٤). إلا أن هشام بن عبد الملك فرط في التحالف مع اليمنية ، وتقرب من القيسية وتبعه في ذلك الوليد بن يزيد ، مما دفع بالقبائل اليمينة إلى التكتل مع يزيد بن الوليد وتنصيبه خليفة ، بعد أن

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ص٥٥٤ – ٥٦٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ص٥٨٩ ، ٦٠٤ ، ٦١٧ ، ج٧ ، ٢٠ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧، ص٢٦ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٩٩ ، ١١٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩.

٤) كارل بركلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط٨، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م) ، ص١٢٣.

تم لهم القضاء على الوليد بن يزيد بالقتل[1]. ولم يسلم أخر الخلفاء الأمويين من دوامة الصراع القبلي ، فانحاز إلى القيسين ضد اليمنين فكانت نهاية حكمه ، ونهاية دولة أسرته .

إن هذه السياسة التي سار عليها الخلفاء الأمويون ألهبت نار الإحن والأحقاد القديمة بين القبائل القيسية ، واليمنية بفروعها ، فأسفر ذلك عن حروب كثيرة بين هذه القبائل ليس فقط في مركز الخلافة ؛ وإنما تطاير شظاها إلى الولايات التابعة لها ، ومنها إلى خراسان الذي كان التعصب القبلي بها على أشده بين الأزد ، وربيعة من جهة ، وبين مضر من جهة أخرى .

والحقيقة أن التعصب القبلي أصبح داء استشرى في جميع مؤسسات الدولة الأموية ، وقد ظهر ذلك بوضوح في إقليم خراسان بين الولاة من القبائل المتخاصمة ، فإذا كان الوالي مضرياً على سبيل المثال ، تعصب لأبناء قبيلته وخصهم بالمناصب ، وآثرهم بالمنافع دون غيرهم من أبناء القبائل الأخرى ، فأدى هذا النهج في معاملة القبائل إلى تأجج العداوة ونشوب القتال بينها بسبب تعارض مصالحها .

فمن أمثلة ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي ذا الميول المضرية سعى لدى الخليفة الوليد بن عبد الملك لعزل الوالي اليمني يزيد بن المهلب بن أبي صفرة عن خراسان ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي ، فقدم هذا المضرية واضطهد أعوان المهلب ، ولكن لم يلبث أن عاد يزيد بن المهلب والياً على خراسان مرة أخرى في خلافة سليمان بن عبد الملك ، فمال إلى اليمنية واضطهد المضرية ، وأذاهم خاصة بيت قتيبة بن مسلم ، وأعوانه فحبسهم وعذبهم[2].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٢٣١ – ٢٥٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ص٤٢٤ ، ٤٤٨ – ٤٥٣ ، ٥٢٣ ، ٥٢٨ .

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز التوفيق بين المضرية واليمنية بعزله يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان . ولكن هذا التوفيق لم يلبث أن زال بعد وفاته[1].

وعندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك ولى خالداً بن عبد الله القسري على المشرق ، فاستعمل خالدٌ أخاه أسدا على خراسان ، فانحاز أسد إلى اليمانية والربعية وقربهم وأبعد المضرية وأهملهم . وتعصب أسد لليمانية حتى أفسد الناس بالعصبية[2]. ومن أجل تخفيف حدة الصراع بين القبائل أمر هشام بن عبد الملك بتعيين نصر بن سيار الليثي والياً على خراسان ؛ لعدم وجود عشيرة له في خراسان ، ولتمرسه في أمور الحكم والسياسة[3].

وكان الوالي على خراسان يتمتع بشبه استقلال ذاتي ، ومن صلاحياته حفظ الأمن ، والنظام ، والسهر على تنفيذ القوانين ، والإشراف على الشئون الإدارية . وكانت تتبعه عدة دوائر إدارية تساعده في الإدارة ، وتطبيق النظام وتنفيذ القوانين . وكان يعمل في هذه الدوائر موظفون أغلبهم من الأهالي المحليين يعملون تحت رئاسة الوالي ، ويتقاضون لقاء ذلك رواتب مقررة من الدولة . وقد حاول بعض ولاة خراسان إشراك العرب ورؤساء القبائل العربية في الأعمال الإدارية في مناطق معينة من الإقليم ؛ من أجل تدريبهم على الإدارة . وقد نجحت هذه العملية حيناً ، وفشلت أحياناً . لذلك بقيت أغلب الوظائف الإدارية في يد الأعاجم ، ما عدا الشرطة ، التي تعدُّ من أهم المؤسسات الإدارية التي يعتمد عليها الوالي ، فقد بقيت في يد أبناء القبائل العربية المختلفة. وقد حُصر عملهم في تنفيذ أوامر الوالي ونشر الأمن ومطاردة اللصوص والمتمردين والثوار ؛ أي أن عملهم كان محصـــوراً في

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ص٥٥٤ ، ٥٥٦ – ٥٦٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ٢٦ ، ٣٠ – ٣٢ ، ٣٧ .

٣) الدينوري ، أبي حنيفة أحمد بن داود ، الأخبار الطوال ، تحقيق: عبد المنعم عامر (بغداد: مكتبـــة المثنى ، د:ت) ، ص٣٤٠ – ٣٤٢ .

حفظ الأمن والاستقرار الداخلي ، ولم يذكر عنهم اشتراكهم في الحملات العسكرية أو في الفتوح[١].

أما النواحي المالية في خراسان فقد تركت إدارتها في يد الدهاقين ؛ وهؤلاء هم طبقة النبلاء المحلين . فإذا رجعنا إلى معاهدات الصلح التي تمت بين الفاتحين العرب وأهل البلاد المحلين في خراسان تظهر عدة أمور منها: أن الضرائب التي فرضت على أهالي منطقة خراسان فرضت على المدن الرئيسة في أول الأمر ، ولم تفرض على المنطقة بأكملها ، كما توقف مقدار ما فرض على كل مدينة على الظروف والأحوال المحيطة بفتحها. وقد ذكرت المصادر مقدار ما فرض على بعض المدن عند استسلامها للمسلمين أو فتحها عنوة . فقد تقرر مثلاً على مدينة نيسابور ٧٠٠ سبعمائة ألف درهم ، وعلى رستاق نسا ٣٠٠ ثلاثمائة ألف درهم . وعلى أبيورد ٤٠٠ أربعمائة ألـــف درهم ، وعلى طوس ٦٠٠ ستمائة ألف درهم ، وعن هراة وبوشنج وبادغيس مليون درهم ، على أن تقسم تلك الضريبة بالتساوي على الأرض[٢]. بينما فرضت على مرو الشاهجان عندما طلب مرزبانها الصلح ضريبة قدرت ما بين مليونين ومائتي ألف درهم[٣]. وقيل مليون درهم بالإضافة إلى مائتي ألف جريب من بُر وشعير[٤]. وقد ترك المسلمون بموجب معاهدة مرو مهمة تقدير الضريبة المفروضة وجباياتها للدهاقين ، وللعرب الحق في استلامها فقط . كما اشترطت المعاهدة على السكان المحلين إفساح المجال لاستيطان العرب في قراهم . ولهذه المعاهدة أهميتها الخاصة دون المعاهدات الأخرى ؛ فهـــي الأساس الذي بنيت عليه علاقـــات العـــرب المسلميـــن بالسكـــان المحليـــن[٥]. إذا

---

١) صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ، ص١١٢ – ١١٣ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٥ – ٣٩٦ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٤ ، ص٣٠٢ – ٣٠٣ .

٤) ٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٩٦ .

فالنظام المالي الذي طبقه العرب الفاتحون في خراسان كانت تفرضه طرق فتح هذه المقاطعات أكثر مما تقرره وارداتها المالية .

وكانت القاعدة العامة أن ترسل المقاطعات المفتوحة خُمس وارداتها إلى المصر الذي تم عن طريق مقاتليها فتحه ؛ أي أن يرسل خراسان مثلاً خُمس وارداته إلى البصرة ؛ لأنه المصر الذي تم فتح خراسان على يد مقاتليه .

إلا أن هذه القاعدة كانت عرضة للتغيير المستمر حسب ظروف وإمكانيات الأقاليم المفتوحة . فحين أرسل الأمويون ٥٠ ألف مقاتل مع عائلاتهم ، وأوطنوهم خراسان صار هؤلاء المقاتلة يأخذون عطاءهم من دخل خراسان ، وبذلك لم تعد هذه المقاطعة قادرة على أن ترسل شيئاً من دخلها إلى البصرة . كما أن إرسال مقاتلة جدد من البصرة والكوفة إلى خراسان لدعم السياسة الأموية أدى إلى حدوث شقاق ، وتصادم بين القادمين الجدد والعرب القدماء من أهل خراسان . فالعاصمة مثلاً كانت تشجع أمير خراسان على إرسال أكبر قدر ممكن من الغنائم والفيء إلى بيت المال العام ، بينما عارض ذلك القواد وشيوخ القبائل المقاتلة ، وأصروا على الاحتفاظ بأربعة أخماس الغنيمة وهو حقهم(١).

كما أن كثيراً من العرب المستقرين في خراسان حذفت أسماؤهم من الديوان ، ولم يكن لهم عطاء ؛ لعدم عملهم بالجندية مما أدى إلى انقسام العرب في خراسان إلى كتلتين كتلة المقاتلة والمستقرة وظهرت بذلك فيهم بوادر الانقسام والانشقاق نتيجة لتسلم كتلة المقاتلة العطاء وشغلهم المناصب السياسية والعسكرية(٢).

ولقد كانت القواعد الإسلامية تقضي برفع الجزية عن كل من أسلم ، كما كانت تقضي بأن الأرض التي أسلم عليها أهلها تكون أرضاً عشرية ، ولا يفرض عليها خراج ، وكذلك الأرض التي أحياها المسلمون أو فتحوها عنوة .

---

١) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية (بيروت: دار الإرشاد ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م) ، ص١٣٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٢ ، ص١٥٤٤ .

غير أن الأمويين خالفوا القواعد الإسلامية وفرضوا الخراج على ملاك الأراضي التي أسلم عليها أهلها ، وأخذوا الجزية ممن أسلم من أهل خراسان ، ولم يعفوهم عن دفعها إلا في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز وآخر أيام الخليفة هشام بن عبد الملك(1). وحرموا الموالي المنخرطين في الجيش من العطاء الذي كان يمنح للجند العرب . ولم تكن أسماؤهم مقيدة في الديوان ، أي أنه لم تكن لهم أُعطيات ثابتة ، وإنما كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً من الغنيمة(2).

وكان للدهاقين يد في سوء أحوال أهل خراسان المالية ، وذلك لأن العرب الفاتحين وكلوا إليهم جباية الخراج والإتاوة فكان الدهاقين يجمعون هذه الضرائب من مستحقيها ، بالإضافة إلى أخذهم الجزية ممن أسلم منهم وكانوا يتجبرون في استخراجها حتى يفوا بالمبالغ التي تعهدوا بأدائها . وكان لولاة خراسان يد في سوء أحوال خراسان المالية أيضاً ، لأن الدهاقين كانوا يجلبون لهم الأموال الطائلة والهدايا الثمينة فكانوا يوافقونهم على ما يشاءون ويأذنون لهم في استخراج الجزية ممن أسلم من العجم . وكان الولاة أنفسهم يحاربون من امتنع عن أداء الجزية ممن أسلم من أهالي خراسان العجم حتى يجمعوا أكبر قدر ممكن من الأموال ، فيرسلوا قسماً كبيراً منها إلى الخليفة في دمشق فيثني عليهم ولا يتهمهم بالتقصير وسيتأثروا بالقسم الآخر لأنفسهم(3). كما أثقلوا كاهل الأهالي بضرائب إضافية كضريبة المهرجان ، والنوروز وغيرها. فكان من أثر هذه السياسة أن شعر العرب المستقرون في خراسان مع السكان المحليين بنفس الأخطاء السياسية وبعين المساوئ الاقتصادية التي كان يمارسها

1) عبد الله مهدي الخطيب ، الحكم الأموي في خراسان (بيروت: مؤسسة الأعلمي ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥) ، ١٠٧-١١٥ .

2) قلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص٤٧١ .

2) حسين عطوان ، الدعوة العباسية مبادئ وأساليب (بيروت: دار الجيل ، د.ت) ، ص٢٢

أصحاب النفوذ ، وكان تذمرهم واحداً ، ألا وهو سوء سياسة الوالي الأموي وجشع الدهقان الفارسي .

والحقيقة أن الحجاج بن يوسف الثقفي والي عبد الملك بن مروان على العراق هو أول من خالف قواعد الدين الإسلامي الخاصة بالخراج بالنسبة لمن دخلوا حديثاً في الإسلام من غير العرب . وذلك عندما هاله قلة الأموال التي كانت تجبى من الأقاليم المفتوحة بعد اعتناق أهلها الإسلام ، ونقص الأموال في خزينة الدولة ففرض الجزية على المسلمين الجدد وألزمهم بالعودة إلى قراهم ، وختم على أذرعهم بالقرى التي يجب أن لا يغادروها ، وطلب إليهم أن يستمروا في العمل عليها[(١)]. وسار على منهج سياسة الحجاج من جاء بعده من الولاة ، وتمادوا في محاباتهم للعرب ، وتعصبهم لهم ، وإرهاق الموالي في استخراج الجزية ممن أسلم منهم ، وتحاملوا عليهم وحرموا مقاتليهم من العطاء . وقد ظهر ذلك جلياً في خراسان ، مما جعل أحد الخراسانيين ويدعى ((أبا الصيداء)) من موالي بني ضبة يرفع شكواه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز قائلاً: ((يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ، ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يأخذون بالخراج)) . فكان جواب عمر إلى واليه في خراسان: انظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية[(٢)]. وقد حاول الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ما استطاع من إصلاح أوضاع خراسان المالية ، فوضع الجزية عمن أسلم وأجرى العطاء على المقاتلة من العجم ، وعمل على استخراج الخراج الصحيح فمنع بيع الأراضي الخراجية وتحويلها إلى أراضي عشرية بعد سنة مائة من الهجرة ،

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ص٣٨١ ؛ يذكر البلاذري أن الخراج انكسر في أيام الحجاج بن يوسف ولم يحمل من خراج العراق في ولايته إلا أربعين ألف ألف درهم (أي أربعون مليون درهم) وكان خراجها في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مائة مليون درهم ، فتوح البلدان ، ص٢٧٠.

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٦ ، ص٥٥٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ، ج٤ ، ص١٥٨ .

كما أنه فرض على المزارعين الذين يسلمون ويبقون على أراضيهم أن يؤدوا أجرة على الأرض مقابل استثمارهم لها . وبذلك ثبت أرض الخراج ، وصلحت أحوال خراسان وحسن أوضاع أهلها[١]. إلا أن هذه الأوضاع لم تستمر طويلاً ورجعت إلى ما كانت عليه من فساد إداري وتلاعب بالجزية والعطاء بوفاة عمر بن عبد العزيز ، وتعاقب على خراسان ولاة ما بين معتدل يريد الإصلاح ، وبين ظلوم شديد متلاعب في حقوق رعاياه ، وكان من أثره أن أصبح الوضع المالي متفاوتاً بين الاعتدال والشدة حسب توجهات الولاة والخلفاء الذين تعاقبوا على عرش الخلافة الأموية بعد وفاة عمر بن عبد العزيز[٢].

وهكذا فإن أهالي خراسان ظلوا على هذه الحال سنوات طويلة يذعنون ويستكينون للظلم حيناً ، ويتحركون ويثورون حيناً آخر ، ولم يكن هذا التذمر مقتصراً على الموالي . ولم تكن الظروف السيئة التي عاشها أهالي خراسان وقفاً على الموالي وحدهم ، وإنما ساءت أحوال الكثير من العرب المستقرين بها . فقد تسلطت الفئات العربية ذات النفوذ العالي ، وفئة الدهاقين على الفئة الأخرى من الموالي والعرب الذين فقدوا امتيازاتهم .

وهكذا نجد أن سوء سياسة الأمويين الإدارية وفشل سياستهم المالية في خراسان إلى جانب مشاكل التعصب القبلي ، وما نتج عن ذلك من تذمر الفئات المغلوبة على أمرها كانت تنبئ بحدوث انقلاب كبير في الدولة الأموية . وبالفعل لبت هذه الفئات نداء الدعوة العباسية ، واشتركت فيها ، وكانت هذه الدعوة قد نشطت حركتها واشتد أمر دعاتها في خراسان في الربع الأول من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي .

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤١٥ .

٢) حسين عطوان ، الدعوة العباسية مبادئ وأساليب ، ص٦٢ .

الفصل الثانـي

قيام الدولة العباسية

١- التنظيم السري للدعوة العباسية .

٢- الإمام إبراهيم والانقلاب العسكري في خراسان .

٣- انتقال الجيوش الخراسانية إلى العراق وقيام الدولة العباسية .

أولاً: التنظيم السري للدعوة العباسية:

إن الأوضاع التي سادت في إقليم خراسان كانت توحي بحدوث انقلاب ؛ فالمشاكل الاجتماعية والمالية والسياسية التي كانت تواجه سكان خراسان كانت تتطلب حلولاً سريعة ، ولكن عندما أهملت هذه المشاكل وطال عليها الزمن ، ولم تجد الحلول السريعة لها استجاب غالبية سكانها لنداء الدعوة العباسية , وهم من الفلاحين المحليين ومن العرب من (أهل القرى) قرى نيسابور ومرو والشاهجان وبلخ[1]. وبعض من الدهاقين الذين جردتهم إصلاحات نصر بن سيار المالية[2] من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها . وبعض من القبائل العربية ، وكان أكثرهم من اليمانية والربعية ، وقليل من المضرية ، وقد استغل الدعاة العباسيون هذه العناصر المستاءة من الحكم الأموي وانتشروا بينهم يدعونهم لتقبل دعوتهم التي اتخذت شعارات اجتماعية وسياسية براقة تقوم على المساواة والعدل بين الناس ، وتنادي بالدعوة للرضا من آل محمد دون تعيين اسم الإمام ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله والقضاء على أهل الجور والثأر لأهل البيت[3].

وقبل البدء بالحديث عن وصول العباسيين إلى الخلافة والتنظيم السري الذي سلكوه عن طريق دعاتهم للوصول إلى سدة الخلافة لابد لنا من العودة

---

١) الطبري , تاريخ الأمم , ج ٧ , ص٣٥٥ .

٢) يمكن تلخيص إصلاحات نصر بن سيار والي هشام بن عبد الملك على خراسان سنة ١٢٠هـ في ثلاثة أمور: الأول أنه أسقط الجزية عن العجم المسلمين , وفرضها على الذميين وحدهم . والثاني أنه جبى الخراج من ملاك الأرض جميعاً يحسب ما يملكونه ، فقضى بذلك على تلاعب الدهاقين ووقع أكثر الخراج عليهم ، لأنهم كانوا يملكون معظم الأراضي فأضرهم ذلك وأذاهم . والثالث أنه ضبط الوظائف المقررة على المدن والنواحي واستوفاها , ولم يفرط في شيء منها . انظر: حسين عطوان , الدعوة العباسية مبادئ و أساليب , ص٦٢ .

٣) مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدوري (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٠م) ، ص١٩٤ ، ٢٠٤-٢١٣ ، ٢٢١-٢٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص١٥٩ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ .

قليلاً إلى الوراء للتعرف على أصول هذه الأسرة ، وعلى جذور الطموح السياسي لديها .

فالعباسيون ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ الذي أسلم عام الفتح فلم يكن له سابقة في الإسلام ، لذا لم يطمح في الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما اهتم بتولية ابن أخيه عليّ ابن أبي طالب بقوله له: ابسط يدك أبايعك(١).

وقد أنجب العباس عددا من الذكور أشهرهم عبد الله بن العباس الذي جاء من نسله البيت العباسي ، وعبد الله هذا شخصية علمية فريدة معروفة بغزارة العلم وكان يسمى ((البحر)) ((وحبر الأمة)) ، ((وترجمان القرآن)) ، لكثرة علومه(٢). ولم يكن له تاريخ سياسي نشط إلا إيمانه القوي بحق علي أبي طالب بالخلافة , فحارب معه المناوئين لخلافته . وبعدما تولى علي الخلافة ولاه على البصرة وأعمالها ، ولكنه غادرها بعد استشهاد علي بن أبي طالب إلى الطائف بالحجاز , وأقام بها مسالماً للأمويين . وكان له ولد يدعى (علياً) ويبدو أن علياً هذا أول شخصية تطمح إلى نيل الخلافة ؛ لهذا فإن الأمويين كانوا ينظرون إليه بعين الشك والحذر . فأقطعه الخليفة عبد الملك بن مروان قرية الحميمة في البلقاء بشرق الأردن . فأقام بها مع أسرته وذلك رغبة منه في تحديد إقامة هذه الأسرة وسهولة مراقبتهم وتتبع نشاطهم(٣).

ويعدُّ محمد بن علي الشخصية القوية الذي أظهر طموحاً نحو الخلافة ، وهو المؤسس الحقيقي للدعوة العباسية والمنظم لها . ويعدّه المؤرخون أول إمام لها ، بويع بها من قبل أبي هاشم عبد الله بن محمد بن

---

١) اليعقوبي , تاريخ اليعقوبي ، ج٢ , ص٢٤٥ ؛ أبو حنيفة الدينوري , الأخبار الطوال , ص٣٣٥ .

٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق: سهيل زكار وآخرون (بيروت: دار الفكر ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ، ج٤ ، ص٣٩-٤٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٦٢-٦٤ .

٣) اليعقوبي , تاريخ اليعقوبي ، ج٢ , ص٢٩٦ ؛ ابن قتيبة الدينوري , الإمامة والسياسة ، تحقيق: طه محمد الزيني (القاهرة: دار المعرفة ، د.ت) ، ص١٠٩ ؛ ابن الأثير , الكامل ، ج٥ , ص١٥٣ .

الحنفية بن علي بن أبي طالب زعيم حركة الكيسانية[1] ، ويسوقون رواية مفادها أن أبا هاشم الذي كانت تعتقد الشيعة بإمامته خرج إلى الشام واجتمع بسليمان بن عبد الملك فأكرمه وقضى حوائجه وأعجب بعلمه وفصاحته . وكان سليمان قد أعد له في الطريق رجالاً معهم لبن مسموم لعرضه عليه إذا خرج من عنده . فلما شرب أبو هاشم اللبن المسموم وأحس بالشر , وعرف أنه ميت لا محالة عرج إلى الحميمة مقر محمد بن علي العباسي فنزل عنده وأوصاه بالإمامة من بعده ، وأعلمه أن هذا الأمر صائر إلى ولده وأعطاه مقاليد الدعوة السرية , كما أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق بأن الأمر صائر إلى ولد محمد بن علي , فلما مات أبو هاشم ولم يكن له عقب من بعده قصدوا محمداً وبايعوه فأغرم محمد بن على منذ ذلك الوقت بالخلافة . وكان ذلك سنة ٩٨هـ/٧١٦م[2].

وعلى الرغم من ذكر هذه الرواية في أغلب المصادر التاريخية واجتماع المؤرخين على صحتها , إلا أنني لا أرى أهمية كبرى لذكرها ومناقشتها في مؤلفاتنا والخلاف حول صحتها ؛ لأن ذلك في رأي لا يمس جوهر حقيقة قيام الدعوة العباسية , وذلك أن العباسين عندما رأوا ضعف الحزب العلوي الذي أنهكته الثورات اليائسة , وضاعت قوته بين اختلاف الشيعة في تحديد الإمامة وفي من تكون في أفراد البيت العلوي , أدركوا على يد زعيمهم محمد بن علي العباسي من أن العلويين عاجزون عن القيام بالأمر , ففكروا في الاستئثار بالدعوة والاستحواذ عليها ، واتخذوا من الوصية حجة استندوا إليها في تقرير

---

١) سمي بابن الحنفية نسبة إلى أمه خولة بنت قيس من بني حنيفة ، وهم فرع من بكر بن وائل . أما الكيسانية فهم اتباع المختار بن عبيد الله الثقفي الذي قام بثأر الحسين بن عليّ ، وقتل أكثر الذين قتلوا الحسين بكربلاء ، وكان يقال له كيسان ويقولون بإمامة محمد بن الحنفية . انظر : البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ، ط٥ (بيروت: دار الآفاق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ص٢٧ .

٢) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص١٨٤ ؛ ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية (بيروت: دار بيروت ، ١٣٨٥هـ) ، ص١٤٣ .

حقهم في الخلافة , فاحكموا بذلك الخطط ورفعوا شعارات ومبادئ خلابة كفلت لدعوتهم النجاح والظهور .

وقد توارى العباسيون خلف شعار الرضا من آل محمد[١]. والمتأمل لهذا الشعار يعتقد أن المقصود بالرضا من آل محمد هم العلويون وحدهم . ولكن هذا الشعار كان يحمل في طياته أيضاً حق العباسيين في الخلافة باعتبارهم أحد فرعي آل البيت . فقد أخفى العباسيون مطامحهم السياسية بل إنهم بالغوا مبالغة شديدة في إخفاء شخصية الإمام طوال فترة التخطيط السرية للدعوة ، فبقيت شخصية الإمام سرية لا يعرف اسمه ونسبه إلا قلة من دعاتهم.

وحتى يصرفوا أنظار الأمويين عنهم اشتغل الإمام محمد وأخوته بالجهاد وقتال الروم , وأقاموا في ثغور الشام ورابطوا بالسواحل[٢]. فقد ذكر صاحب كتاب أخبار الدولة العباسية ((أن شيعة محمد بن علي بالكوفة لم يبلغوا ثلاثين رجلاً عند انقضاء السنة المائة ، ولم يكن أحد يعرف نسب محمد بن علي واسمه إلا أولئك الرهط , فإذا سئلوا عن اسمه قالوا : أُمرنا بكتمان اسمه حتى يظهر))[٣]. فقد كان في ستر شخصية الإمام الذي يُدعى ((بالرضا من آل محمد)) خدعة للعلويين ممن يعتقدون بأن الخلافة حق لآل البيت من نسل علي بن أبي طالب . فبذلك استغل العباسيون أبناء عمومتهم وأغروهم بالانضمام إليهم واعتمدوا على شيعتهم فمنهم كان كبار دعاتهم بالعراق , ومنهم كانت أكثر الوفود التي أرسلت لنشر الدعوة بخواسان , أمثال (بكير بن ماهان) ، و(سالم بن بجير) ، و(أبي عكرمة السراج)[٤]

---

١) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٠٤ .

٢) مجهول , أخبار الدولة العباسية ، ص١٧٤ .

٣) مجهول , أخبار الدولة العباسية , ص١٩٤ .

٤) مجهول , أخبار الدولة العباسية , ص٢٠٣ .

دور الإمام محمد بن علي في تنظيم الدعوة:

استقر محمد بن عليّ في الحميمة , واتخذها مقراً له لتكون مركزاً لنشاطه السياسي ، واتخذ من الكوفة وخراسان مراكز لنشاط الدعاة . فالكوفة تتوسط الموقع بين الشام والجزء الشرقي للدولة الإسلامية , وعلى صلة بخراسان . لذلك عين فيها الإمام (محمد بن علي) كبير الدعاة , وجعله مسئولاً عن نشر الدعوة والإشراف عليها في خراسان فكان الدعاة يفدون عليه من خراسان وهو يكتب إلى الإمام في الحميمة عن أنباء الدعوة ويعلمه بتطوراتها.

أما خراسان فقد كان اختيارها موفقاً لاعتبارات كثيرة منها: موقعها الجغرافي , وبعدها عن دمشق حاضرة الخلافة الأموية , وحالة التذمر التي كان يعيشها سكانها من عجم وعرب ؛ نتيجة لسياسة الأمويين الاقتصادية والاجتماعية التي سبق الإشارة إليها . ويبدو أن الإمام محمد كان على علم بتلك الأحوال , فقد وضح ذلك لدعاته بقوله: عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير , والجلد الظاهر , وهناك صدور سالمة , وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل , ولم تشغلها ديانة ، ولم يقم فيها فساد .... وما يزالون يمتهنون ويظلمون ويتحينون الفرج[1].

وقد فاضل الإمام بين الأقاليم لدعاته بقوله: أما الكوفة وسوادها فشيعة علي , وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف , وأما الجزيرة فحرورية وأعراب كأعلاج مسلمون في أخلاق نصارى , وأما الشام فلا يعرفون إلا آل سفيان وطاعة بني مروان وعداوة لنا راسخة , وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان[2].

وقد أجمعت المصادر على أن سنة ١٠٠هـ/٧١٩م هي السنة التي بدأ الإمام محمد بن علي دعوته ، وقد نظمها تنظيماً سرياً محكماً ، ووجه اثنى

١) ٢) مجهول , أخبار الدولة العباسية , ص٢٠٦ .

عشر نقيباً إلى خراسان ليقوموا بالدعوة فيها ، وكان لكل نقيب نظراء ، وارتبط بهؤلاء النقباء سبعون داعية , ونظراء لهم عرفوا بدعاة الدعاة[1].

وقد ذكر صاحب أخبار الدولة العباسية أسماء النقباء الاثنى عشر, وأسماء الدعاة السبعين , وأسماء نظراء النقباء . وكان غالبية النقباء الاثني عشر من القبائل العربية يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي القائم بأمر بخراسان . والنقباء هم:

من قبيلة خزاعة: سليمان بن كثير الخزاعي , ومالك بن هيثم الخزاعي ، وزياد بن صالح الخزاعي , وطلحة بن زريق الخزاعي . من قبيلة تميم: موسى بن كعب التميمي , وعيسى بن كعب التميمي ، ولاهز بن قريظ التميمي , والقاسم بن مجاشع التميمي . من قبيلة طيء: قحطبة بن شبيب الطائي . من قبيلة شبيان: خالد بن إبراهيم الذهلي الشبياني . من قبيلة بجيلة: سالم سلام البجلي . من قبيلة حنيفة: مولى بني حنيفة شبل بن طهمان[2].

كما استعمل الإمام محمد بكير بن ماهان كبيراً للدعاة بالكوفة وهو أول من حمل مال الشيعة إليه ، وظل يقوم بأمر الدعوة بالكوفة , للإمام محمد ثم لابنه الإمام إبراهيم . وبكير بن ماهان هو الذي اقنع الإمام بنقل مركز نشاط الدعوة إلى خراسان مع بقاء الكوفة نقطة ارتباط بين مرو والحميمة[3]. وكان لبكير أخ في السند مات وترك مالاً كثيراً , وكان بكير وارثه الوحيد فاستأذن الإمام في الخروج إلى السند , فأذن له فأخذ تركة أخيه وانحدر إلى خراسان , فنزل على سليمان بن كثير الخزاعي لما كان بينهما من معرفة قديمة[4].

---

١) وذلك إذا مات رجل من النقباء صُدر مكانه رجل من النظراء . انظر: أخبار الدولة العباسية , ص ٢١٩ .

٢) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢١٦-٢١٩ .

٣) شاكر مصطفى ، دولة بني العباس ، ج١ ، ص١٢٠ .

٤) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٠٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص١٩٣ .

وهكذا ظلت الدعوة تعمل في صمت وكتمان ولا أحد يعرف عن أمرها شيئاً , حتى كان سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م حين أرسل بكير بن ماهان وفداً من الدعاة إلى خراسان ففشا خبرهم بها ، ونما إلى والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أمرهم فقتل أكثرهم وصلبهم[1]. ويبدو أن أسد تولى متابعة دعاة الشيعة فعلى يده قتل أنشط الدعاة في خراسان أبي عكرمة السراج في العام نفسه .

ثم تتبع أسد جماعة من النقباء قبل أن يُعزل عن خراسان سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م وهم: سليمان بن كثير الخزاعي , ومالك بن الهيثم الخزاعي , وطلحة بن زريق الخزاعي , وخالد بن إبراهيم الربيعي , وموسى بن كعب التميمي , ولاهز بن قريظ التميمي , وأغلظ لهم القول وعذبهم ، ثم حذرهم وأطلق سراحهم[2].

بعد انكشاف أمر الدعاة بخراسان والتنكيل بهم تأنى الإمام محمد في إرسال دعاة آخرين إليها ما يقرب من ست سنوات . وأول وفد قدم إلى خراسان بعد مقتل أبي عكرمة كان سنة ١١٣هـ/٧٣١م , ولكن هذا الوفد تعرض أيضاً للتنكيل في ولاية الجنيد بن عبد الرحمن[3]. وعلى الرغم من تعرض الدعاة للتنكيل والعذاب من قبل ولاة بني أمية , إلا أن ذلك لم يؤثر على الدعوة ولا على نشاط الدعاة .

إن من أكبر الأخطار التي صادفها الإمام محمد بن علي وأثرت على مسار الدعوة وعلى صفوف دعاتها هو انحراف الداعي خداش عن تعاليم الإسلام , ومخالفته لخطة الدعوة وأهدافها المرسومة سنة ١١٨هـ/٧٣٦م . واسمه عمار بن يزيد ، وهو نصراني من أهل الحيرة , أسلم ثم صار معلماً

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣١٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٣٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص١٠٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٨٩ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٣٩ .

بالكوفة . فأعجب به بكير بن ماهان وأرسله إلى خراسان يرأس الدعوة العباسية هناك . فنزل مرو , وتسمى بـ(خداش بن يزيد) . ودعا الناس إلى دعوة بني العباس فأطاعوه , إلا أنه انحرف بعد ذلك عن سير الدعوة , وخرج عن مبادئها وقواعدها ، وأعلن دين الخرمية[١]. فانحاز إليه بعض النقباء والدعاة مثل مالك بن الهيثم الخزاعي ، وهو من النقباء من أهل مرو الشاهجان والحريش بن سليمان مولى خزاعة , وكان من مجلس السبعين من أهل نسا , وأجاز لهم ترك الطاعات والفروض[٢].

غضب الإمام على شيعته بخراسان لاعتناقهم مبادئ خداش فقاطعهم سنتين كاملتين فبعثوا إليه سليمان بن كثير الخزاعي ليخبره بخبرهم , ويعلم رأيه فيهم فقابله سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م وتبرأ الإمام محمد من خداش ومقالته , ولام شيعته على قبولهم دعوته[٣]. ويبدو أن لبكير بن ماهان دوراً كبيراً في إعادة الشيعة إلى الصف وحثهم على الوحدة , ونبذ أفكار خداش والتنصل من دعوته فقد جمع رؤساء شيعة بني العباس ، ولقيهم بمنزل سليمان بن كثير الخزاعي بمرو الشاهجان , وأصلح ما فسد من أمرهم[٤].

نظم محمد بن علي الدعوة بعد ذلك تنظيماً دقيقاً محكماً مستفيداً مما حدث مع الداعي خداش , كما أعاد النظر في بنية التنظيم السري في خراسان, فكان أنصاره ونقباؤه يجتمعون إليه في مواسم الحج , وفي الأماكن المقدسة وأحياناً كانوا يأتون إليه متخفين في زي التجار إلى مركزه بالحميمة حيث يأتون إليه بالأموال التي يجمعونها من الأنصار ويتشاورون معه بشؤون الدعوة , ويأخذون منه الأوامر . وقد ذكر أنه في أحد المرات قدم عليه الدعاة بمبلغ مئتي ألف درهم , وكسي بثلاثين ألف درهم ، وهذا يدل على ازدياد

١) ابن الأثير ، الكامل ، ص١٩٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص١٠٩ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢١٨-٢٢١ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٢ ، ص١٤٢ .

٤) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢١٣ .

أعـــداد أنصـــار الدعـــوة[1].

وقد كان لانضمام أبي مسلم الخراساني إلى صفوف الدعوة في أواخر عهد الإمام محمد أثر كبير في إذكاء روح الحماس والتجديد للدعوة[2]. وكان أول اتصال له بالعباسين حين خرج سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب يريدون الحج والالتقاء بالإمام محمد في سنـــة ١٢٤هـ/٧٤٢م . ومر هؤلاء الدعاة في طريقهم بالكوفة والتقوا بالعجليين أنصار الدعوة بالكوفة , ومعهم أبو مسلـــم يعمل في خدمتهم فاسترعى انتباههم وأعجبوا بذكائه , وأدبه , وقوة إرادته , وتوسموا فيه النجابة فحملوه إلى الإمام ليستفيد منه ويجنده لخدمة الدعوة[3]. فأعطاه اسم عبد الرحمن بن مسلم وكناه بأبي مسلم واستخدمه وسيطاً بينه وبين كبار العاملين في الدعوة[4].

ويبدو أن البيئة العراقية الثائرة والخراسانية الحاقدة التي نشأ بها أبو مسلم جعلت منه الشخصية الصالحة للظهور بالدعوة العباسية , هذا إلى جانب ما تحلى به من صفات الجرأة والطموح وحسن الرأي , والتدبير والحزم والحكمة . إلا أن صحبة أبي مسلم للإمام محمد كانت قصيرة , حيث توفي الإمام سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م وأوصى لابنه إبراهيم من بعده[5]. وعلى هذا النحو نمت الدعوة العباسية في حياة الإمام محمد بن علي , فقد وضع مبادئها , وشعاراتها , ونظم مجالسها وانتخب نقباءها ودعاتها , وجدَّ في توطيد دعاتها حتى انتشرت واتسعت .

---

١) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٣٧ .

٢) يرجع أصل أبي مسلم الخراساني إلى أصبهان . انظر: مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٢٥ .

٣) هذا يدل على أن أبا مسلم كان مولى لبني عجل المؤيدين للدعوة .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص١٩٨ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٥٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٤٦ ؛ ابن طبا طبا ، الفخري ، ص١٤٠ ، ويذكر أن الذي أعطاه اسم عبد الرحمن هو الإمام إبراهيم .

٥) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ص١٢٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٢٢٧ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٣٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٧٥ .

ثانياً: الإمام إبراهيم والانقلاب العسكري في خراسان:

خلف الإمام إبراهيم أباه الإمام محمداً في رئاسة الدعوة العباسية , فجَّد في نشرها وتنظيمها , وحمل على إعلان الدعوة وإظهارها , وساعده على ذلك عدد من رجال الدعوة المخلصين لها ؛ أمثال: بكير بن ماهان , وأبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني . ففي سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م وجه الإمام إبراهيم ، بكير بن ماهان إلى خراسان ليعلم شيعتهم هناك بوفاة والده وقيامه بالإمامة من بعده بناء على وصية أبيه . فقدم بكير مرو , وجمع النقباء , ومن بها من الدعاة فأخبرهم بما جاء من أجله , فقبلوا وبايعوا ودفعوا ما اجتمع لديهم من أموال . فرجع بكير إلى الإمام إبراهيم بالحميمة وأعلمه بما حصل(١).

وفي سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م مرض بكير بن ماهان وقبل وفاته أرسل إلى الإمام إبراهيم بأنه أوصى إلى زوج ابنته سليمان بن حفص , وكان يكنى بأبي سلمة الخلال أن ينوب عنه في رئاسة الدعوة بالكوفة , وزكاه وأثنى عليه فقبل الإمام , فأصبح بذلك أبو سلمة كبير الدعاة بالكوفة , وكان صيرفياً وقيل خلالاً يبيع الخل . وأمره بالمسير إلى خراسان لمتابعة سير أمور الدعوة بها لتهيئة شيعتهم وتأهبهم لليوم المرتقب يوم إعلان الدعوة والانقلاب المنتظر . فخرج أبو سلمة إلى خراسان مصطحباً معه أبو مسلم يخدمه , فعرج على جرجان , وعلى أكثر مدن وقرى خراسان , أمثال نسا وأبيورد , ولقي من بها من شيعتهم ثم وصل إلى مرو الشاهجان والتقى بالدعاة والنقباء موصياً إياهم بالتأهب والاستعداد , ووكل بهم جميعاً سليمان بن كثير الخزاعي , ثم رجع إلى الكوفة ومنها إلى الحميمة لمقابلة الإمام وأعطاه تقريراً مفصلاً عن الأوضاع في خراسان حاملاً إليه خُمس أموال شيعتهم هناك.

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٢٩٤ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٤٠ ؛ مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، تحقيق: دي غويه (ليدن: د.ن ، ١٨٦٨م) ، ج٣ ، ص١٨٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٩١ .

ظل أبو سلمة الخلال يشرف على أمور الدعوة في خراسان ، متابعاً أمورها بإرسال الدعاة إليها , واستقبال الوفود منها . وكان أبو مسلم الخراساني كثيراً ما يتردد عليها حاملاً كتب الإمام إلى النقباء هناك , ويعود منها بالأخبار الدقيقة واصفاً أوضاعها بصدق , مما جعل الإمام إبراهيم يزداد ثقة به حتى إذا كانت سنة ١٢٨هـ/٧٤٦م قرر الإمام تعيينه رئيساً للدعوة , وممثلاً له في خراسان , وذلك بعد عرضها على كبير النقباء سليمان بن كثير, وكان شيخاً كبيراً فرفضها . ثم عرضها على إبراهيم بن سلمة فأبى[١]. وجعل ولايته على خراسان ، وسجيستان ، وكرمان ، وجرجان ، وقومس ، والري ، وأصبهان وهمذان وجعل ولاية أبي سلمة مادون عقبة همذان من أرض العراق والجزيرة والشام[٢]. ثم أوصاه أن يعتمد على العرب اليمنية ، وأن يتفاهم مع ربيعة , لأنهم كانوا ساخطين على سياسة مروان بن محمد وواليه نصر بن سيار وخوفه من المضرية لاعتماد نصر عليهم وحدهم , وأمره بتكريم سليمان بن كثير الخزاعي والاعتماد على رأيه ومشورته .

أما ما ذكر عن وصية الإمام إبراهيم لأبي مسلم الخراساني بقوله: ((بأن لا تدع بخراسان عربياً إلا قتلته))[٣]. أو قوله ((إن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل))[٤]. التي شغلت أغلب المؤرخين المحدثين وناقشوها في مؤلفاتهم ، فمنهم من أقر بصحتها ، ومنهم من شكك بها . فأرى أنه لا داعي لذكرها , وإضاعة الوقت والجهد لإثبات صحتها من عدمه ؛ لأنها رواية لا يقبلها المنطق , ويبدو أنها موضوعة من قبل أعداء الدولة العباسية . والذي يثبت عدم صحتها اعتماد العباسيين في قيام دولتهم على القبائل العربية وشيوخها وخاصة اليمنية منها.

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٤٤ .

٢) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٧٠ .

٣) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٩٢ .

٤) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص١٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٤٧ ؛ =

إن تولية أبي مسلم على رئاسة الدعوة في خراسان ودخوله مرو الشاهجان سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م بأمر من الإمام إبراهيم أزعج بعض النقباء العرب , وعلى رأسهم سليمان بن كثير الخزاعي الذي أخذته العزة بعشيرته , ومكانته وكفاحه في سبيل الدعوة , فاحتقر أبا مسلم واستنكر خضوعه له[١]. إلا أن ذلك لم يمنع أبو مسلم من أن يستولي على الأمر بأغلبية أصوات شيعة العباسيين , الذين كانوا يحتقرون سليمان بن كثير لشدة تكبره , فعزلوه عن قيادتهم ، وولوا أبا مسلم عليهم وأجلوه وعظموه , وأدانوا له بالطاعة كما أمرهم بذلك الإمام , فلم يجد سليمان بن كثير مفراً من الإذعان والطاعة لأبي مسلم الذي أصبح رئيساً للدعوة دون منازع[٢].

اتخذ أبو مسلم من قرية سفيذنج بالقرب من مرو الشاهجان مركزاً له , وأخذ يعمل على السيطرة على خراسان ، وجمع الدعاة ليتأهبوا لإظهار الدعوة في أخر شهر رمضان ، فأقبل عليه الناس من كل جانب ، وكثر جيشه حتى بلغ عشرة آلاف من راجل وفارس[٣]. فلما أحس بقدرته واستعداد أتباعه للجهر بالدعوة , أمر بإشعال النار على قمم الجبال ؛ إشارة منه لأصحابه بالتجمع ولبس السواد ونادى بشعار (يا محمد يا منصور) , وكان ذلك في يوم ٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ/يونيه ٧٤٧م . ويبدو أن المناداة بشعار (يا محمد يا منصور) له مغزاه السياسي والروحي لدى القبائل اليمنية الذين ناصـروا الدعوة , فالنداء بـ (يا منصور) شعار يذكرهم بالمنقذ اليماني القحطاني المنتظر (منصور اليمن أو منصور حمير) والنداء بشعار (يا محمد) قد يشير إلى الرسول ﷺ ودينه ، أو قد يكون إشارة إلى محمد بن علي العباسي[٤].

= ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط٢ (بيروت: مكتبة المعارف ، ١٩٧٤م) ، ج١٠ ، ص٣٣ .

١) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٧٠ .

٢) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٧٢ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٥٧-٣٦٣ ؛ مجهول، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص١٨٦-١٨٧.

٤) أمينة البيطار ، دراسات في تاريخ الخلافة العباسية (الرياض: مكتبة دار القلم والكتاب ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ، ص٤٩ .

فلما كان يوم عيد الفطر المبارك أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يُصلى بالناس , ونصب له منبراً في معسكره , وأمره أن يخالف في ذلك بني أمية ويعمل بالسنة[1]. فتجمع إلى أبي مسلم خلق كثير من الشيعة حتى ضاقت بهم سفيذنج فمكث بها ٤٢ يوماً , ثم رحل إلى الماخوان ، وهي قرية كبيرة من قرى مرو الشاهجان وعسكر بها . وهناك عمل على تنظيم معسكره فولى مالك بن الهيثم الخزاعى أمر العسكر , أي جعله صاحب الشرطة وجعل ابنه نصر بن مالك خليفته , وولى خالداً بن عثمان مولى باهلة الحرس , واستعمل على الرسائل أسلم بن صبيح وعلى القضاء القاسم بن مجاشع التميمي , واستعمل على الجند كامل بن مظفر مولى باهلة، وأمره أن ينسب أسماء الجند وأسماء أبنائهم , وينسبهم إلى القرى , ويسجل ذلك في دفاتر فبلغ عددهم ٧ آلاف رجل , فأعطاهم ثلاثة دراهم لكل رجل ثم زادهم درهماً[2].

كما أرسل أبو مسلم إلى نصر بن سيار كتاباً يعلن فيه الخروج , مظهراً له أن الأمر صائر إلى الإمام الذي يدعو إليه , وأنه ((لن يجد لسنة الله تبديلاً))[3]. وقد أغضبت جرأة أبي مسلم هذه نصر بن سيار , ولكنه لم يكن بإمكانه مواجهته في ذلك الوقت الحرج . فقد كان الصراع على أشده بينه وبين رئيس الأزد اليمانية جديع بن علي الكرماني الذي كان يكره نصراً , لمحاباته المضرية على حساب اليمنية ، وكان يكره بني أمية وولاتهم لقتلهم يزيد بن المهلب وإخوته , وهم أبناء قبيلته وسادتها . فاستطاع الكرماني أن يستولي على مرو الشاهجان فخرج منها نصر إلى نيسابور , وظل الفريقان يقتتلان دون أن يظفر أحدهما بالآخر . فاستغل أبو مسلم هذه العداوة لصالحه أحسن

١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص٣٠ .

٢) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٧٧-٢٨٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٦٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٦٩ .

٣) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ، ج١ ، ص١٨٨ .

استغلال ، بما عرف عنه من دهاء وذكاء ودبلوماسية , وعمد إلى كسب جانب الكرماني لأن كليهما يحارب نصراً , وإن اختلفوا في السبب(١).

وعندما علم نصر بذلك التحالف اغتم وبدأ يراسل الكرماني ويخوفه من أبي مسلم , ولكن الكرماني رفض عرض نصر . فأرسل له نصر بعضاً من خاصته كمنوا له وقتلوه غيلة , ثم صلبه بعد ذلك(٢). وبعد مقتل جديع انحاز ابنه علي إلى أبي مسلم , الذي تعهد له بمساعدته على الثأر من قاتل أبيه نصر بن سيار , وبذلك استحوذ أبو مسلم على عسكر الكرماني(٣).

ولاشك أن سيطرة أبي مسلم على معسكر الكرماني وانضمام ابنه إليه وطد قدمه في خراسان . فقوى أمره وكثر أتباعه , بينما أخذ أمر نصر يضعف وشعر بعجزه أمام أبي مسلم , فأرسل إلى يزيد بن هبيرة وإلى العراق يصف ما آل إليه أمر خراسان وظهور المسودة ويطلب منه العون , ولكن يزيد كان مشغولاً بمحاربة الخوارج(٤). فرد عليه بقوله ((لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجال))(٥).

والظاهر أن نصر بن سيار عمل ما في وسعه لدرء خطر الانقلاب العسكري على سلطة بني أمية في خراسان , فكان يرسل النداءات المتكررة للوالي الأموي في العراق يزيد بن هبيرة , والخليفة مروان بن محمد منذراً

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٦٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٦٥ .

٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص١٢٩ ؛ أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٦٢ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٤١ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ط٥ (بيروت: دار الفكر ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ، ج٣ ، ص٢٥٥ ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص١٨٦ .

٣) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٦٣ ؛ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٤١ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٢٨٨ .

٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٥٧ .

٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص١٣٤ ؛ أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٤٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٧٠ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٥٧ .

إياهم بالخطر المحدق , واصفاً حال أبي مسلم وكثرة اتباعه , ودعوته لإبراهيم بن محمد ، مصوراً له الوضع في أبيات من الشعر مطلعها[1].

أرى بين الرماد وميض جمر حريّ أن يكون له ضرامُ
فإن النار بالعودين تورى وأن الفعل يقدمه الكلامُ
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ بني أمية أم نيامُ

إلا أن مروان بن محمد لم يستطع إمداد نصر ؛ لانشغاله بمحاربة الخارجين عليه والمعارضين لحكمه , فأمره بحفظ ناحيته بجنده , ثم طلب من يزيد بن هبيرة أن يرسل له المدد المطلوب .

حاول نصر أن يستفيد من الوقت حتى يأتيه المدد ، وأخذ يخاطب القبائل العربية بمرو وخاصة ربيعة التي انضمت إلى اليمن في مناصرتها لأبي مسلم. وأخذ ينظم شعراً بهذا المعنى ، ويوجهه بين القبائل بمرو الشاهبان مناشداً إياهم التآلف ومحاربة عدوهم أبي مسلم ، وشيعته متهماً إياهم بأنهم لا دين لهم.

ولكن خطة نصر هذه لم تأتِ بالنتيجة المرجوة ، وأمام دسائس ومؤامرات أبي مسلم ، فشلت محاولات نصر ، فلم يجبه أحد ، ورفضت القبائل اليمنية عقد الصلح معه ، وطالبت بعزله عن ولاية خراسان . وظل أمره في ضعف وأمر أبي مسلم في ازدياد وقوة حتى كان سنه ١٣٠هـ/٧٤٨م وبالتحديد في يوم ٩ جماد الثانية ١٤ فبراير ، عندما تمكن أبو مسلم من دخول دار الإمارة في بمرو والشاهجان بمن معه من الأنصار وهروب نصر منها . وبهذا احتل أبو مسلم مرو القاعدة ، دون أن يدخل في معارك دامية في احتلالها . وبعدما استقر عقد الألوية لقواده سيرهم لتتبع نصر الذي هرب إلى نيسابور ، ومنها إلى جرجان ، وعندما علم بملاحقة قوات أبي مسلم له فر إلى الري ، فمرض بها ثم رحل عنها ونزل بساوة قريباً من همذان ، وبها مات

---

١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ج٢ ، ص٣٩٦ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ج٤ ، ص١٧٨ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٤١ .

سنة ١٣١هـ/٧٤٩م عن عمر يناهز الخامسة والثمانين[١].

وفي هذه الأثناء شرع أبو مسلم في التخلص من أعداء الدعوة من العرب بخراسان من اليمنية والربيعة ، الذين لم يدخلوا في الدعوة ، وكانوا يطمعون في الرئاسة فقتل الحرورية من الربيعية من أتباع شيبان بن سلمة اليشكري ، وقتل المضرية من شيعة بني أمية ، أما سائر اليمنية والربيعية والمضرية الذين انضموا إلى الدعوة فإنه لم يمسهم بسوء ، لأنهم كانو أنصاره وأعوانه[٢]. ثم عمل على تصفية رؤساء القبائل اليمنية أمثال عليّ بن جديع الكرماني ، وأخيه عثمان غيلة وغدراً ، حتى لا يقاسموه السلطان ويشاركوه فيه فيخلو له الأمر[٣].

ثالثاً: انتقال الجيوش الخراسانية إلى العراق وقيام الدولة العباسية:

دور قحطبه بن شبيب الطائي:

أدرك الإمام إبراهيم قدرات قحطبة بن شبيب الطائي العسكرية وتفانيه في خدمة الدعوة ، وهو أحد النقباء الاثني عشر . فأرسل إلى أبي مسلم يخبره أنه ولاه قيادة الجيوش العباسية ، وأمره بالسير إلى العراق ، فسلم إليه أبو مسلم القيادة . فاتجه قحطبة إلى العراق ، وفي طريقة اكتسح الحصون ، وأخذت المدن الخرسانية تتساقط في يده فسقطت أبيورد ، وسرخس ، وطوس ، ونيسابور ، وجرجان ، وقومس وطبرستان والخوار ، والري وأبهر وهمذان ، ونهاوند وقم وأصبهان وجابلق ، وباستيلاء القوات الخراسانية على جابلق في رجب ١٣١هـ/مارس ٧٤٩م سيطر العباسيون على كل الجناح

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٧٩-٣٩٠ ، ٤٠٣-٤٠٤ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٢٨-٣٣٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٣٨٥-٣٨٦ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٢٢-٣٢٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٨٣ ؛ حسين عطوان ، الدولة العباسية تاريخ وتطور ، ص٣٠٣ .

٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص١٣٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ص٣٨٦-٣٨٨ .

الشرقي للخلافة[١].

وفي أثناء المعارك الدائرة في خراسان وقع في يد مروان بن محمد كتاب مرسل من إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني اتضح لمروان فيه أن إبراهيم صاحب الدعوة في خراسان ، فكتب إلى عامله في البلقاء بأن يسير إلى الحميمة ، ويقبض على إبراهيم ويبعث به إليه . فأُخذ إبراهيم ، وكان جالساً في مسجد القرية وحُمل إلى مروان حيث أودعه السجن[٢]. وهناك روايات وأقوال مختلفة في أسباب القبض على إبراهيم الإمام وحبسة منها ، أن عبد الله بن الحسن هو الذي وشى به إلى مروان بن محمد فقبض عليـــه ، وذلك أن عبد الله بن الحسن عندما علم أن إبراهيم بن محمد هو صاحب الدعوة في خرسان باسم (الرضا من آل محمد) أراد بالحيلة أن يدفعه عن رئاستها فطلب منه - وكانوا جميعاً في حج عام ١٢٩هـ/٧٤٧م - أن يجتمع مشايخ أهل البيت ليختاروا من بينهم من يولونه الإمامة بعد القضاء على الدولة الأموية . وعندما اجتمعوا رشح عبد الله بن الحسن ابنه محمداً ، وكان يلقب (بالمهدي) و(النفس الذكية) ، فأبى إبراهيم بن محمد مبايعته قائلاً: (سبحان الله يا أبا محمد تدع مشايخنا وذوي الأسنان منا ، وتدعونا إلى فتى كبعضنا) ، وانصرف مغاضباً إلى منزله بالحميمة . فأيقن عبد الله بن الحسن أن إبراهيم يدعـــو لنفسه ، وأنه صاحب الأمر في خراسان فازداد سخطاً عليه ، وأخذ يتربص للإيقاع به وعندما أتته الفرصة وشي به إلى مروان بن محمد فقبض عليه[٣].

ومهما يكن من اختلاف الروايات ، فإنه عندما تم القبض على إبراهيم وأودع السجن نعى نفسه ، لأهل بيته ، وأوصى إلى أخيه أبى العباس بالإمامة من بعده وأمرهم بالرحيل من الحميمة إلى الكوفة حيث يوجد بها أنصارهم[٤].

---

١) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٢١-٣٥٣ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٥٨-٢٥٩ .

٣) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٨٧-٣٨٩ .

٤) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج٢ ، ص١٢٩ ؛ المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ، ص٢٦٧ .

وبذلك انتهت حياة رجل اجتهد في توطيد دعائم الدعوة حتى اكتملت ، وظهرت على يد أبي مسلم الخراساني في خراسان ، واندفعت نحو العراق تحت قيادة قحطبة بن شبيب الطائي .

وبعد الانتصارات التي حققها قحطبة في الأراضي الخراسانية وبعد استيلائه على جابلق توجه نحو العراق واستولى في طريقه على كل من شهرزور ، وحلوان ، وخانقين وأصبح بذلك الطريق مفتوحاً إلى العراق . وبلغ الفرات فعسكر على ضفته الشرقية ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة قد عسكر علي فم الفرات ما يلي الفالوجة ، وقد وصلته إمدادات الخلافة الأموية ، وتقدر بخمسة عشر ألف جندي . فأخذ قحطبة يستعد لعبور النهر بعد أن انضم إليه ابنه الحسن . وبعد أن جهز جنده عبر النهر ، والتقى بجيش يزيد بن هبيرة قرب الفالوجة في ٨ محرم سنة ١٣٢هـ/٢٨ أغسطس ٧٤٩م . واقتتلوا قتالاً شديداً وانتصرت الجيوش الخراسانية على الرغم من مصرع قائدها قحطبة الذي مات غرقاً وهو يعبر الفرات ، إذ انهار تحت قوائم فرسه جرف فسقط به في النهر وغرق ، ولم يعلم به أصحابه(١). وانهزم جيش يزيد بن هبيرة هزيمة نكراء ، وقد قتل منهم خلق كثير . ولما علم الجند الخراسانيون بغرق قائدهم ولوا عليهم ابنه الحسن بن قحطبة . واضطر ابن هبيرة إلى الانسحاب إلى واسط والتحصن بها(٢).

وتعدُّ معركة الفالوجة من المعارك الحاسمة في تاريخ الدولتين الأموية والعباسية فهي آخر المعارك الطاحنة التي وقعت بين جيوش الدولة الأموية والجيوش الخراسانية .

---

١) ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، تحقيق: ثروت عكاشة ، ط٦ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٢م) ، ص٣٧٠-٣٧١ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص١٣٨ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٤٤ ؛ أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٦٩ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٧١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤١٦ .

٢) ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، ص٣٧١ ؛ ابن أعثم الكوفي ، الفتوح ، ج٨ ، ص٣٢٧-٣٢٨ .

دور أبي سلمة الخلال :

في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة العباسية لعب أبو سلمة الخلال الذي خلف بكير بن هامان في رئاسة الدعوة بالكوفة – دوراً سياسياً مهماً وبارزاً فما أن انتصرت الجيوش الخراسانية على يزيد بن هبيرة حتى أرسل أبو سلمة إلى محمد بن خالد القسري يطلب منه أن يعلن الدعوة بالكوفة مظهراً السواد شعار العباسيين . فمضى محمد بن خالد إلى القصر فدخلة ، ودعا الناس إلى البيعة للرضا من آل محمد ، بعد أن هرب صاحب الشرطة الأموي إلى واسط ملتحقاً بابن هبيرة . بعد ذلك طلب أبو سلمة من الحسن بن قحطبة أن يدخل الكوفة مع جنده فدخلها يوم الجمعة ١٠ محرم ١٣٢هـ/٣٠ أغسطس ٧٤٩م ، وأقبل الحسن إلى أبي سلمة وسلم إليه الرئاسة وخاطبة باسم ((وزير آل محمد)) ، وأضحى بذلك صاحب السلطة الفعلية والممثل الشرعي لآل محمد ، ثم خطب أبو سلمة وهنأ القواد والجنود بالنصر ، وأعلن الإمامة الهاشمية دون أن يسمي الخليفة(١).

رحل أبو سلمة بعد ذلك إلى حمام أعين على بعد ثلاثة فراسخ من الكوفة وعسكر بها . ومن هناك أخذ ينفذ سلطاته ومسؤولياته ، فبدأ بتأسيس الدواوين وتعيين العمال عليها ، ووجه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال يزيد بن هبيرة . ووجه القواد إلى النواحي ليقاتلوا فلول الجيوش الأموية بها(٢). وأخذ يراسل أبا مسلم الخراساني في مستجدات الأمور ، ويدير شئون الثورة باسم الدعوة للإمام القائم من بنى العباس دون أن يسمي الخليفة(٣).

١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٠٠ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٨٣-١٨٤ ؛ مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٦٧-٣٧٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤١٧-٤١٨ .

٢) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٧٤-٣٧٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤١٨-٤١٩ ؛ ابن أعثم الكوفي ، الفتوح ، ج٨ ، ص٣٢٨ .

٣) الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون (القاهرة: مطبعة مصطفى الباني الحلبي ، د.ت) ص٨٣ ؛ أخبار الدولة العباسية ، ص٣٧٦-٣٧٧ .

وفي صفر سنة ١٣٢هـ/سبتمبر ٧٤٩م وصل أبو العباس وآل بيته إلى الكوفة بناء على وصية أخيه إبراهيم , إلا أن أبا سلمة لم يستقبلهم وأبقاهم خارج المدينة منكراً قدومهم بقوله ((خاطروا بأنفسهم وعجلوا)) ، وكتم أمرهم عن جميع القواد ورفض أن يدفع لهم نفقات الانتقال(١).

ويتفق أغلب مؤرخينا الثقاة على انحراف أبى سلمة في هذه الفترة عن العباسيين ، ورغبته في استغلال الدعوة لصالح العلويين . ويسوقون في ذلك رواية مفادها أنه عندما سمع الخلال بمقتل إبراهيم الإمام راسل ثلاث شخصيات علوية بالحجاز طالباً من أحدهم قبول منصب الخلافة . وأمر رسوله بأن يذهب أولاً إلى جعفر الصادق فإذا قبل مزق الرسالتين الأخيرتين ، وإن لم يقبل ذهب إلى عبد الله بن الحسن المحض ، فإذا رفض ذهب إلى عمر بن على بن الحسين بن علي بن أبى طالب . إلا أن هذه الجهود باءت بالفشل .

وكان أبو سلمة في هذه الأثناء يتغيب عن أبى العباس وأهل بيته ، وكان كلما أرسل إليه أبو العباس ليسأله عن موعد ظهورهم يطلب منه التريث ويخبره بأن الوقت لم يحن بعد ، وبقوا على هذه الحال أربعين يوماً . وكذلك كان يفعل مع الخراسانين عندما يسألونه عن الإمام . إلى أن اكتشف الخراسانيون عن طريق أبى الجهم بن عطية الباهلي وعدد من القادة الآخرين مكان اختفاء أبي العباس وبايعوه ، وأعلنوا اسمه خليفة للدولة الجديدة(٢).

ويبدو أن أبا سلمة بعد فشله في جهوده التي بذلها لنقل الخلافة إلى العلويين وجد نفسه في مأزق حرج ، إذ أن قادة الثورة العباسية لم يكونوا مستعدين أن يتنازلوا عن سلطاتهم التي أحرزوها ، وكانوا على يقين من أنه لتأمين استمرار نجاح ثورتهم لابد من التمسك بالعباسيين أصحاب الدعوة

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٢٣-٤٣٠ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص٨٥ .

٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٨٤ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٤٩ ، ٣٥٢ ؛ مجهول ، تاريخ الدولة العباسية ، ص٤٠٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٢٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٦٨ .

ومبايعة أبى العباس إماماً لدولتهم الناشئة . كما أنه لم يجد من العلويين من ينصره ويأخذ بيده[١]. وبذلك وقع ضحية سوء تقديره وعدم بعد نظره .

ويبدو أن أبا سلمة بصفته الرئيس الفعلي للحكومة المؤقتة بالكوفة كانت تقع على عاتقه مسؤولية اختيار إمام جديد بعد موت إبراهيم الإمام ترضى عنه جميع الأطراف الهاشمية والخراسانية ، لهذا ظل لمدة شهرين يبحث عن شخص قادرٍ على استقطاب جميع هذه الأطراف ؛ لأن أبا العباس في نظره لم يكن الشخص المناسب لتولي هذا المنصب .

ولم يكن أمام أبى سلمة الذي تمت مبايعة أبى العباس دون علمه إلا أن يقبل بالأمر الواقع ويبايع الخليفة مبرراً موقفه بأنه كان يسعى لاستتباب الأمور[٢]. وتقبل أبو العباس عذره قائلاً: ((عذرك يا أبا سلمة غير مفند وحقك لدينا معظم ، وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة))[٣].

إلا أن مبايعة أبى العباس خليفة من قبل أنصاره لم يكن يعنى سقوط الخلافة الأموية ، لأن آخر خلفائها مروان بن محمد كان لا يزال على رأس الدولة ، ويعمل جاهداً على تجميع قواه في شمال العراق لمحاربة أنصار الدعوة العباسية .

وهكذا نرى أن الانتصارات المتلاحقة التي حققتها الدعوة العباسية كانت حصيلة جهاد سري استمر قرابة ثلاثين عاماً ، وآتى أكله في حينه ، وجني ثماره أبو العباس الذي أصبح أول خليفة عباسي .

---

١) محمد أحمد برانق ، الوزراء العباسيون (القاهرة: المطبعة النموذجية ، د.ت) ، ج١ ، ص٨٢ .

٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٨٥ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٥٠ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص٨٧ .

الفصل الثالث

فترة التأسيس وتثبيت الحكم العباسي

١- خلافة أبي العباس السفاح ، ١٣٢-١٣٦هـ / ٧٥٠-٧٥٤م .

٢- خلافة أبي جعفر المنصور ، ١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م .

أولاً: خلافة أبي العباس السفاح:

دخل أبو العباس قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ، وهو يرتدي دراعة سوداء وكساء أسود . ثم دخل المسجد من قصر الإمارة وصلى بالناس وخطب خطبته المشهورة التي افتخر فيها بقرابته من رسول الله ﷺ ، ثم أثنى على الخلفاء الراشدين ، ونعى على بني أمية ظلمهم وجورهم وخص أهل الكوفة بخطبته قائلاً: ((يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا على ذلك ، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس وقد زدتكم في أُعطياتكم مائة درهم ، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير))[1]. وبهذه الجملة الأخير تذكر المصادر بأن أبا العباس لُقب بهذا اللقب ((السفاح)) ثم بويع له البيعة العامة .

كانت البيعة لأبي العباس بداية العمل الجاد لا نهايته ، فقد ألقت على عاتقه أعباءً جساماً . وقد كان من أهم هذه الأعباء وأشقها هي محاربة الخليفة مروان بن محمد والقضاء على الدولة الأموية ، لأن مبايعته لم تكن تعني أنه أصبح خليفة للمسلمين قاطبة دون منازع . فقد كان في هذه الفترة يحكم العالم الإسلامي خليفتان أحدهما عباسي ، والآخر أموي . فوجود العباسيين في وسط العراق جعلهم بين فكي كماشة أموية ؛ وهي جيوش الخليفة مروان بن محمد في شمال العراق والجزيرة والشام ، وبين جيوش يزيد بن هبيرة المعتصم في واسط ، وهي بدون شك مهمة شاقة وعسيرة .

فقد كان من حسن حظ أبي العباس أنه كان مدعوماً بأخوته وأعمامه وجميع آل بيته ، فأول شيء عمله أن عين عمه عبد الله بن علي لقيادة الجيش الخراساني وأمره بالتقدم نحو مروان بن محمد الذي قرر أن يخوض معركته

---

١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٨٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٢٦ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٦٦ .

الأخيرة بنفسه ، فسار بقوة كبيرة من حران حتى أتى دجلة ، وخندق في موقع حصين بالقرب منه ، فتقدم عبد الله بن علي وعسكر في مواجهة خصمه وكانت قوات مروان بن محمد تفوق قوات عبد الله بن علي في العدد ، ولكنها لم تكن بنفس الانسجام والقوة المعنوية التي تميز بها الجند العباسي[1]. فقد كانت الجيوش الأموية مبعثرة متنافرة مزقتها العصبية القبلية بين يمنية ، وقيسية ، متعصبة بائسة من كثرة الحروب التي خاضتها مع قائدها مروان بن محمد ضد المناوئين له على السلطة . فدارت معركة رهيبة بين الطرفين استمرت ما بين تسعة إلى عشرة أيام هزم فيها مروان هزيمة ساحقة ، بسبب الخلل والفساد الذين ظهرا في جيشه ، فكان إذا طلب من قبيلة القتال والنزول إلى المعركة تقاعست ورشحت غيرها ، إضافة إلى الخطأ الكبير الذي ارتكبه هو نفسه بعبوره نهر الزاب إلى ضفته الأخرى ممّا أدى إلى غرق قسم كبير من جنده في النهر ، وفقد موقعه الحصين . وذلك في يوم السبت ١١ جماد الثانية ١٣٢هـ/٢٦ يناير ٧٥٠م . فارتحل إلى الموصل التي منعه أهلها الدخول وأغلقوا أبوابها في وجهه فانسحب منها إلى حران فأقام بها بعض الوقت لعله يجد في أهل الشام من يحارب معه إلا أنهم خذلوه كما خذله أهل الجزيرة من قبل ، ثم مضى حتى قنسرين وعبد الله يتبعه فانصرف إلى حمص ثم خرج منها إلى دمشق ، ولكنه لم يستطيع البقاء بها ؛ لاقتراب الجيوش العباسية منها فرحل عنهـا ، فدخلها عبد الله بن علي عنوة في ١٠ رمضان من العام نفسه بعد أن حاصرها أياماً وقتل كثيراً من أهلها وجندها وأمرائها[2].

---

١) ذُكر أن قوات مروان بن محمد بلغت ما بين ١٠٠ إلى ١٥٠ ألف مقاتل , وهذا رقم مبالغ فيه بدون شك . انظر: خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٠٣ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٤٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٣٧ .

٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٠٣ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٤٤ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٤٥-٣٤٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٣٧-٤٤٠ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، تحقيق: علي حبيبة (القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ، ص١٣٦-١٣٧ .

كان لسقوط دمشق عاصمة الأمويين ومركزهم الحصين أثرٌ بالغ في نفس مروان بن محمد فقرر الرحيل إلى مصر ، وربما كان يهدف بذلك إلى التوغل في أفريقيا فإن لم يجد العون ارتحل إلى الأندلس البعيد عن أيدي العباسيين كما فعل عبد الرحمن الداخل بعد ذلك . ولربما كانت هذه خطة اتفق عليها الأمويون عند أفول دولتهم . إلا أن القدر لم يمهله فعندما وصل إلى الفسطاط كان صالح بن علي العباسي الذي أُرسل من قبل أخيه عبد الله لملاحقته قد وصل إليها فخرج منها إلى قرية بوصير ، واختبأ في إحدى كنائسها وقبض عليه وقتل في ذي الحجة ١٣٢هـ/ أغسطس ٧٥٠م(١). وبذلك أسدل الستار على حكم الدولة الأموية وتوطدت دعائم الدولة العباسية .

بعد القضاء على مروان بن محمد بقي على أبي العباس التخلص من آخر الجيوش الأموية المتحصنة في واسط تحت قيادة يزيد بن هبيرة . وكان جيش يزيد خليطاً من الجند السوري ، ومن أهل خراسان الموالين للأمويين ومن أهل العراق اليمانيين والقيسيين(٢). وقبل مبايعة أبي العباس بالخلافة كان أبو سلمة قد أرسل إليه الحسن بن قحطبة لقتاله ولما طال أمد الحصار أرسل إليه الخليفة أخاه أبا جعفر فحاصره بها أشهراً ، ولم يتمكن منه إلا بعد أن أغرى الجند اليمانية بقوله: (السلطان سلطانكم والدولة دولتكم) ، وكان الجند اليمانيين يؤلفون قوة كبيرة في جيش يزيد . وعندما علم يزيد بن هبيرة بتسلل قسم كبير من جيشه والانضمام إلى العباسيين ، وبمقتل الخليفة مروان بن محمد سقط في يده وشعر بضعفه فطلب الأمان . فكتب له أبو جعفر أماناً واشترط الالتزام به فإن نكث أو غدر فلا أمان له . فمكث ابن هبيرة أربعين يوماً يشاور فيها العلماء والفقهاء لتفادي أي ثغرة قد تدينه في المستقبل ، ثم

---

١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٠٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٤١-٤٤٢ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص١٣٧ .

٢) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص١٢٥ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٩٢ .

ثم وافق على شروط أبي جعفر ، مشترطاً الحصول على كتاب الأمان من الخليفة وتم له ذلك ، وأصبح حراً طليقاً . وأقام بواسط هو وأهل بيته وكثير من جماعته ، وكان يدخل على المنصور كيفما شاء ، إلا أن ابن هبيرة لم يلتزم ببنود الاتفاق فنكث وغدر ؛ وقام بالدعوة للعلويين في الخفاء متآمراً بذلك معهم على الخلافة العباسية في مهدها[١].

أدرك أبو العباس خطورة ابن هبيرة فأرسل إلى أبي مسلم في خراسان يستشيره . فأشار عليه أبو مسلم بقتله وأرسل له يقول: ((إن الطريق إذا انتثرت حجارته فسد وصعب سلوكه ... والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة)) . فكتب أبو العباس إلى أخيه أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة فامتنع أبو جعفر في بادئ الأمر للأمان الذي أُعطي له ، ولأنه كان يريد أن يكسب ابن هبيرة في صف الدعوة العباسية . إلا أنه تحت إلحاح الخليفة أمر أبو جعفر الحسن بن قحطبة أن يقتله فرفض فقتله خازم بن خزيمه . وقتل معه ابنه داود وحاجبه ومواليه وبعضاً من قواده[٢]. وبقتل ابن هبيرة زال آخر أمل لأنصار الدولة الأموية واستسلمت البصرة وباقي الأطراف للقوات العباسية .

وهكذا استطاعت القوات الخراسانية بما توفر لها من جند مخلصين ، وقيادة حكيمة من الإطاحة بحكم أسرة والإتيان بأسرة أخرى إلى سدة الحكم مع بعض التغيرات في نظام الحكم .

---

١) البلاذري ، أساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٩٢ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص٣٥٣ .

٢) خليفة ابن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٠٢ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص١٩٢-١٩٣ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٥٤ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص١٤٠ .

التنظيمات الإدارية والأوضاع الداخلية في حكومة أبي العباس:

لم يكن القضاء على الدولة الأموية وقيام الحكم العباسي نهاية متاعب رجال الانقلاب العسكري ، فمن أجل تثبيت أركان دولتهم الناشئة كان على الخليفة الجديد وأهل بيته والقادة العسكريين التحرك سريعاً ، والأخذ بزمام الأمور قبل أن تفلت من أيديهم . فقد عين أبو العباس من أجل ذلك جميع أهله وأقاربه عمالاً له على الولايات . فقد ولى عمه داود بن علي على الكوفة وسوادها ، ثم عزله عنها وولاها ابن أخيه عيسى بن موسى ، وولى عمه سليمان بن علي على البصرة وأعمالها ، وكور دجلة ، والبحرين ، والعروض وعُمان ، وولى عمه إسماعيل بن علي على الموصل ، وولى أخاه أبا جعفر الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، وولى عمه داود بن علي على المدينة ومكة والطائف واليمن بعد أن عزله عن الكوفة ، وولى عمه عبد الله بن علي على قسرين وحمص وكور دمشق ، والأردن ، وعمه صالح بن عليّ على فلسطين ، وعمه عيسى بن عليّ على فارس وأبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي على مصر ، ما عدا خراسان فإنها بقيت تحت سلطة أبي مسلم الخراساني(١).

واستعان أبو العباس كذلك بأخواله فبعد وفاة عمه داود بن علي ولى على المدينة زياد بن عبد الله الحارثي ، وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي ثم علي بن الربيع الحارثي(٢). وبذلك ظل أبو العباس حتى وفاته يتمتع بالدعم الكامل من قبل جميع أفراد عائلته .

وأقام أبو العباس عدة أشهر بمعسكر حمام أعين ثم ارتحل ، فنزل بهاشمية الكوفة ، وأطلق يد عميه عبد الله بن عليّ وصالح بن عليّ اللذين

---

١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤١٢-٤١٤ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٥١ ، ٣٥٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ٤٥٨-٤٦٠ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٦ .

٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤١٣ .

ولاهما على أجناد الشام ليتعقبوا فلول الأمويين . وقد كان عبد الله بـــن علـــيّ شديد الكراهية لآل أمية ، حتى قال عنه ابن عبد ربه ((كان أشد الناس على بني أمية عبد الله بن عليّ))[١].

أما أبشع ما صدر عنه فهو غدره بجماعة من الأمويين على نهر أبي فطرس قرب الرملة من أرض فلسطين ، فقد نادى بالأمان في بني أمية فاستأمن له بضعاً وسبعين وقيل بضعاً وثمانين وبعد أن قدموا عليه أمر بقتلهم عن آخرهم ، فاستتر بعد هذه الحادثة من استتر ، وهرب من استطاع الهرب وهم قلائل . بعضهم قصد الحبشة وبقى فيها حتى خلافة المهدي[٢] ، وبعضهم قصد المغرب مثل عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل الذي وصل إلى الأندلس واقتطعها من جسم الدولة ، وأسس بها الدولة الأموية في الأندلس. ويُرجع كثير من المؤرخين ما فعله العباسيون بالأمويين إلى الثأر والانتقام منهم بما يشفي غليلهم ويثلج صدورهم. والحقيقة أن الدافع في عمليات القتل الجماعي للأمويين كان الهدف منه سياسياً ؛ إذ أراد العباسيون استئصال شأفة الأمويين ، تخلصاً من أي منافسة لهم ، ولم يكن لمجرد الثأر والانتقـــام لقتلاهم ، وهو عادة ما يلازم الثورات والانقلابات العسكرية ، لأنه لو رجعنـــا إلى التاريخ لوجدنا أن الأمويين لم يقتلوا من البيت العباسي سوى إبراهيم الإمام .

---

١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق: محمود عبد القادر شاهين ، ط٢ (بيروت: المكتبة العصرية ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ، ج٥ ، ص٢٠٧ .

٢) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص١٢٢ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ٣٥٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٣٣ .

ردة فعل الأمويين:

لم يستسلم الأمويون وأنصارهم لعمليات القتل والتشريد التي تعرضوا لها على أيدي العباسيين ، وإنما قاموا بعدة انتفاضات كانت معظمها في أجناد الشام وفلسطين ، والجزيرة ، حيث مركز نفوذ الأمويين وتجمعهم . وقد تسمى أصحاب هذه الثورات باسم ((المبيضة)) ؛ لأنهم كانوا يرفعون الأعلام البيضاء كدليل على عصيان العباسيين المعروفين بالمسودة . فقد أدرك أنصار الأمويين من يمانية وقيسية أن زوال دولة الأمويين هو زوال لهيبتهم وانتقاص لمكانتهم السياسية والاقتصادية فتألفوا فيما بينهم لمحاربة عدوهم ، واسترداد سياستهم واسترجاع مصالحهم المفقودة . ومن هذه الانتفاضات:

١) انتفاضة حبيب بن مرة المري في البلقاء وحوران والبثنية: وهو من قواد مروان بن محمد ، أعلن الثورة على العباسيين وبايعه القيسية من أهالي المناطق المذكورة ، ولما علم عبد الله بن علي خرج لإخماد انتفاضته والتقى به عدة مرات ، ولكنه لم يستطع أن يخضعه ، فاضطر إلى عقد صلح معه ، وخرج إلى قنسرين لإخماد انتفاضة أهلها[١].

٢) انتفاضة مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين: ويدعى ((أبو الورد)) وكان أيضاً من قواد مروان بن محمد ، وقد خرج على العباسيين ، وبيض حمية لأولاد مسلمة بن عبد الملك الذين استجاروا به ودعا أهل قنسرين إلى ذلك فاستجابوا له فبلغ عددهم أكثر من سبعة آلاف ، أكثرهم من القيسية ، وانضم إليهم أمير أموي يدعى ((أبو محمد

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٥٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٤٣-٤٤٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٣٤ .

يزيد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)) ، وكان قد التف حوله ٤٠ ألفاً ، معظمهم من الكلبية ونصبوه خليفة لاعتقادهم بأنه هو السفياني الذي يعيد دولة بني أمية ، وساروا إلى أبي الورد بقنسرين وولوه قيادة الجند . وعلى الرغم من اجتماع أبي محمد وأبي الورد على حرب عبد الله بن علي ، إلا أن الأخير استطاع بمساعدة أخيه عبد الصمد وحميد بن قحطبة الطائي أن يهزم الثائرين ويخمد انتفاضتهم في مرج الأخرم . وقد أظهر أبو الورد بطولات في أرض المعركة فثبت في نحو ٥٠٠ من أهل بيته وقومه حتى أصيب ، وخرج وحمل إلى أهله فمات ، بينما هرب أبو محمد ومن معه من قبائل كلب إلى تدمر وتوارى بها زمناً ، ثم رحل إلى الحجاز ، واختبأ بقباء على مسافة ميلين من المدينة ، فقبض عليه عامل المدينة زياد الحارثي في عهد المنصور ، وقتله وأسر ولدين من أولاده ، وأرسلهما إلى المنصور فأمنهما وأخلى سبيلهما(١).

وعندما خرج عبد الله بن علي من دمشق لمحاربة أبي الورد خلع أهلها طاعة العباسيين ، وبيضوا وانتفضوا على الحامية العباسية التي تركها عبد الله بن علي . وقد تزعم انتفاضة أهالي دمشق رجل يدعى ((عثمان بن عبد الأعلى الأزدي)) . وقد استطاع أن يهزم قائد الحامية ويستولي على ما في معسكره . إلا أنهم ما لبثوا أن تفرقوا عندما علموا بعودة عبد الله بن علي إلى دمشق بعد هزيمة أبي الورد(٢).

٣) انتفاضة إسحاق بن مسلم العُقيلي بالجزيرة: كان إسحاق بن مسلم العُقيلي والياً لمروان بن محمد على أرمينيا . فلما علم بهزيمة مروان هرب ملتحقاً بأهل الجزيرة الذين خلعوا أبا العباس وبيضوا أيضاً ، فنزل بحران وتزعم قيادة أهلها ، وانضم إليه محمد بن مسلمة بن عبد الملك وحاصروا

---

١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص٢٢٣-٢٢٤ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٥٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٤٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٣٤-٣٣٥.

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٤٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٣٤ .

حامية العباسيين بها لمدة شهرين . وعندما علم أبو العباس بذلك كتب إلى أخيه أبي جعفر الذي كان ما زال محاصراً يزيد بن هبيرة بواسط أن يتوجه بمن معه من الجند لمحاربة أهل الجزيرة . وفي طريقه مرّ بقرقيساء على الفرات فأغلق أهلها الذين كانوا قد خلعوا وبيضوا أبوب المدينة في وجهه ، فرحل إلى مدينة الرقة التي خلع أهلها وبيضوا، فسار عنها حتى وصل إلى حران .

عندما علم إسحاق بن مسلم بوصول الجيش العباسي إلى حران انتقل إلى سمياط وتحصن بها واجتمع إليه ستون ألف مقاتل من أهل الجزيرة . ولما لم يستطع أبو جعفر أن يحرز أي نصر يذكر على أهل الجزيرة ، كتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن علي بأن يلحق بأبي جعفر ، فحاصرا إسحاق سبعة أشهر فلم يتغلبا عليه فاضطرا أخيراً إلى مفاوضته بإعطائه الأمان ، إلا أن إسحاق رفض ذلك بقوله: في عنقي بيعة لمروان فأنا لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات ، فأرسل إليه أبو جعفر أن مروان قد قتل ، فقبل الصلح فقربه أبو جعفر إليه وكان عظيم المنزلة لديه لوفائه[1].

وهكذا نرى أن جميع انتفاضات الأمويين وردة فعل أنصارهم في بلاد الشام والجزيرة أخمدت بسرعة ، ولم يكتب لها النجاح بسبب تمزقهم وعدم وجود تنظيم يجمعهم ، فسهل بذلك على العباسيين القضاء عليهم ، إلا أنها زادت في كره أهل الشام لهم وانتظار أي فرصة سانحة لإظهار ذلك البغض .

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٥٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٤٦-٤٤٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٣٥ .

مؤامرات العباسيين للتخلص من رجالهم:

١- قتل أبي سلمة الخلال:

لم يكن خوف العباسيين في بداية قيام دولتهم من قادتهم الخراسانين ذوي الميول الشيعية بأقل من خوفهم من الأمويين . فعملوا على التخلص من بعض القادة الذين ساندوهم في الوصول إلى الحكم بعدما ظهرت منهم بوادر انفصالية مثل أبي سلمة الخلال . ولم تكن الظروف تسمح بمقارعتهم بالقوة العسكرية فلجئوا إلى أسلوب المؤامرة والاغتيال الفردي على يد عناصر خراسانية مثلهم حتى يبعدوا عنهم صفة الغدر والخسة بقتل رجالهم .

وعلى الرغم من المكاسب السريعة التي حققها أبو العباس المدعومة من آل بيته ، فإنه ظل يشك في إخلاص وزيره أبي سلمة الخلال وعدّه منافساً خطيراً له ولحكمه الذي أراد له أن يملك ولا يحكم . لذلك كثيراً ما وقع التصادم بينهما لعدم تحديد صلاحيات كل منهما . وقد ذكر الثقاة من مؤرخينا بأن أبا سلمة كان يرغب في السيطرة على الجهاز الإداري ((وأنه كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة (أي دون مشاورة الخليفة) وأنه كان يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين))[1].

كما أن أبا العباس لم ينس له تلك البادرة في تحويل الخلافة إلى العلويين ، فعندما ثبت أقدامه في الحكم أحس بأن الفرصة مواتية للتخلص من وزيره فكتب إلى أبي مسلم الخراساني يستشيره في قتل أبي سلمة . فوافقه أبو مسلم على ذلك وأرسل رجاله من خراسان لينفذوا عملية القتل في رجب سنة ١٣٢هـ / فبراير ٧٥٠م وأعلن رسمياً أن الخوارج اغتالته[2]. وقد كان

---

١) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص١٢٠ ؛ أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٧٠ .

٢) الجهشياري ، الوزراء ، ص٩٠ ؛ ابن طبا طبا ، الفخري ، ص١٥٥ .

للمنافسة بين الرجلين أبي مسلم الخراساني وأبي سلمـــة الخلال دور كبير في التعجيل بالتخلص من الخلال[1]. ثم وجه أبو مسلم بعد ذلك ، محمد بن الأشعث الخزاعي إلى فارس وأمره أن يقتل عمال أبي سلمة ويقصي جميع أنصاره من المناصب التي عينهم عليها وعين بدلاً منهم شخصيات عباسية من قبل أبي العباس في تلك المناصب[2]. وهكـــذا قتل أول من وقع عليه لقب الوزارة في الدولة العباسية ، ولم تشفع له سابقته في الدعوة وإسهاماته الجليلة في خدمة الدعوة العباسية[3] وجهوده في قلب حكم الدولة الأموية .

٢- التخلص من سليمان بن كثير الخزاعي:

كان سليمان بن كثير الخزاعي أحد النقباء الاثني عشر الذين تم اختيارهم لنشر الدعوة العباسية . وكان إبراهيم الإمام قد أوصى أبا مسلم باتباع مشورته حينما بعث به إلى خراسان ، كما أوصاه بقتل من يشك فيه بقوله ((من اتهمته فاقتله)) واستناداً إلى هذه الوصية أهلك أبو مسلم من شك فيه من النقباء والدعاة وعلى رأسهم نقيب النقباء سليمان بن كثير الخزاعي ومن قبله لاهز بن قريظة التميمي الذي اتهمه أبو مسلم بالعصبية القبلية للمضرية وخيانته الدعوة العباسية فقتله .

والتهمة التي بموجبها قتل سليمان بن كثير هي غش الخليفة ومشايعة آل أبي طالب ، وأنه على اتصال بعبيد الله بن الحسين الأعرج العلوي لقلب الحكم إلى العلويين[4]. كما قتل معه ابنه محمد بن سليمان بتهمة الأخذ بالخداشية واعتناق مبادئهم[5].

---

١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٨٤ .

٢) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص١٢٥ .

٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٨٤ ؛ ابن طبا طبا ، الفخري ، ص١٥٤ .

٤) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص١٢٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٣٦ .

٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص٢١٨ ، ٢١٩ .

ويبدو أن التنازع بين هذين الرجلين على النفوذ والسلطة منذ بداية الدعوة العباسية ، قد أدى إلى قتل سليمان وابنه ، وقد كانت العداوة والبغضاء مدفونة في نفسيهما على الرغم مما أظهراه من مناصرة الدعوة العباسية ، وممّا يدلُّ على ذلك هو أن أبا مسلم قتل سليمان دون أخذ رأي الخليفة ومشاورته .

ونتيجة لقتل هؤلاء النقباء ، والدعاة ، ونتيجة لسياسة أبي مسلم الخراساني الدموية وغطرسته شهدت خراسان سلسلة من الانتفاضات على أيدي رجالها وأهل السابقة والبلاء في الدعوة ، الذين أنكروا على أبي مسلم سفكه للدماء بغير حق ، ونددوا بظلمه وجوره ؛ ومن هذه الانتفاضات انتفاضة شريك بن شيخ المهري ، وزياد بن صالح الخزاعي وعيسى بن ماهان ومنصور بن جهور ، إلا أنها جميعاً باءت بالفشل وأخمدت في مهدها من قبل أبي مسلم وقواده[1].

الأوضاع الخارجية وتأمين الحدود في عهد أبي العباس:

الجبهة الشرقية:

في الوقت الذي كانت الحكومة الجديدة تعمل على توطيد دعائم أركانها لمواجهة الثورات المناهضة لها لم تغفل عن مشاكل الحدود والجهاد . فقد استغل الصينيون على أطرافها الشرقية انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين . وانشغال العباسيين بأوضاعهم الداخلية فبدأوا يعملون على استعادة سيطرتهم وبسط نفوذهم على الطريق التجاري البري الذي يمر عبر بلاد ما وراء النهر والشرق الأوسط . ويرى المؤرخون أن قيام الدولة العباسية صحبه ظهور الأطماع الصينية السافرة[2].

---

١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص٢٢١ ، ٢٢٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٤١ ، ٣٤٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٦٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٤٢ .

وكان نفوذ الصينيين قد تقلص على هذا الطريق منذ استيلاء المسلمين عليه في زمن الخلافة الأموية . فعملوا على تأليب الأتراك الشرقيين للإغارة على أطراف إقليم ما وراء النهر من جهة ، ومن جهة أخرى أخذوا يـمدون يد العون إلى الحكـام المحليـين المناوئيـن للحكـم الإسلامـي. ففي عام ١٣٢هـ/٧٥٠م استولى الصينيون على مدينة سوياب وخربوها . وفي العام التالي استغل الصينيون وقوع خلاف بين ملك الشاش وأخشيد فرغانه . واستنجاد الأخير بهم حتى أمدوه بمائة ألف مقاتل . وحاصروا مدينة الشاش وأجبروا ملكها على طلب الصلح والنزول على حكم ملك الصين إلا أنهم ما لبثوا أن تآمروا عليه وقتلوه . وبدءوا يزحفون نحو الغرب(١).

شعـر أبو مسلـم الخراسانـي بالقلـق الشديـد من النجاح الذي حققـه الصينيون ، وبالخطر العسكري والاقتصادي من الزحف الصيني نحـو الغـرب . فأمر قائده زياد بن صالح الخزاعي بمحاربة الجيش الصيني والتصدي لزحفه. فالتقى زياد بالجيش الصيني على نهر طراز وألحق به هزيمة ساحقة ، وذلك في ذي الحجة سنة ١٣٣هـ/يوليو ٧٥٠م(٢). وتعدُّ هذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ النزاع على الحدود بين المسلمين والصينين ، ونهاية التدخل الصيني في هذه المنطقة ، وانتقال الإسلام بين شعوب أواسط آسيا .

بعد معركة طراز عمل أبو مسلم على التوسع في منطقة الخُتَّل شمال هضبة البامير ، ومنطقة كش . فأمر أبو مسلم واليه على بلخ أبا داود خالد بن إبراهيم بالتوجه على رأس قوة عسكرية إلى هذه المناطق . فحالف التوفيق أبا داود خالد ، وتمكن من دخول منطقة الخُتَّل بمساعدة بعض من دهاقينها فهرب حاكمها إلى الصين ، وتوجه بعد ذلك خالد إلى نواحي كش ، ودخلها ، وقتل أخشيدها وبعضاً من دهاقنتها . فامتد بذلك نفوذ المسلمين إلى هضبة البامير ، وإلى أواسط آسيا(٣).

---

١) ٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٤٢ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٦٠ .

الجبهة البيزنطية:

استفادت الدولة البيزنطية من انتقال العاصمة من دمشق بعيداً عن حدودها نحو الشرق ، فقام الإمبراطور قسطنطين الخامس بالإغارة على منطقة الثغور الجزرية سنة ١٣٣هـ/٧٥١م ، وأتى على جهود المسلمين في التحصين وهاجم كلاً من ملطية وكمخ ، واستولى عليها بعد مقاومة من أهلها ودمر خط حصون الفرات، واستولى على الحدث وقلوذية ، وضرب حصن سمياط[١]. كما استولى قواده الأرمن على عدد من الحصون الأخرى ، ونقلوا سكانها إلى بيزنطة ووصلوا إلى أرض روم . وخرج قسطنطين من هذه الحملة منتصراً إلا أنه لم يحقق مكاسب إقليمية للإمبراطورية البيزنطية .

ويبدو أن الهدف من اجتياحه للمنطقة هو تدمير مراكز الإمدادات وقواعد انطلاق الجيوش الإسلامية للحد من اندفاع المسلمين إلى داخل الحدود البيزنطية ؛ لذلك أمر بهدمها وتخريبها . فهدد بذلك نظام الثغور الإسلامية .

وكان رد الخليفة أبي العباس أن أرسل صائفتين الأولى بقيادة عمه صالح بن عليّ إلى وراء الدروب ، والثانية بقيادة محمد بن النضر بن يريم الحميري الذي دخل حصن طوانه[٢] ، كما وجه في نهاية عام ١٣٤هـ/٧٥٣م غارة بحرية إلى صقلية وسردينيا بقيادة عبد الله بن حبيب الفهري[٣].

كما طلب الخليفة من عمه وواليه على الشام عبد الله بن علي أن يقف موقفاً حازماً من البيزنطيين ، وأن يعد العدة للتصدي لهم . واستعادة ما استولوا عليه مثل أرض روم وترميم ما خربوه . فقاد عبد الله حملة كانت غالبية أفرادها من أهالي الشام ، وسار متجهاً نحو منطقة الثغور وبينما هو في

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٩٠ ؛ ابن الأثير ، ج٤ ، ص٣٤١ .
٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤١٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٦٠ .
٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٤٥ .

الطريق ، وعلى مقربة من دلوك علم بوفاة الخليفة فتوقف عن متابعة السير وترك القتال مظهراً مطامعه في الخلافة(1). وبذلك يظهر أن الحرب على الجبة البيزنطية في بداية عهد الدولة الجديدة اتسمت بتأمين الحدود بغرض الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين رغبة في احتلال القسطنطينية(2).

أصيب أبو العباس بالجدري ، وتوفي في ١٣ ذي الحجة عام ١٣٦هـ/نوفمبر ٧٥٤م ، ودفن في عاصمته الأنبار ، بعد حكم استمر أربع سنوات، وتسعة أشهر(3). وكان قبل وفاته قد عهد بالخلافة لأخيه أبي جعفر ، ثم من بعده لابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن العباس مقتفياً في ذلك سياسة الأمويين في تولية العهد لأكثر من واحد .

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٦٢ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٧٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٤٧ .

٢) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت) الكتاب الأول ، ص٣٨١ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٧٠ .

خلافة أبي جعفر المنصور:

توفي أبو العباس بينما كان أبو جعفر في مكة يؤدى فريضة الحج أميراً على حج ذلك العام ، وبصحبته أبو مسلم الخراساني . فأخذ له البيعة في الأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى تنفيذاً لوصية أبي العباس ، وأرسل الرسل لأخذها من الأقاليم(١). فعاد أبو جعفر مسرعاً بعد أدائه فريضة الحج فوصل الكوفة في غرة شهر محرم سنة ١٣٧هـ/٢٧ يونيو ٧٥٤م ، وأخذ البيعة ثم سار إلى الأنبار وضم إليه خزائن أبى العباس .

ولد أبو جعفر في الحميمة نحو سنة ٩٥هـ/٧١٣م وتربى تربية علمية بين كبار رجال بني هاشم وعلمائها(٢). فنشأ ذا علم ودهاء وثبات عند الشدائد وجرأة ، وسطوة ساعدته على مواجهة الشدائد والصعوبات والتغلب عليها . فقد لعب دوراً بارزاً في خلافة أخيه وكان ساعده القوي في تأسيس أمور الخلافة واستتباب الأمن . وعندما تولى الخلافة تمكن من السيطرة على الأخطار الداخلية التي هددت كيان دولته بكل حزم وعزم ، حتى اعتبره معظم المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . وكانت أولى المخاطر الداخلية التي واجهته:

١- عصيان عمه عبد الله بن عليّ:

كان عبد الله بن عليّ أحد أعمام أبي جعفر البارزين ، فهو الذي أبلى بلاء حسناً في القتال ضد مروان بن محمد ، وكان له الدور الأكبر في القضاء على الأمويين . وقام بتوحيد الجيوش العباسية من أهل خراسان والشام والجزيرة تحت قيادته ، وعمل على تجنيد بقايا قوات مروان في الجيوش العباسية . وقد أرسله أبو العباس – قبل وفاته – لمحاربة البيزنطيين الذين

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٧١ .

٢) ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ط٢ (بيروت: مكتبة المعارف ، ١٩٧٤م) ، ص١٢١ .

استغلوا الأوضاع المضطربة للدولة الناشئة فقاموا بمهاجمة الحدود . وبينما كانت القوات في طريقها إلى ((دلوك)) بنواحي حلب وصلت أنباء وفاة أبي العباس ، وانتقال الخلافة إلى أبى جعفر المنصور . فتوقف عبد الله بن عليّ عن الزحف ، ورحل إلى حران غاضباً ، وأعلن العصيان ورشح نفسه للخلافة ، ودعا قواده ورجاله إلى مبايعته فبايعوه ، وفيهم الخراسانيون وأهل الشام .

ويبدو أن لتشجيع الجند الشاميين وهم عصبة الدولة الأموية دوراً في إذكاء عصيان عبد الله بن عليّ ، وانقسام البيت العباسي على نفسه , إذ أن هذا التمرد والعصيان لم يكن ضد الحكم العباسي ، وإنما كان ضد أبى جعفر وحده . فقد كان معروفاً لدى الجند السوري ، أن أبا جعفر إذا وصل إلى السلطة فإنه سوف يعمل على إقامة حكومة مركزية قوية مدعومة بجيش متماسك يتكون أفراده من الجند الشرقيين ، ويكون له السلطة المطلقة على جميع الولايات ، ومن بينها بلاد الشام وبذلك سيفقد إقليم الشام أهميته وستتعرض مصالح جنده وأهله إلى الخطر . لهذا السبب فقد أيد الجند السوري ادعاء عبد الله بن عليّ بأحقيته بالخلافة ، وبايعوه ؛ لأنهم كانوا مدركين بحكم اتصالهم الوثيق به بأنه يميل إلى الاهتمام بمصالحهم وشؤونهم .

أمام هذا الخطر المحدق لم يجد أبو جعفر حلاً أمامه غير الاستعانة بخصمه اللدود أبي مسلم الخراسانى ، فأظهر بذلك براعة سياسية بضرب خصومه بعضهم ببعض ، كما كان المنصور يأمل في استمالة الخراسانيين من جيش عمه عن طريق زعيمهم أبى مسلم . سار أبو مسلم بجنده لمحاربة عبد الله بن عليّ فجمع إليه الجنود ، والسلاح ، وعلوفة الخيل ، وكل ما يمكن اختزانه من طعام ، وزاد ، وحفر خندقاً حول معسكره ((بنصيبين)) , واستمر القتال بين القائدين مدة من الزمن ، ولم يستطع أحدهما التغلب على الآخر(١).

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٧٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٤٨-٣٤٩ .

ويبدو أن عبد الله بن عليّ كان يخشى من انقلاب جنده الخراسانيين عليه ؛ لأنهم كانوا أميل إلى أبي مسلم ، كما أنه لم تكن لهم مصلحة في دعم ثورته فقتل نحو حوالي سبعة عشر ألفاً منهم ، فأخطأ بذلك خطأً كبيراً بحق جنده ، وفقد ثقتهم به فاستسلم الباقون لأبي مسلم قبل أن يلحقهم الموت(١). وفي نفس الوقت تظاهر أبو مسلم بأنه لم يأت لقتال عبد الله بن عليّ ، وإنما جاء والياً على بلاد الشام . فأدى ذلك إلى إثارة مخاوف الجند الشاميين فألحوا على عبد الله بأن يسيروا إلى الشام قبل أن يصلها أبو مسلم . وعندما خرج عبد الله بن عليّ من نصيبين متوجهاً إلى الشام تحول أبو مسلم مسرعاً إلى نصيبين ونزل في معسكر عبد الله بن عليّ الحصين . فأضعف بذلك موقف عبد الله بن عليّ ، وخسر قاعدة حصينة ومركزاً استراتيجياً .

وبذلك تمكن أبو مسلم بدهائه السياسي والعسكري من التغلب على عبد الله بن عليّ ، الذي فر منهزماً إلى البصرة مع أخيه عبد الصمد ، ملتجئاً إلى أخيه سليمان بن علي الذي كان والياً على البصرة ، وظل مختبئا لديه حتى عام ١٣٩هـ/٧٥٦م ، عندما عزل المنصور سليمان عن ولاية البصرة , وقد أدى عزل سليمان عن ولاية البصرة إلى خوف عبد الله وأصحابه واختفائهم ثانية , وعندما علم أبو جعفر باختفائه طلب من عميه سليمان ، وعيسى إرسال عبد الله ومن معه إليه وأعطاه الأمان ، إلا أن المنصور أمر بسجنه وظل مسجوناً حتى عام ١٤٧هـ/٧٥٧م ، ثم تخلص منه بعد ذلك(٢).

وهكذا تغلب المنصور على أولى المخاطر الداخلية التي واجهته بعد اعتلائه عرش الخلافة مباشرة ، وهي تمرد وعصيان أهل الشام بزعامة عمه عبد الله بن عليّ .

---

١) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ص١٣٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٧٥ .

٢) الطبري ، تاريخ ، ج٧ ، ص٤٧٨-٤٧٩ ، ج٨ ، ص٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٥٠ .

٢- نهاية أبي مسلم الخراساني (أمير آل محمد):

بعد انتصار أبي مسلم الخراساني على عبد الله بن عليّ ، اتخذ أبو جعفر المنصور خطوةً جريئة أكدّ فيها سلطتَه على أميرِ آل محمد في اللحظة التي حقق فيها الأخيرُ نصراً عظيماً باسمه ، وأراح بالَه ، وأزال غمته , وذلك بأنْ أرسل ممثلاً خاصاً عنه ؛ لإحصاء الغنائمِ التي تم الاستيلاء عليها من معسكر عبدَ الله بن عليّ ومراقبةِ توزيعِها , فأغضبَ ذلك العملُ أبا مسلم الذي أدرك المغزى منه وقال: ((أمين على الدماء خائن في الأموال)) ، وشتم الرسول ، وكاد أن يقتله ، وتناول الخليفة بلسانه حتى ذكر أمه بقوله: ((ويلي على ابن سلامة))[١].

وكان أبو جعفر شديدَ الحساسية تجاهَ طموحاتِ أبي مسلم من قبل أن يتولى الخلافة فطلب من أخيه أبي العباس التخلص منه بقوله: ((اطعني ، واقتل أبا مسلم ؛ فوالله إن في رأسه لغدرة))[٢]. إلا أن أبا العباس لم يبد ميلاً للتخلص منه للخدمات الجليلة التي قدمها للدعوة ، ولكثرةِ مؤيّديه وأنصارهِ ، وقد ازدادت كراهية أبي جعفر على أبي مسلم عندما خرج معه للحج عام ١٣٦هـ/٧٥٤م وأظهر تفوقه عليه أثناء الطريق . فقد خرج أبو مسلم ومعه ١٠٠٠ ألف جندي ومعه الأموال والخزائن الكثيرة[٣]. وفي طريق الحج كان موكبه يتقدم موكبَ أبي جعفر ويفوقه ، من حيث إنفاقه الأموال الكثيرة في إصلاح الطريق ، وفي الهبات التي كان يوزعها على الأعراب ، وفي الترفيه عنهم . ولما وصل نبأ وفاة أبي العباس وهم في طريق العودة أرسل إلى أبي

---

١) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٧٩ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص٣٦٦ ؛ الطبري، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٧٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص٦٣ .

٢) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٧٦ ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٢١٣-٢١٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ٣٤٦ .

٣) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص٢٣٨ .

جعفر يعزيه في الخليفة ، ولم يهنئه بالخلافة وتباطأ في بيعته ليرهب بذلك أبا جعفر [١].

لهذه الأسباب فكر أبو جعفر بالتخلص من أبي مسلم بعد أن تولى الخلافة مباشرة ولكنه فضل استثماره في إخماد عصيان عمه عبد الله بن علي أولاً ؛ لأن معظم جند عبد الله كانوا من الخراسانيين ، وهم لا يعصون لأبي مسلم أمراً . وكانت الفرصة مواتية للتخلص منه بعد انتصاره على عبد الله بن عليّ . فنهج معه أسلوباً سياسياً قائماً على إبعاده قدرَ المستطاع عن منطقة نفوذه (خراسان) , فبعث إليه يهنئه بالنصر ، وبتوليته على الشام ومصر ، وكتب إليه يقول: ((قد وليتك الشامَ ومصر ، فهي خيرُ لك من خراسان ، فابعث إلى مصرَ من تشاء من رجالك ، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين))[٢].

إلا أنّ أبا مسلم أدرك أهدافَ المنصور ، ولم يخدع بمناورته السياسية وعلق على ذلك بقوله: ((هو يوليني مصرَ ، والشام ، وخراسان لي)) وواصل سيره نحو خراسان ضارباً أوامرَ الخليفة عرضَ الحائط ، فأزعج ذلك الفعل أبا جعفر المنصور إزعاجاً شديداً ، وأصبح همهُ الأول هو منعه من الوصول إلى خراسان ، عندها لجأ إلى سياسة اللين ، والدهاء ، والترغيب ، والتهديد ، وأرسل إليه من يخوّفه من مغبة العصيان ، وفي الوقت نفسه عيّن نائبه أبا داود والياً على خراسان ، وبذلك قطع المنصور عليه خطّ الرجعة وأرغمه على العودة للقائه بمدينة المدائن التي كان قد انتقل إليها من هاشمية الكوفة ، فأحسن استقباله في أول الأمر ، ثم استدعاه إلى قصره بعد ذلك وواجهه بالتهم المنسوبة إليه ، ثم أمر بقتله في مجلسه ، وكان ذلك في الخامس من شعبان سنة ١٣٧هـ/فبراير ٧٥٥م ، ثم أمر بتوزيع الأموال والهدايا على المرافقين

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ص٤٧٩-٤٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٥٠ .

٢) خليفة ابن خياط ، تاريخ ابن خليفة ، ص٤١٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٨٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٥٠-٣٥١ .

له من قادة الجند الخراسانيين استرضاء لهم ، وليأمن شرهم ، ولتهدأ نفوسهم[١].

وهكذا تخلص أبو جعفر من منافسه الخطير الذي أرقه كثيراً ، وأقضَّ مضجعه . حتى عدَّ كثير من المؤرخين أن مقتل أبي مسلم كان نصراً سياسياً لأبي جعفر ، وأن حكمه الحقيقي قد بدأ بعد مقتله .

ردة فعل الخراسانيين على مقتل أبى مسلم:

أثار مقتل أبي مسلم حنق وغضب أهالي خراسان ، وبلاد ما وراء النهر ، وقد تجلى ذلك بقيام ثورات علنية ومباشرة نادت بالانتقام لمقتل أبي مسلم في مناطق عديدة من خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وقد عملت على ظهور حركات دينية ، وسياسية ، وقومية بهدف إحياء دياناتهم القديمة وقوميتهم الفارسية . وقد قامت عدة حركات كرد فعل لمقتل أبي مسلم ، منها:

حركة سنباذ:

وهو من أهل قرية ((آهن)) ، إحدى قرى نيسابور ، وكان من أتباع أبي مسلم المقربين إليه , ثار غضباً لمقتله ، وطالب بالثأر لدمه عام ١٣٧هـ/ ٧٥٥م , فالتف حوله الأتباع ومعظمهم من أهل الجبال وطبرستان فاستولى على نيسابور, ((قومس)) و((الري)) ، واتخذ لنفسه اسم ((فيروز أصبهذ)) , كما استولى على خزائن أبي مسلم في الري ، وأعلن أنه سوف يهاجم مكة ويهدم الكعبة انتقاماً من المسلمين[٢].

---

١) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة ، ج٢ ، ص١٣٦ ، ١٣٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٤٨٣- ٤٩٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ٤٩٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل، ج٤ ، ٣٥٧ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٧١.

وكانت مبادئ هذه الحركة مشتقة من الخرمية والمزدكية القديمة ، واعتقد اتباعها بأزلية أبي مسلم ، وأنه حي لم يمت . وقد تصدى أبو جعفر لهذه الحركة بحزم فجهز لقتاله جيشاً مكوناً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة ((جهور بن مرار العجلي)) ، والتقى بجيش سنباذ بين همذان والري ، وانتهى الأمر بهزيمة سنباذ ، وقتله بنواحي طبرستان ، وانتهت بذلك حركته بعد سبعين يوماً من قيامها[1].

وعلى الرغم من أنه تم القضاء على هذه الحركة في مهدها إلا أنها فتحت أمام العباسيين جبهة جديدة ليس من السهل احتواؤها ؛ إذ ظهرت حركات مناهضة للحكم العباسي اقترنت باسم أبي مسلم الخراساني ، واتخذت من اللون الأبيض رمزاً وشعاراً لها ، وعرفت باسم ((المبيضة)) ، ومن هذه الحركات:

حركة الراوندية:

وهى حركة أخرى ظهرت بعد مقتل أبي مسلم الخراساني بزعامة رجل يدعى ((عبد الله الراوندي)) نسبة إلى قرية ((راوند)) . وكان من دعاة العباسيين في المشرق . وقد اعتقد اتباع هذه الحركة بتناسخ الأرواح ، ويقولون بأن روح آدم حلت في الأنبياء من واحد إلى آخر إلى أن انتقلت إلى أبي مسلم ونادوا بألوهية أبي جعفر . وقد انتقل بعضهم إلى هاشمية الأنبار ، وأتوا قصر أبي جعفر ، وجعلوا يطوفون به ويهتفون . هذا قصر ربنا الذي يطعمنا ويسقينا . وقد تصدى لهم المنصور بشجاعة وخرج من قصره ماشياً ، فتكاثروا عليه حتى كادوا يقتلونه , فأسرع إلى نجدته ((معن بن زائدة)) فقتل منهم ستمائة رجل وعفا عن بعضهم[2].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ٤٩٥ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ٣٠٦ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٧١ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٠ ، ص٧٣ .

٢) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٨٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥٠٥-٥٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٥-٣٦٦ .

حركة أستاذسيس:

خرج أستاذسيس في خراسان عام ١٥٠هـ/٧٦٨م بعد أن أغوى خلق كثير من أهالي هراة ، وبادغيس ، وسجستان فبلغ عدد أتباعه ثلاثمائة ألف مقاتل اتجه بهم إلى مرو واستولى عليها ، وأوقع الهزيمة بجيش المنصور الذي أرسله إليه , فاضطر المنصور إلى إرسال ابنه المهدي الذي كان بنيسابور لمحاربته . فتمكن المهدي بمساعدة خازم بن خزيمة من محاصرته في قلعته التي تحصن بها ، وقبض عليه وعلى أسرته وأرسلهم مقيدين بالحديد حيث تم قتلهم عام ١٥١هـ/٧٦٩م(١).

موقف أبي جعفر من المعارضة العلوية:

ثورة النفس الزكية:

اتجه العباسيون إلى التخلص من جميع الأحزاب المعارضة للحكم العباسي، إما بعزلها ، أو قتلها ، وقد ظهر ذلك جلياً عندما أعلنوا على لسان أبي العباس أن الخلافة عباسية ، وستبقى عباسية ، وأنكروا أن يكون هناك من هو أحق بها منهم . وبذلك عزلوا الفرع العلوي على الرغم من أن الدعوة قامت على شعار الرضا من آل محمد ، وهو شعار يقوم بالدعوة لآل النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً علويين وعباسيين . لذلك شعر العلويون بخيبة الأمل ، واعتبروا أن العباسيين اغتصبوهم حقهم السياسي المشروع في تولي الخلافة ، وأحسوا أنهم ضحية مآرب سياسية منذ مقتل جدهم عليّ بن أبي طالب , وأن أبناء عمومتهم العباسيين لا يختلف شأنهم في إبعادهم عن السلطة والتغرير بهم عن الأمويين . لذلك صمموا على الثأر لحقهم وعدم الخضوع ، إلا أنهم لم يكونوا متحدين في الوقوف في وجه عدوهم . فالفرع الحسيني الذي كان يمثله الإمام جعفر الصادق آثر التريث ، وآل إلى السكينة ولم يشهر

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ٢٩-٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٨-٢٩ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٠ ، ص١٠٦ .

السلاح ضد العباسيين , بينما قاد الفرع الحسني بزعامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن والملقب ((بالنفس الزكية)) ، وأخيه إبراهيم حركة التمرد والعصيان ضد العباسيين . وكانا قد حاولا سابقاً الخروج على أبي العباس ، إلا أن والدهما منعهما ؛ لما للخليفة عليه من أفضال[١]. وقد أقلق أبا جعفر تغيب النفس الزكية وأخيه عن الحضور إليه مع سائر بني هاشم عندما حج مع أبي مسلم سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م في أواخر خلافة أبي العباس . وعندما أصبح أبو جعفر خليفة امتنع محمد وأخوه إبراهيم عن مبايعته أيضاً ، وأقاما في الحجاز مستترين . ولم يخف أبو جعفر قلقه لتغيبهما عندما حج سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م فدعى بني هاشم فرداً فرداً ، وسألهم عن مكان محمد وإبراهيم لكن دون جدوى . فدس جواسيسه ممن يثق بهم لرصد حركاتهم حتى يتمكن من القبض عليهما ، كما عمل على تبديل ولاته على المدينة لعله يحصل على والٍ كفء يجد في ملاحقة محمد والتخلص منه. فقام بعزل واليه زياد بن عبدالله الحارثي وصادر أمواله وسجنه وعين مكانه ((محمداً بن خالد القسري))، إلا أنه ما لبث أن عزله هو الآخر عندما علم بإهماله وتباطئه في تنفيذ مهمته ، وأن دعاة محمد استطاعوا أن يصلوا إلى السند وعدن ومصر والكوفة يدعون له ، وعين مكانه أحد صعاليك أهل الشام ، ويدعى ((رياح بن عثمان بن حيان المري))[٢]. وقد قدم إلى المدينة في رمضان سنة ١٤٤هـ/ديسمبر ٧٦١م وجد في طلب محمد وإبراهيم في كل مكان وبث العيون والجواسيس إلا أنه رغم كل ما بذله فشل في الوصول إليهما.حينئذ أمره أبو جعفر بالقبض على جميع آل الحسن مع كبيرهم عبد الله بن الحسن وإرسالهم إلى العراق مقيدين بالأغلال ومصادرة أموالهم وحبسهم بقصر ابن هبيرة بالكوفة، وضيق عليهم

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥١٧ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، تحقيق: السيد أحمد صقر (بيروت: دار المعرفة ، د.ت) ، ص٢٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٧٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥١٧-٥١٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٧٠ .

فمات معظمهم في السجن ولم ينج منهم سوى عدد قليل[1].

وقد كان هدف المنصور من ذلك هو أن يسرع محمد النفس الزكية بالخروج . كما استخدم أبو جعفر كافة أساليب الحيل للغرض نفسه فأرسل الكتب إلى بني الحسن والنفس الزكية على لسان القواد يؤكدون له طاعتهم ويطالبونه بالإسراع بالخروج . فانخدع محمد وظهر بالمدينة في أول رجب سنة ١٤٥هـ/ أكتوبر ٧٦٢م مع ٢٥٠ رجلاً من خاصته فاستولى عليها ، وقبض على عاملها ((رياح)) وذهب إلى السجن ، وأخرج من فيه وصعد منبر المسجد النبوي وخطب بالناس خطبة اتهم فيها المنصور بالطغيان ، وبين أحقيته في الخلافة فبايعه أغلب أهل المدينة [2].

وبعد أن استولى محمد على المدينة بدأ في تنظيمها الإداري فاستعمل والياً ، وقاضياً ، ورئيساً لبيت المال ، ورئيساً للشرطة . كذلك أنشأ ديواناً للعطاء وسجل في الديوان أسماء أعوانه واتباعه ، وتسمى (بأمير المؤمنين) وقلد جماعة من مؤيديه المناصب[3].

ولما بلغ أبا جعفر ظهور محمد ((النفس الزكية)) ، وكان قد بدأ ببناء عاصمته الجديدة ((بغداد)) قطع البناء وعاد إلى الكوفة . ومن أجل أن يكسب مزيداً من الوقت لجمع قواته أرسل إلى النفس الزكية يعرض عليه الأمان له ولأهله إن هو رجع وتاب ، وتبع ذلك سلسلة من المراسلات بين فيها فضل بيته ونسبه وأحقيته بالخلافة . وعندما رفض محمد جميع عروضه وسخر من الأمان الذي عرضه عليه ، لم يبق أمام الخليفة غير استخدام القوة فأرسل ولي عهده عيسى بن موسى إلى المدينة على رأس جيش كبير بعد أن قطع عن

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥٣٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٠٦-٣١٠ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٦٣-١٦٤ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٧٦ ؛ الطبري ، تاريخ الطبري ، ج٧ ، ص٥٥٨ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص٢٦٢-٢٦٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ج٥ ، ص٣ .

٣) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص٢٨٢-٢٨٣ ، ٢٩٦ .

الحجاز المؤن الآتية من الشام ومصر وضيق على أهلها ، والتقى الفريقان وصمد محمد في نفر قليل بعد أن هرب وتخلى عنه معظم من كان معه وقاتل حتى قتل في الرابع عشر من رمضان ، واستولى عيسى بن موسى على المدينة ، وأرسل رأس محمد النفس الزكية إلى المنصور[١].

خروج إبراهيم بن عبد الله في البصرة:

لم تنته مشاكل أبي جعفر مع العلويين بإخماد حركة محمد النفس الزكية إنما ظهر تحرك آخر في البصرة تزعمه إبراهيم شقيق النفس الزكية في أول رمضان من السنة نفسها . وكان إبراهيم مختفياً قرب البصرة ، إذ قدم إليها لأخذ البيعة لأخيه محمد سراً ، فأجابه خلق كثير قدر بنحو ٣٠٠٠٠ ألفاً ونجح في السيطرة على الأهواز وفارس ، والمدائن ، وواسط وأرض السواد . وعندما بلغه نبأ وفاة أخيه أخذ يدعو لنفسه وتسمى (بأمير المؤمنين) ، واستولى على دار الإمارة وبيت المال بالبصرة ، ثم فرق عماله على المناطق التي سيطر عليها[٢].

وقد ساء موقف أبي جعفر لتفرق قواته في جهات مختلفة ؛ ولأن إبراهيم سيطر على مناطق واسعة وغنية أثرت على قدرات أبي جعفر سلباً حتى أنه فكر بالهرب من الكوفة واللحاق بابنه المهدي في الري كما حاول مراسلة إبراهيم لعقد صلح بينهما[٣]. إلا أن الحظ أسعف أبا جعفر مرة أخرى إذ كتب إلى عيسى بن موسى بأن يسرع بالمجيء إلى البصرة لمحاربة إبراهيم . وما أن وصل عيسى بن موسى إلى البصرة وعند ((باخمري)) دارت

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥٦٣ ، ٥٦٦-٥٧١ ، ٦٠٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٤-٧ ، ١١ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٧٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ٦٣٤-٦٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٧ .

٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٧٨ ؛ سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية (بيروت: دار النفائس ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ، ص٦٠ .

معركة حاسمة بين الطرفين كان العلويون هم المسيطرون على الموقف وبدأ النصر يلوح لهم ، لولا أن أصيب إبراهيم بسهم في عنقه أدى إلى قتله فاضطرب جنده ودارت الدائـــرة عليهم وهزموا في أواخر ذي القعدة سنـــة ١٤٥هـــ/ فبراير ٧٦٣م ، وقد استمرت حركته نحو ثلاثة أشهر(١).

وهكذا انتهى ذلك الصراع الذي أرق أبا المنصور بهزيمة ساحقة للعلويين بسبب دهائه وعبقريته ، وعدم اتحاد كلمة العلويين وتنظيمهم ، واستحق بذلك أن يطلق على نفسه لقب ((المنصور)) .

لم يكن تمرد محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم آخر المشاكل العلوية التي صادفت أبا جعفر ، وإنما امتدت ذيول هذه الحركة إلى بلاد السند ونالت تأييد الجماهير بها ، وكانت بزعامة عبد الله الأشتر ابن محمد النفس الزكية ، إلا أن هذه الحركة أخفقت كما أخفقت جميع حركات العلويين وانتفاضتهم بسبب ما وقع فيه العلويون من أخطاء لعبت دوراً كبيراً في هزيمتهم(٢).

انتفاضة السودان في المدينة المنورة:

بالغ أبو جعفر المنصور في أعقاب هزيمة النفس الزكية في معاقبة أهل المدينة والتضييق عليهم ، والاشتداد في طلب أصحاب النفس الزكية وتوالي الولاة عليها . ففي شوال سنة ١٤٥هـــ/ يناير ٧٦٣م قدم عبد الله بن الربيع والياً عليها وبصحبته فرقة من جند الخراسانيين ، فبـــدأ جـــنده ينـــازعـــون التجـــار ويستولون على بضائعهم دون أن يدفعوا أثمانها ، وعندما يصر صاحب المال على المطالبة بحقه يتعرض للضرب والإهانة من الجند ، فشكى التجار أمرهم إلى ابن الربيـــع ، ولكـــن ابـــن الربيـــع لم ينصفهـــم وشتمهـــم وتحيز للجنـــد . فشجـــع

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٦٤٦-٦٤٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٠٨ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص٣٤٦-٣٤٧ ، ٣٤٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٧-١٩ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٦٧ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٠٧ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص٣١١-٣١٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٠-٣١ .

موقفه ذلك الجند على التمادي في إيذاء الناس ، فأدى ذلك إلى وقوع الاشتباكات المتكررة بين التجار والجند[1].

وقد وقعت أحداث هذه الانتفاضة في صباح يوم الجمعة ٢٣ من ذي الحجة سنة ١٤٥هـ/ مارس ٧٦٣م ، عندما اشترى أحد الجند لحماً من أحد الجزارين ورفض دفع ثمنه ، فأخرج له الجزار شفرة حادة كانت معه وطعنه في خاصرته وأرداه قتيلاً . ويبدو أن الجزار كان من السودان الذين يعملون في السوق فتنادى السودان على التجمع . ((ونفخ السودان في بوق لهم فكان الأسود يستمع إلى البوق حتى يتيقنه فيترك ما في يده ويأتي إلى الصوت)). وعندما تجمع السودان إلى مصدر الصوت هجموا على الجند ، وقتلوا كل من وجدوه في السوق ، أو صادفوه ، وهو في طريقه إلى صلاة الجمعة . وعمت الفوضى أرجاء المدينة وهرب ابن الربيع واختبأ في قرية من قرى المدينة على طريق البصرة تدعى ((بطن نخل)) . وأبدى السودان شجاعة عظيمة في مطاردة الجند وقتلهم حتى خيل إليهم أن هؤلاء السودان ما هم إلا سحرة أو شياطين . وقد رأس السودان جماعة منهم يدعون (وثيقاً) و(يعقل) و(رمقة) و(أبا النار) و(مسعراً)[2]. وانضم إليهم عددٌ كبيرٌ من رعاع أهل المدينة ، فدخلوا دار الأمارة ونهبوا ما فيها من طعام ، وباعوه بأبخس الأثمان ، وكسروا باب السجن وأخرجوا من به ، وكان أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة – أحد علمائها – محبوساً به .

ومن الغريب أن أهل المدينة لم يشاركوا في أحداث هذه الانتفاضة التي استمرت ليوم واحد فقط ، وقد يرجع ذلك إلى سرعة أحداثها ؛ أو لأن المخطط والمدبر لها هم السودان ، ولم يكن لأهل المدينة علم بقيامها أو المشاركة في التخطيط لها . فالانتفاضة كما يظهر من أحداثها لم تكن وليدة اللحظة ، وإنما

---

١) البلاذري ، أنساب ، ج٣ ، ص٣٣٨ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٠ ، ص٩٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٦١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٣ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٠ ، ص٩٠ .

كان مدبراً لها من قبل السودان أحد عناصر المجتمع في المدينة ، وهم الذين ساهموا بدور كبير في اقتصاديات المنطقة سواء في مهنة التجارة أو في العديد من الصناعات المحلية، لذلك عندما رأوا أن مصالحهم في خطر هبوا لإنقاذها.

ولم ينقذ الموقف المتدهور سوى أبي بكر بن أبي سبرة الذي خرج من السجن بأغلاله وحث السودان ، ومن معهم على السمع والطاعة للخليفة وخوفهم من مغبة ما فعلوه بالجند ، وأمرهم برد ما انتهب وبذلك هدأت الأوضاع وعاد ابن الربيع إلى المدينة(١).

موقف أبي جعفر من معارضة الخوارج:

لم تهدأ معارضة الخوارج طوال العهد العباسي الأول فقد كان العباسيون في نظرهم مغتصبين للحكم كما كان الأمويون من قبلهم ، إلا أنها كانت أقل عنفاً منها في العصر الأموي . فظهرت على شكل انتفاضات في أقاليم متعددة في منطقة الجزيرة والموصل بزعامة ((عبد العزيز اليشكري)) زعيم الخوارج الصفرية ، ومنطقة عمان بزعامة ((الجلندي بن مسعود الأزدي)) زعيم الخوارج الأباضية . كما خرج في أوائل خلافة المنصور ((ملبد بن حرملة الشيباني)) في الجزيرة عام ١٣٧هـ/٧٥٤م في ألف مقاتل وانضمت إليه قبيلة ربيعة . ونظراً لأن المنطقة ثغرية على حدود البيزنطيين بذل المنصور ما في وسعه للقضاء عليها ، فأرسل قائده حميد بن قحطبة إلا أنه هزم واضطر أن يصالح ملبداً على مائة ألف درهم لإنهاء القتال . ولكن ما لبث أن أرسل إليه المنصور خازم بن خزيمة عام ١٣٨هـ/٧٥٥م فانتصر عليه وقتله(٢).

---

١) البلاذري ، أنساب ، ج٣ ، ص٣٣٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٦١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤ ؛ كذلك انظر ، صفاء حافظ عبد الفتاح ، السودان وثورتهم في المدينة المنورة (القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٩١م) .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٥٧ ، ٣٥٨-٣٥٩ .

كذلك شهد عهد المنصور تطوراً خطيراً في موقف الخوارج في بلاد المغرب مستفيدين من ضعف سيطرة العباسيين على هذه المنطقة . فقد انتشر في المغرب مذهب الخوارج منذ أيام الأمويين ، ولقيت مبادئه إقبالاً كبيراً لدى البربر ، من أهمها قولهم بعدم حصر الخلافة في بيت معين ، أو قبيلة معينة ، وإباحتها لكل مسلم بالغ يستوفي شروط الخلافة .

فبعد قيام الدولة العباسية أظهر الوالي الأموي عبد الرحمن بن حبيب الفهري دخوله في طاعة العباسيين ، فأرسل في أواخر عام ١٣٦هـ/٧٥٤م كتاباً لأبي العباس مبايعاً له ومقراً بالطاعة والولاء . ولما تولى (أبو جعفر) أقر (عبد الرحمن) على ولايته ، وأرسل له خلعة سوداء ، وهي كما يذكر ابن الأثير أول سواد يدخل إلى أفريقيا منذ قيام الدولة العباسية[١].

ويبدو أن عبد الرحمن هذا لم يكن سياسياً محنكاً فدخل في صراعات مع أفراد أسرته على السلطة وأعلن عصيانه وانفصاله عن الخلافة العباسية ؛ مما أدى إلى اغتياله على يد أخيه ((إلياس بن حبيب)) في أواخر سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م الذي تولى أمر البلاد وأعلن طاعته للعباسيين[٢].

وفي ظل فوضى الصراع على السلطة بين أفراد البيت الفهري برز الخوارج الصفرية على مسرح الحياة السياسية في أفريقيا بزعامة عبد الملك بن الجعد الورفجومي ، فاقتحموا القيروان ، واستولوا عليها في محرم ١٤٠هـ/ مايو ٧٥٧م ، وأساءوا معاملة أهالي القيروان وقتلوا كثيراً منهم ودنسوا المساجد فهرب كثير منهم مستنجدين بأبي الخطاب عبد الأعلى الأباضي الذي استجاب لهم وخرج مقاتلاً (ورفجومة) ومن معها من الخوارج الصفرية ، واستولى على القيروان عام ١٤١هـ/٧٥٨م ، وولى عليها عبد الرحمن بن رستم أحد كبار علماء الأباضية ، ثم رجع إلى طرابلس فأصبحت

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٢٧٩-٢٨٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (بيروت: دار الفكر ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٣٥٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٢٨٠ .

القيروان وأفريقية كلها بما فيها طرابلس بيد الأباضية[1].

وفي عام ١٤٤هـ/٧٦١م تمكنت الجيوش العباسية من هزيمة الأباضية وقتل زعيمهم أبي الخطاب بنواحي مدينة ((سرت)) في إقليم برقة . وكان عبد الرحمن بن رستم قد توجه من القيروان لأعانة أبي الخطاب فلما علم بمقتله توجه إلى أباضية المغرب الأوسط ، واختط هناك مدينة تاهرت عام ١٥٠هـ/٧٦٧م كقاعدة له مؤسساً بذلك الإمارة الرستمية الأباضية في المغرب الأوسط. وقد قدر لخلفائه أن يحكموا أكثر من مائة وثلاثين عاماً، وكانوا أشد الخوارج تعصباً. ولم تلبث أن ازدهرت عاصمتهم ((تاهرت)) وقصدها العلماء والتجار من جميع أنحاء العالم الإسلامي[2].

كما شهد المغرب قيام إمارة خارجية أخرى على أكتاف البربر تدين بالمذهب الصفري في سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م تدعى بدولة بني مدرار أو بني واسول . ومؤسسها رجل سوداني يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الصفري . أما تسميتها ببني مدرار أو بني واسول نسبة إلى ثالث أمرائها ، وهو أبو القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار . وقدر لهذه الدولة أن تعمر مائة وأربعين عاماً . ومن المنجزات الحضارية التي قامت بها هي تشييدها مدينة سجلماسة التي اشتهرت بغناها وموقعها التجاري المهم[3].

لم يشأ المنصور أن يقف مكتوف الأيدي وأن يترك المغرب ينسلخ عن سيطرته ، ونفوذه فأرسل الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى ؛ لإعادتها ضمن حدود دولته ، إلا أنه لم يتمكن من استعادة إلا جزء منها ، وهي ولاية أفريقية عندما دخل محمد بن الأشعث والي مصر العباسي إلى القيروان ، بينما بقي الغرب الأقصى بعيداً عن نفوذه . وبذلك حقق خوارج شمال أفريقيا أهدافهم في حكم أنفسهم عن طريق هذه الدول المنفصلة التي كانت إيذاناً

---

١) ٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٢٨١ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص٢٤٥ .

٣) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص١٧١-١٧٢ .

بانفصال أجزاء أخرى من أطراف الدولة العباسية شرقاً وغرباً فيما بعد .

انسلاخ الأندلس:

انسلخت الأندلس عن جسم الدولة العباسية بعد نجاح الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من دخولها عام ١٤٨هـ/٧٦٥م والاستقلال بحكمها مستغلاً فوضى الصراعات الحزبية والقبلية والحروب الداخلية بين القيسيين والمضريين لصالحه ، فاستطاع أن يجذب إليه قبائل اليمن ، ويستولي على المدن الأندلسية تباعاً حتى دخل قرطبة واستولى على دار الإمارة بها وأجبر واليها يوسف الفهري على الفرار منها(١).

وهكذا استطاع الأمير الطريد أن يحي الخلافة الأموية من جديد في الغرب بعد أن سقطت في الشرق . وقد لقب هذا الأمير الطموح بلقب عبد الرحمن الداخل ، وبلقب صقر قريش من قبل أعدائه ، بينما أطلق هو على نفسه لقب (أمير) فقط ، ولم يتلقب بلقب خليفة أو أمير المؤمنين .

أقضت انتصارات عبد الرحمن الداخل مضجع أبي جعفر فحاول أن يستغل الظروف والأوضاع المضطربة التي كان الأمير الأموي يمر بها ، ونظراً لبعد المسافة بين العراق والأندلس وعدم تمكنه من استرجاع الأندلس عن طريق القوة لجأ إلى الحيلة ، وذلك بتحريض زعماء القبائل العربية هناك، فاتصل سراً ((بالعلاء بن مغيث الجذامي)) ووعده بأمارة الأندلس إن هو استطاع التخلص من عبد الرحمن والانتصار عليه ، وبعث له بلواء الدولة العباسية ، وبسجل تعينه على الأندلس .

استطاع العلاء أن يضم إليه جميع العناصر الساخطة على عبد الرحمن الداخل ، وبعد عام كامل من التحضير وبعد أن اكتملت له مقومات ثورته أعلن العصيان على النظام الأموي عام ١٤٧هـ/٧٦٤م في مدينة باجة . فخرج

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٢-٣٦٣ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص١٥٤-١٥٦

عبد الرحمن لقتاله غير أن العلاء انتصر عليه وحاصره في مدينة قرمونة شرقي اشبيلية مدة شهرين تقريباً . تمكن عبد الرحمن خلالها أن يلم شتات جنده ، وينقض على جيش العلاء وينتصر عليه ، ويقتل قائده وعدداً كبيراً من رجاله[١].

بعد الفشل الذي لحق بالعلاء صرف المنصور النظر كلياً عن استعادة الأندلس ، وترك لخصمه الشجاع أن يحي دولة آبائه من جديد .

تأمين الثغور على الحدود البيزنطية:

كانت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين منذ عهد بني أمية حدوداً طبيعية تتألف من سلسلتي جبال طـــورس ، وطـــورس الداخلية ((أنتي طـــورس Anti Taurus))[٢] أو جبل الكام ، كما أطلق عليه الجغرافيون العرب[٣]. وكان يتخلل جبال طورس دروب ومسالك للاتصال بين الدولتين المتجاورتين. وكان يقوم على حماية هذه الحدود والدروب والمسالك خط دفاعي طويل من القلاع والحصون والحاميات ؛ عرفت بالثغور ، ويمتد من ثغر ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط .

وقد انقسم هذا الخط الدفاعي إلى منطقتين رئيستين: الأولى: منطقة الثغور الجزرية ، وهي التي خصصت للدفاع عن الجزيرة ، أو شمال العراق ومن أهم حصونها ملطية ، والمصيصة ، ومرعش .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص١٥٧ .

٢) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٦٠ ؛ فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج١ ، ص١٦٢ .

٣) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٦٢ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٥٤ ، ١٥٦ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١١ ، ٢٢ .

الثانية: منطقة الثغور الشامية وتقع غربي الثغور الجزرية ، وقد خصصت للدفاع عن بلاد الشام ، ومن أهم حصونها طرسوس وأذنة ، وعين زربة . وامتازت الثغور الجزرية بأنها ثغورٌ برية ، بينما امتازت الثغور الشامية بأنها برية وبحرية في آن واحد(١).

وهذه الحصون والقواعد كانت مدناً إغريقية قديمة جددها العرب وأعادوا بناءها ، وحولوها إلى حاميات وقواعد عسكرية . وخلف هذه القواعد والحصون كانت تمتد أقاليم آسيا الصغرى أو بلاد الروم البيزنطيين .

وعندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة اهتم بأمر منطقة الثغور وتأمين الحدود ، خاصة بعدما استأنف البيزنطيون نشاطاتهم العدوانية مستغلين عصيان عبد الله بن عليّ ، فهاجموا قلعة ملطية سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م ، ودمروا تحصيناتها وهددوا النظام الثغري كله تهديداً خطيراً(٢). ففي السنة التالية أصلح أبو جعفر ما أفسده البيزنطيون ؛ فأمر صالح بن علي بناء ملطية وإعادة تحصينها . وخرج قسم من الجند الخراسانية بزعامة الحسن بن قحطبة لإعادة توازن القوى في هذه الجبهة.

وجعل المنصور لمنطقة الجزيرة والثغور كياناً إدارياً مستقلاً فعين عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام والياً عليها ، كما جند أبناء سوريا والجزيرة وشجعهم على الاستيطان بها وبنى لهم البيوت والإسطبلات ، وحشد في ملطية وحدها عشرة آلاف مقاتل ، وزاد في عطاء المقاتل عشرة دنانير ، وخصص له معونة قدرها مائة دينار ، واقطع الجند المزارع(٣).

---

١) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٦٧ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٥٤-١٥٦ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٩-٨٠ ؛ كي لسترنج ، بلدان الخلافة ، ص١٦٠-١٦٨ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٩١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ٤٩٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٥٩ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٩١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥٠٠ ؛ ابن الأثير الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٠ .

كما نظم طريقة الغزو وأسلوبه للأراضي البيزنطية على شكل غزوات فصلية منظمة ، وهي ما عرفت بالصوائف والشواتي ، وبذلك وضع أساس النظام الثغري ، وحد من أطماع البيزنطيين الذين ما لبثوا أن عقدوا معه معاهدة في سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م ، توقفت بموجبها الغارات على الحدود بين الطرفين حتى استئنفت مرة أخرى في عام ١٤٦هـ/٧٦٣م[١].

الإنجازات الحضارية في عهد المنصور:

أ- بناء بغداد:

مثلما اهتم المنصور ببناء الحصون العسكرية وترميم الثغور اهتم بتشييد عاصمة له تليق بمكانة دولته وتتناسب مع مقوماتها وحضارتها ، فكان بناء مدينة بغداد . وقد تنقلت الدولة الناشئة في ظل حكم أبي العباس ، ومن بعده أبي جعفر مدة ثلاثة عشر عاماً من مدينة إلى أخرى تبحث عن عاصمة ترتاح إليها . وكان أبو جعفر يقيم في هاشمية الكوفة ، وبنى بها قصره ، فلما ثار عليه الراوندية كره الإقامة فيها ، وأدرك عدم صلاحيتها لوجود شيعة آل علي بها ، فجد في البحث عن مكان يكون ملائماً يجمع بين حصانة الموقع وسهولة الاتصال بأطراف الدولة ، فوقع اختياره لموقع بغداد عند التقاء نهر الصراة بنهر دجلة . فعمد إلى تخطيط بنائها آخذاً بعين الاعتبار مختلف العوامل الاستراتيجية والاقتصادية والسكانية[٢].

وقد خطط بناء المدينة على شكل دائري ، وهو اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية ، فجعل لها سورين أحدهما داخلي ، والآخر خارجي ، بينهما فسحة من الأرض عرضها ٣١ متراً عرفت بالفصيل ، وجعل لها أربعة أبواب متقابلة ، وعند كل باب دهليز ، عليه أبراج ضخمة للحراسة والمراقبة . وبلغ

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٥٠٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٠ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٦١٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج١ ، ص١٨٦ .

سمك السور الأول الخارجي في أعلاه خمسة وثلاثين ذراعاً ، بينما عُدَّ السور الثاني هو السور الأساسي للمدينة ، وامتاز عن السور الأول بالسماكة والعلو . وقد أحيط بالسور الخارجي خندق عرضه ستة أميال تجري فيه المياه . وبنى في وسط المدينة قصراً ضخماً ، عرف باسم (قصر الذهب) ، له إيوان كبير وعليه قبة خضراء عالية ، ويلاصق هذا القصر المسجد الجامع وعدد من الدواوين . ويحيط بهذه الأبنية رحبة، وبين الرحبة والأسوار دروب كثيرة مستقيمة بنى بها الحوانيت، ووزع على حرسه قطائع ليبنوا بها بيوتهم .

وبعد أن تأكد من رسمها أمر بأن تخط طرقها بالرماد ، وأن يوضع على تلك الخطوط القطن المبلل بالنفط وتوقد فيه النار ، ثم نظر إليها والنار تشتعل ، فتعرف على رسم مدينته المدورة ، ووضحت له خططها وأقسامها كما خطط لها(١).

ثم بنى في جنوب المدينة ((ربض الكرخ)) ناقلاً إليها الأسواق من داخل المدينة حتى لا يتيح للتجار القادمين من المناطق الأخرى الاختلاط بسكان المدينة ، وفيهم الجواسيس الذين يتنكرون في زي التجار. وتم بناء المدينة في أقل من أربع سنوات بكلفة مخفضة بلغت ٤٨٣٣٠٠٠ درهم(٢).

وقد اختلف المؤرخون حول اشتقاق لفظ بغداد ومعناه ، فقيل إنها مشتقة من صيغة فارسية مركبة هما ((باغ)) وتعني: الله أو البستان و((داد)) وتعني: عطية ، فهي عطية الله . وسماها المنصور مدينة السلام ؛ لأن وادي دجلة كان يقال له ((وادي السلام))(٣).

---

١) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٣٨٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ص٦١٥-٦٢٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤-١٥ ، ٢١ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٧ ، ص٦٥٣-٦٥٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١ .

٣) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٦٣ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٥٦ .

وفي سنة ١٥١هـ/٧٦٨م بنى المنصور مدينة أخرى على الضفة الشرقية لنهر دجلة في مقابل بغداد لابنه المهدي ؛ لتكون مقراً لجيشه الخراساني ؛ لأن بغداد كانت قد ازدحمت بالناس الذين توافدوا عليها من كل النواحي ، وشيد بينها وبين بغداد ثلاثة جسور فوق نهر دجلة للربط بينهما. وعلى الرغم من أنها بنيت لتكون مقراً عسكرياً ، إلا أنها ما لبثت أن توسعت وأنشئت فيها الحدائق والميادين الواسعة والمباني الفخمة حتى قربت بغداد في الاتساع وأصبحت امتداداً لها ، وانتهى بناؤها في عام ١٥٩هـ/٧٧٦م في عهد المهدي(١).

ب- بعض مظاهر الحكم في عهد المنصور:

ابتدع المنصور كثيراً من القواعد والنظم في الإدارة العباسية ويشير إلى ذلك ابن طباطبا بقوله: ((إنه أصل الدولة ، وضبط المملكة ، ورتب القواعد وأقام الناموس واخترع أشياء))(٢). وقد تميزت أغلب إجراءات المنصور بالعبقرية والتخطيط للمدى البعيد . ومن بعض هذه المظاهر التي ابتدعها المنصور:

١- اتخاذ الألقاب:

من المعروف أن أبا جعفر أضفى على نفسه لقب المنصور بعد قضائه على أبي مسلم الخراساني ، إلا أن هذا اللقب الذي يدل بلا شك على الفخر والزهو كان له مدلولات أخرى لدى المنصور ، فهو عندما لم يتمكن من اتخاذ لقب إمام ذا المدلولات الدينية لدى الشيعة أطلق على نفسه لقب ((أمير المؤمنين المنصور)) ، كما أطلق على ابنه وولي عهده لقب ((المهدي)) ، وهي سنة استنها المنصور وتبعها من جاء بعده من الخلفاء العباسيين .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٣-٣٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٦ .

٢) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٦٠ .

٢- ولاية العهد:

اتبع العباسيون في بداية قيام دولتهم سياسة الأمويين في تولية العهد لأكثر من واحد ، كما أن مفهوم وراثة العرش كان قائماً على أساس أسري دون اعتبار لفروق السن ، بدليل أن إبراهيم الإمام كان قد عهد بالإمامة من بعده لأخيه أبي العباس على الرغم من أنه كان أصغر سناً من أبي جعفر ، كما ولى أبو العباس عهده إلى أخيه أبي جعفر ، ومن بعده ابن أخيه عيسى بن موسى . فلما جاء أبو جعفر إلى الحكم أراد أن يحفظ العرش في أولاد أبيه دون باقي الأسرة ، وأن يلغي المفهوم الأسري ، كما أراد في الوقت نفسه أن يحفظها في أولاده دون باقي أولاد أخوته .

وقد استخدم أبو جعفر الكثير من أساليب الضغط والعنف على عيسى بن موسى حتى يتنازل عن حقه في الخلافة ، والبيعة لابنه الأكبر محمد المهدي . فصارت بذلك ولاية العهد للمهدي أولاً ، ثم لعيسى بن موسى من بعده(١).

٣- الوزارة:

يبدو أن أبا جعفر استفاد من تجربة أخيه أبي العباس مع وزيره أبي سلمة الخلال فعمد إلى اتباع سياسة إدارية صارمة في تحديد سلطات وزرائه . وقد كان معظم وزراء المنصور في أعمالهم أقرب إلى الكتاب والمساعدين الإداريين منهم إلى الوزراء . وفي ذلك يقول صاحب الفخري: ((فلم تكن الوزارة في أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق))(٢).

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٧٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٩-٢٥ .

٢) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٧٤ .

ولعل أبرز من ظهر على مسرح الأحداث من وزراء المنصور هــو ((أبو أيوب المورياني)) ، فارسي الأصل من موريان من قرى الأهواز . وكان ذا خبرة طويلة بشئون العراق الإدارية والمالية منذ أن كان كاتباً في الديوان من قبل الإدارة الأموية ، وعندما تولى أبو جعفر الخلافة رأى أن ينتفع بخبرة المورياني بشئون العراق ، فاستدعاه وأسند إليه بعض الأعمال ، وعندما وفق في أداء الأعمال الموكلة إليه قلده وزارته والإشراف على الدواوين . ومما يدل على علو منزلته عند المنصور أنه عين جميع أهله وأقربائه في المناصب الإدارية[١].

استمرت علاقة المورياني بالمنصور وثيقة جداً إلى أن بدأت سموم الوشاية تعمل عملها وبدأ الأخير يشك في إخلاص وزيره له نتيجة لسعاية الربيع بن يونس الحاجب ، و((أبان بن صدقة)) كاتب أبي أيوب اللذين كانا يضمران له الحقد والكراهية .

وعندما تحقق للمنصور سوء تصرفات وزيره وابتزاز أقربائه وأعوانه للأموال أمر بعزله عن الوزارة ، كما عزل جميع أقربائه وسجنهم وصادر أموالهم سنة ١٥٣هـــ/ ٧٧٠م ، وبقى المورياني في السجن حتى مات في السنة التالية[٢].

وبعد عزل أبي أيوب قلد أبا جعفر الفضل بن سليمان الطوسي ديوان الخاتم، وقلد أبان بن صدقة ديوان الرسائل ، وقلد صاعداً مولاه النظر في ضياعه وممتلكاته الخاصة[٣].

ولعل سوء استغلال أبي أيوب لمنصب الوزارة أثر في نفس المنصور ؛ إذ لم يعين أحداً مكانه ، وتفرد بإدارة شئون دولته .

١) الجهشياري ، الوزراء ، ص٩٧ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٢ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٢٤ .

٤- الولاية على الأقاليم:

كان المنصور شديد الاهتمام باختيار ولاته على الأقاليم ، فعين أهل بيته وأقربائه في هذا المنصب . فولى عمه إسماعيل بن عليّ على بلاد فارس ، وسليمان بن عليّ على البصرة ، وعيسى بن عليّ على الكوفة ، وصالح بن عليّ على قنسرين والعواصم ، والعباس بن محمد على الجزيرة ، والفضل بن صالح على دمشق ، والسري بن عبد الله بن تمام بن العباس على مكة ، وجعفر بن سليمان على المدينة ، ماعدا اليمن وأرمينيا فقد ولى عليهما بعض القادة من غير البيت العباسي من الذين كانت تتوفر فيهم صفات الحزم والشجاعة فعين معن بن زائدة ، ومن بعده ابنه زائدة بن معن على اليمن وخازم بن خزيمة على أرمينيا[١].

وكان يساعد الوالي عدد من الموظفين وهم: صاحب الخراج ، والقاضي وصاحب الجند ، وصاحب البريد . وكان المنصور شديد المحاسبة لولاته وموظفيه ، إذا صدر منهم أي تلاعب في الأمور المالية ، أو تقصير في أداء أعمالهم حتى ثقل عليهم ولقبوه بأبي الدوانيق لحرصه الشديد على ادخار الأموال والاقتصاد في النفقات . وكثيراً ما تعرض الولاة في عهده للعزل ومصادرة أموالهم ، وأنشأ لذلك ديواناً خاصاً سماه ((بيت مال المظالم)) أو ((ديوان المصادرات))[٢]. فنحى بالإدارة نحو المركزية الشديدة .

٥- القضاء:

شهد منصب القضاء رعاية واهتماماً كبيرين من قبل المنصور ، نتيجة لحساسية المنصب ونزاهة من يتولاه ، لذلك أولى المنصور عناية خاصة في اختيار قضاته . وجعل تعيين القضاة على الأمصار من قبله . وكان الولاة قبل

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٨ ، ص٤٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٨١ .

ذلك هم الذين يعينون القضاة في ولاياتهم ((فكان المنصور أول من ولى القضاة على الأمصار من قبله))[1].

٦- البريد:

كان لديوان البريد مكانة خاصة بين الدواوين الإدارية الأخرى لدى المنصور . وقد اهتم به واعتمد عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولته . وأُثر عن أبى جعفر قوله: ((ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم . فقيل له من هم يا أمير المؤمنين ؟ قال: أحدهم قاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع... ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ويقول في كل مرة آه آه... فقيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة))[2].

من هذا يتضح مدى أهمية مهمة صاحب البريد التي لم تقتصر في عهد المنصور على حمل الأخبار من الخليفة إلى عماله في الولايات ، وإنما كان على صاحب البريد أن يراقب الولاة والموظفين ويتجسس على الأعداء والأصدقاء على حد سواء ، حتى يسهل عليه الاطلاع على أحوال المناطق والأمصار. وكان يطلب من عمال البريد أن يكتبوا إليه يومياً ((بسعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول ، ليتلافى المجاعات وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي ، وبما يرد من بيت المال من المال وكل حدث))[3]. فكان عمال البريد يوافونه بما يجري مرتين في اليوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث نهاراً ، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٩٨ ؛ الكندي ، أبي عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي ، د:ت) ، ص٣٦٨ .

٢) ٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٧ ، ٩٦ .

ليلاً . فبهذه الطريقة كان المنصور على علم بما يجري في الأمصار الإسلامية أولاً بأول ، حتى شاع بين الناس بأن الخليفة لديه مرآة سحرية يعرف بها ما يحصل في الولايات . وهكذا يكون أبو جعفر المنصور كما يرى كثير من المؤرخين أول من نظم جهاز الاستخبارات في الدولة[1].

٧- الجيش:

اعتمد العباسيون في بداية قيام دولتهم على الجند من القبائل العربية التي استقرت في خراسان ، وبالأخص على القبائل اليمنية ، وقد أطلق على هؤلاء الجند اسم ((الجند الخراسانية)) ؛ لأنهم جاءوا من خراسان تمييزاً لهم عن باقي الجند الذي تكون منه الجيش العباسي في ذلك الوقت ؛ كالجند السوري ، والجند العراقي، وأهالي الجزيرة الفراتية . كما اعتمدوا أيضاً على الموالي الذين عرفوا بالأعاجم ، وكان هؤلاء الموالي يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها العرب ؛ من حيث العطاء والغنائم .

وحرص المنصور على حفظ التوازن بين الفرق العربية والخراسانية فقسمهم إلى أربعة أحزاب معتمداً على العصبية القبلية وهم: المضرية ، والربعية واليمنية ، بالإضافة إلى الخراسانية . وقيل إن المنصور اعتمد على مبدأ تفريق الجيش إلى أحزاب متنافرة خوفاً من اجتماعهم عليه ، فإذا أظهرت أحد الفرق العصيان ضربه بالحزب الآخر[2]. كما كون لابنه المهدي جيشاً جعل مقره في الطرف الشرقي من دجلة في الرصافة . وبذلك جعل للجيش مركزين ، أحدهما في بغداد ، والثاني في الرصافة .

وكان شديد الحرص على كفاءة جيشه وإعداده وترتيبه الترتيب الصحيح وتموينه بالعدة والسلاح ، وكان دائم التفقد له ولأحواله عن طريق الاستعراضات العسكرية التي كان أخرها قبل وفاته بسنة تقريباً .

---

١) شاكر مصطفى ، دولة بني العباس ، ج١ ، ص٣١٥ .

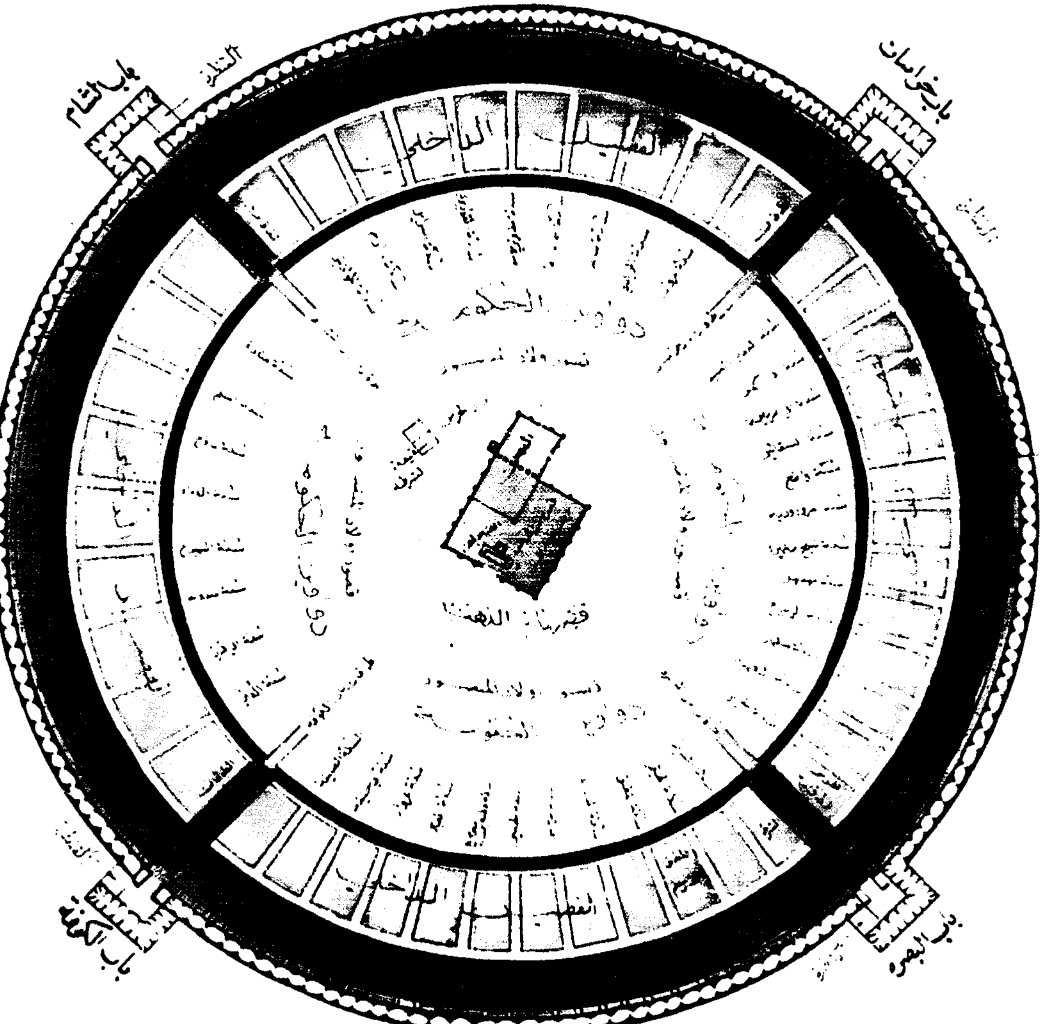
٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٣-٣٤ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٧٤ .

وبرز في عهده الكثير من القادة العرب الذين كان لهم الصولات والجولات في محاربة أعداء المنصور ، أمثال الحسن بن قحطبة ، وخازم بن خزيمة ، ومعن بن زائدة ، وأخيه مزيد بن زائدة ، وابنه يزيد بن مزيد .

وفاة المنصور:

في سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م ذهب المنصور إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وكان مريضاً يعانيَ من عسر الهضم ، وعند بئر ميمون وقبل وصوله إلى مكة توفي في يوم السبت السادس من ذي الحجة ، ودفن بمكة مكشوف الوجه ؛ لأنه كان محرماً . ومات وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقيل خمسٌ وستون بعد حكم دام اثنين وعشرين عاماً[١].

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٩-٦٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٤٢-٤٤ .



خارطة بغداد المدورة. تصميم بخارطة المدينة وفيها يرى نموذج في تخطيط المدن الاسلامية.

الفصل الرابع

استكمال الجهود في بناء الدولة

١- خلافة المهدي (محمد بن المنصور)

١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م

٢- خلافة الهادي (موسى بن المهدي)

١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م

خلافة المهدي (محمد بن المنصور) ١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م :

لما مات المنصور ((ببئر ميمون)) قام الربيع بن يونس بأخذ البيعة الخاصة للمهدي من الهاشميين ووجوه الناس ، وبعث بالبيعة ، مع قضيب رسول الله ، وبردته ، وخاتم الخلافة إلى المهدي ببغداد ، فبايعه أهل بغداد البيعة العامة ، وكان ذلك في نصف ذي الحجة سنة ١٥٨هـ/أكتوبر ٧٧٥م وخطب في الناس فقال: ((إنَّ أمير المؤمنين عبد دُعي فأجاب ، وأُمر فأطاع...... ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً ، فعند الله احتسب أمير المؤمنين وبه استعين على خلافة المسلمين)) ثم قرأ وصية والده [١].

وكان المنصور قد عني بتربية المهدي ، وتثقيفه ، وتأهيله ، ليتولى منصب الخلافة من بعده ، ودربه على الحرب والإدارة وتحمل مسؤولية الحكم ، فأرسله على رأس حملة عسكرية إلى خراسان لقمع حركة عبد الجبار الأزدي ، وبعد الانتهاء من تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . كما عينه في بعض المناصب الإدارية ، ثم نصبه ولياً لعهده في عام ١٤٧هـ/٧٦٤م . وبعد سنة من تعيينه ولياً لعهده ، عهد إليه بولاية خراسان والجبال فبقي والياً عليها حتى سنة ١٥١هـ/٧٦٨م[٢] ، ولما عاد بعد ذلك بجيشه الخراساني إلى بغداد شيد له والده معسكرين أحدهما في الرصافة على الضفة الشرقية من دجلة والآخر في الرافقة على الفرات .

الإصلاحات الإدارية والمالية في عهد المهدي:

إن التدريب الذي تلقاه المهدي في عهد والده جعل منه حاكماً سياسياً بارعاً وإدارياً محنكاً ، فاستهل عهده بحملة من الإصلاحات السياسية والإدارية

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٩٢-٣٩٤ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١١٠-١١٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٠٠ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٠ ، ص١٥٢ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٢ .

والاجتماعية ؛ لتحقيق العدالة والمساواة بين الجميع ولتحقيق التفاهم مع الفئات المعارضة لسياسة والده . فرد الأموال التي صودرت في عهد أبيه إلى أصحابها ، ثم أمر بإطلاق سراح المسجونين السياسيين ، كما حرص على كسب رضا العلويين فبادر بإخراج من كان منهم في السجن ، وفيهم موسى الكاظم أحد أئمة الإمامية الإثنى عشرية ، وعاملهم معاملة حسنة مراعياً بها صلة الرحم ، وقد أقسم أن لا يقتل في خلافته هاشمياً . ولم يستثن من عفوه إلا الحسن بن إبراهيم بن عبد الله , مما اضطره إلى الهرب ولكنه عفا عنه بعد ذلك[١].

واسترضى كذلك أهل الحجاز ، ووصلهم بتوزيعه الأموال عليهم عندما حج سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م ، وقد قدرت الأموال الموزعة عليهم بقيمة ثلاثين مليون درهم ونصف مليون دينار ، ومائة وخمسين ألف ثوب ، وألغى الحظر الاقتصادي الذي كان مفروضاً على أهل المدينة من قبل المنصور عقب حركة النفس الزكية . وتأكيداً على صفاء نيته تجاههم اختار لنفسه خمسمائة رجل من أبناء الأنصار لحرسه الخاص . ووسع المسجد الحرام حتى تتوسطه الكعبة واستن سنة كسوة الكعبة كل عام ، كما وسع المسجد النبوي وجمله بالفسيفساء[٢]. واهتم بطريق الحج ، وأقام على جانبيه المحطات وخزانات المياه لراحة الحجاج ، ورتب عليه الحرس لحمايته[٣].

وبصفته المهدي ذلك اللقب الذي يحمل مدلولات دينية خاصة انتهج سياسة دينية في حكمه لرعاياه ، فعدل بين الناس وأنشأ ديوان المظالم ، وكان يجلس فيه مع القضاة لسماع شكاوى رعيته على موظفيه ، فكان بذلك أول الخلفاء العباسيين الذين جلسوا للمظالم ، واتخذ بيتاً له نافذة من حديد يضع

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٣٩٤-٣٩٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥١-٥٢ .

٢) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٣٣ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص٣٢٢ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٣٩ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٦٠ .

الناس فيها عرائض شكواهم ، فينظر فيها دون إبطاء أو تأخير ، وحتى لا يكون ثمة مجال لإخفاء الشكوى من قبل موظفيه ، فحمى بذلك الرعية من ظلم وتعدي الولاة والموظفين(١).

ومع ازدياد أتوقراطية أبي جعفر المنصور ، واتجاهه نحو المركزية توسع الجهاز الإداري وتعقدت معاملاته ، وصارت الحاجة ملحة في عهد المهدي إلى زيادة عدد الدواوين للاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على جميع مناحي الدولة . فنشأت دواوين لم يكن لها وجود من قبل عرفت ((بدواوين الأزمة)) أو (ديوان المراقبة) في سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، وهي عبارة عن دواوين صغيرة مهمتها التنسيق بين الدواوين والإشراف على معاملاتها خاصة المالية منها . بمعنى أن المهدي عين في كل ديوان أو مصلحة مراقباً يشرف على أمورها . وعندما وجد أن ذلك لا يضبطها عين مراقباً عاماً على رأس هؤلاء المراقبين وسمى ذلك الديوان (بزمام الأزمة) ، وعهد به إلى علي بن يقطين ، وأمر بإنشاء مثل هذه الدواوين في جميع الأقاليم(٢).

ومن الدواوين التي أنشئت في عهد المهدي ديوان الزنادقة ، وعين عليه موظفاً خاصاً عرف ((بصاحب الزنادقة)) ، الهدف منه هو ملاحقة الزنادقة والملاحدة والهراطقة في الدين في كل مكان وقتلهم . وقد أطلق كلمة (زنديق) في الأصل على اتباع الديانات المجوسية الفارسية القديمة كالزردشتية والمانوية . وأطلق العرب لفظ (زنديق) على كل من ينفي وجود الله ، وعلى من يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، وأطلقت كذلك على الماجنين لإفراطهم في شرب الخمر والمجون، أو على بعض الخلعاء والظرفاء . وأصبح لهذا الاصطلاح بعد ذلك دلالات دينية وسياسية فأطلق على الأشخاص غير المرغوب فيهم سياسياً .

---

١) المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص٣٢٢ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٧٩ .

٢) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٦٧ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٤٦ ، ١٦٦ .

وقد حرص المهدي على محاربتهم والتنكيل بهم . ولاشك أن تهمة الزندقة كانت وسيلة للتشفي من الخصوم والأعداء السياسيين ، فعندما أراد المهدي التخلص من وزيره عبد الله بن معاوية بن يسار رمى ابنه بالزندقة ومن ثم قتله[١].

كما قام المهدي بإصلاحات اجتماعيه ذات طابع ديني ، فأمر بتخصيص الأعطيات على المجذومين وأهل السجون ؛ خوفاً من انتشار الأمراض بين الناس وحرصاً على سلامة المسجونين حتى لا يموتوا جوعاً نتيجة الإهمال ، وبنى المدارس والمستشفيات ، وأقام البريد لأول مرة بين المدينة ، ومكة ، واليمن[٢].

أشهر وزراء المهدي وأثرهم على سياسته الداخلية:

ترك المنصور لابنه المهدي دولة مستقرة مليئة خزائنها بالأموال ، قدرت بنحو تسعمائة وخمسين مليوناً من الدراهم[٣]. فازدهرت نتيجة لذلك الحياة الإدارية ، والسياسية ، والاقتصادية في عهد المهدي ، ونمت المؤسسات الإدارية وبدأ منصب الوزارة يتخذ معالمه ، وتتسع صلاحيات شاغليه ، فقد منح المهدي الوزراء سلطات واسعة واعتمد عليهم بشكل كبير .

ومن أشهر وزراء المهدي أبو عبد الله معاوية بن يسار الأشعري الطبراني ، أصله من فلسطين حيث خدمت أسرته الإدارة الأموية . ونظراً لكفاءته وخبرته في الشؤون الإدارية والمالية قلده المهدي وزارته ودواوينه سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م ، وقد عُدّ معاوية بن يسار أكثر وزراء العصر العباسي الأول إنجازاً من الناحية المالية . فكان شديد الحرص على بيت المال يشير

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٨٦٥ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٥٣-١٥٤ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٨٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ١٤٢ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٥٨ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص٣٢٢ .

على المهدي بالاقتصاد في النفقة وعدم الإسراف[1]. كما كان عفيفاً يحب الخير ، ويحض عليه ، ويعطف على المحتاجين ، إلا أنه يؤخذ عليه أنه كان شديد التكبر والتيه[2].

وعلى الرغم من قصر مدة وزارة أبي معاوية بن يسار إلا أنه كانت له إصلاحات إدارية ومالية لم يعمل بها من قبل ، واحتذى بها من جاء من بعده ، يقول عنه ابن طباطبا: (إنه كان مقدماً في صناعته فاخترع أموراً) فمن هذه الأمور إصلاحاته الإدارية والمالية التي منها أنه[3]:

- رتب ديوان الخراج وقرر قواعده .
- أول من صنف كتاباً في الخراج ، وتبعه آخرون بعد ذلك وألفوا كتباً في الخراج.
- نظم جباية الأموال .
- نقل الخراج من المساحة إلى المقاسمة .

وقد تم وضع نظام المقاسمة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م ، وكان الخراج يؤخذ بالنقد ، وعلى مساحة الأرض زرعت أم لم تزرع . فرأى معاوية بن يسار أن تطور الظروف يستلزم إجراء تعديل هذا النظام . لأن إهمال الولاة الأمويين كان قد أدى إلى خراب السواد وتدهور الزراعة ، فأشار على المهدي بنظام المقاسمة الذي يقوم على جعل أرض الخراج من المساحة على الجريب إلى المقاسمة للإنتاج ، وكان على النحو التالي:

(النصف على الأرض التي تسقى سيحاً[4]. والثلث على الأرض التي تسقى بالدوالي ، والربع على تلك التي تسقى بالدواليب....... ولا شيء عليهم

---

١) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٥٨ .

٢) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٨٢ .

٣) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٨٢ .

٤) السيح: السقي بدون كلفة ولا مشقة من ماء السماء ، والسيح الماء الجاري ، أنظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢ (بيروت: دار بيروت ، د:ت) ، ص٤٩٥ .

سوى ذلك . أما خراج الكروم والنخيل والشجر ، فإنه بقى على النظام القديم ، ولكن روعي فيه القرب من الأسواق والموانئ ، إضافة إلى جودة المحصول أو رداءته ، فقلل بذلك من تعسف الجباة[١].

ومن ضمن سياسة أبي عبيد الله معاوية بن يسار المالية اهتمامه بتحسين وإصلاح الأراضي الزراعية ؛ وذلك للعلاقة الوثيقة بين الزراعة وواردات الخراج وغيره من الضرائب الأخرى . وقد أشار الوزير على الخليفة المهدي بأن تكون نفقات الإرواء من إنشاء شبكات الإرواء والتصريف وبناء السدود وعمل القناطر وسد الشقوق ، وحفر الأنهار وتقوية الضفاف من بيت المال[٢]. ويبدو أن هذا النظام لم يستمر طويلاً ، فعندما أمر المهدي بحفر نهر الصلة وإحياء ما على ضفتيه من الأرض وجعل نفقتها صلة لأهل الحرمين دفعت من بيت مال المسلمين ، إلا أن المهدي بعد ذلك أمر بمضاعفة الضريبة المفروضة على المزارعين المستفيدين من حفر هذا النهر لمدة خمسين سنة ، تعويضاً لبيت المال عن تلك النفقات[٣].

ومن الوزراء الذين تركوا بصمة واضحة في سياسة المهدي الوزير ((يعقوب بن داود بن عمرو بن طهمان)) ، فارسي الأصل نشأ في بيئة اشتغل أفرادها بالكتابة فقد خدم والده وأعمامه الأمويين . وبعد قيام الدولة العباسية تقربوا من آل الحسن واعتنقوا المذهب الزيدي ، وطالبوا بالخلافة لمحمد النفس الزكية . فقد كان يعقوب هذا من سجناء المنصور السياسيين . ولما تولى المهدي الخلافة أطلق سراحه وقربه إليه ، وذلك لميول يعقوب العلوية وقربه

---

١) الماوردي ، الأحكام السلطانية (بيروت: دار الكتب العلمية ، د.ت) ، ص١٨٩-١٩٠ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٨٢ .

٢) قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج وصنعة الكتابة (فرانكفورت: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) ، ص٢٠ ؛ ضيف الله الزهراني ، موارد بيت المال ، (مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ، ص٢٤٠-٢٤١ .

٣) البلاذري ، فتوح ، ص٢٨٩-٢٩٠ ؛ ضيف الله الزهراني ، موارد بيت المال ، ص٢٤١ .

من الشيعـــة ومعرفته بهم . وكان هدف المهدي من تقريب يعقوب هدفاً سياسياً محدداً ، وهو التقرب من العلويين والسعاية بآل عليٍّ[١].

وبذلك حظي يعقوب برضى الخليفة فأعطاه لقباً مميزاً هو ((الأخ في الله)) وخط ذلك في خطاباته ، ومراسلاته الرسمية التي كانت تحفظ ضمن أوراق الخلافة[٢]. ولاشك أن تلقيب المهدي يعقوب بن داود بلقب ((الأخ في الله)) له مغزاه السياسي ، فقد أراد المهدي أن يستغل ظروف يعقوب واتصالاته بالعلويين ؛ ليكسبهم إلى جانبه ، من جهة ويرصد تحركاتهم وأنشطتهم وليأنس العلويون بحكمه من جهة ثانية .

ولتسهيل مهمة يعقوب في سياسة المصالحة مع العلويين منحه المهدي سنة ١٦١هـ/٧٧٨م سلطات سياسية كبيرة مثل حق تعيين أمناء له في جميع الولايات ، ومنح هؤلاء الأمناء سلطة على الولاة أنفسهم فكان ((لا ينفذ للمهدي كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفـــاذ ذلك[٣]. ولم يزل أمر يعقوب يعلو عند المهدي حتى استوزره ، وفوض إليه أمر الخلافة ، أي أنه وزره وزارة تفويض ، وأصدر مرسوماً بذلك سنـــة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، فازدادت منزلة يعقوب علواً حتى أخذ يقرب الزيدية ، وأتى بهم من كل ناحية ، وولاهم مناصب الدولة ليس في العراق وحدها ، وإنما في جميع الولايات[٤].

إلا أن سياسة المصالحة هذه لم تأتِ بالنتائج المطلوبة وذلك لأمور منها:

أولاً: أن الخلافات بين العلويين والعباسيين كانت كبيرة ومتأصلة ، بحيث لـــم

---

١) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٥٥ .

٢) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١١٩ ، ١٥٦ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٥٥ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٨٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٢ .

٣) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٣٦ .

٤) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ١٥٦ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٥٦-١٥٨ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٨٤ .

يستسغ العلويون سياسة المصالحة ، كما أنهم لم يثقوا بيعقوب وعدّوه شخصاً انتهازياً[١].

ثانياً: أثارت الصلاحيات الكبيرة التي منحها يعقوب لأمنائه وموظفيه الزيدية عداء أصحاب البريد ، وولاة الولايات فأخذوا يوغرون صدر المهدي على يعقوب ، معللين ذلك بأن ميله للعلويين هو الذي جعله يمنحهم تلك الصلاحيات[٢]. وبذلك عزل المهدي يعقوب ، وأعاده إلى السجن وكان يعقوب ينتقد إسراف المهدي وتبذيره للأموال ، وكان كثيراً ما يشير إليه بالاقتصاد في النفقات وحفظ الأموال . وقد اتهم المهدي بصرف وتبذير جميع الأموال التي ادخرها والده المنصور في خزينة الدولة[٣].

موقف المهدي من الخارجين على حكمه:

حركة المقنع الخراساني:

اتبعت الدولة العباسية منذ قيامها مبدأ التعددية الدينية بين رعاياها ، مما أدى إلى خلق مناخ من الحرية أتاح لكثير من اتباع الديانات المختلفة أن يمارسوا دياناتهم بحرية . ولم يستطع الدين الإسلامي الذي انتشر بين الإيرانين من استئصال شأفة جذور الديانات القديمة من زرداشتية ومانوية ، ومزدكية مما أدى إلى ظهور الحركات الإلحادية التي حاولت التوفيق بين الديانات القديمة وبين الدين الإسلامي . وقد شهد عصر المنصور وابنه المهدي نشاطاً ملحوظاً لهذه الحركات الإلحادية الهدامة ، التي كانت تهدف إلى تقويض دعائم التقاليد الاجتماعية والدينية ، وإباحة المحرمات والنيل من الإسلام .

---

١) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ط٢ (بغداد: جامعة بغداد ، ١٩٧٧م) ، ص١٥٦ .

٢) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٥٦ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٥٨ .

ومن هذه الحركات حركة المقنع الخراساني التي كانت امتداداً للحركات التي شهدتها خراسان بعد مقتل أبي مسلم الخراساني . وظهرت هذه الحركة سنة ١٥٩هـ/٧٧٦م بعد عام واحد من وفاة المنصور بزعامة رجل فارسي من مرو الروذ يدعى هاشم بن حكيم لقب (بالمقنع) ، وذلك لأنه كان يضع على وجهه قناعاً من ذهب ، وقيل من حرير أخضر ليخفي به قبح وجهه ، بينما زعم لأتباعه أنه كان يضـــع القناع على وجهه لحجب الذات الإلهية التي تجسدت فيه عن عيون الناس ، وحتى لا يحترق أتباعه بنوره[١]. كان أحد قواد أبي مسلم الخراساني تنقل في بعض الوظائف الإدارية فعمل كاتباً لدى أمير خراسان عبد الجبار الأزدي[٢]. وبعد القضاء على ثورة عبد الجبار في عهد المنصور أدعى الألوهية ونادى بفكرة الحلول والتناسخ ، وأن روح الله حلت في أدم ، ومن أدم انتقلت إلى باقي الأنبياء ، إلى أن وصلت إلى أبي مسلم ثم حلت به بعد موت أبي مسلم . كما ظهرت فيها المبادئ الخرمية ، حيث أباح المقنع لأتباعه الأموال ، وأحل لهم المحرمات وشرع لهم جميع ما جاء به مزدك من تعاليم[٣].

وأخذ يدعو لنفسه بإرسال كتبه إلى الناس عن طريق دعاته الذين كانوا يجوبون أنحاء خراسان وبلاد ما وراء النهر للدعوة له . فلقيت دعوته استجابة من أهالي قرى بخارى ، وقرى الصغد ، وانتشر أتباعه في نواحي كـــش ونسف ، وأيدته المبيضة أصحاب أبي مسلم وانضووا تحت لوائه وكثـــر أتباعه ، وأخذوا يغيرون على المناطـــق الآمـــنة ، ويقطعون الطريق على القوافل وينهبون القرى .

---

١) النرشخي ، أبي بكر محمد بن جعفر النرشخي، تاريخ بخارى ، عربه عن الفارسية: أمين عبد المجيد بدوي (القاهرة: دار المعارف ، د:ت) ، ص٩٤-١٠٤ ؛ البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ، ص٢٤٣-٢٤٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٣ ، ٥٨ .

٢) النرشخي ، تاريخ بخارى ، ص٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٢-٥٣ .

٣) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٤٣-٢٤٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٢ .

وعندما عجز الأمراء المحليون عن محاربة أتباع المقنع وضبط الأمن في مناطقهم ، عزم المهدي على محاربته بكل حزم وشدة فأرسل له الجيوش للقضاء عليه وعلى أتباعه . فأرسل لقتالهم جيشاً كبيراً قوامه ٧٠ ألف رجل تحت قيادة ((سعيد بن عمرو الحرش)) وانتقل هو إلى خراسان لمراقبة سير العمليات العسكرية لفداحة الموقف .

وأخيراً استطاع سعيد بن عمرو الحرشي حصار المقنع حصاراً شديداً في قلعته التي اعتصم بها فاستأمن إليه من أصحاب المقنع ثلاثون ألفاً . ولما استسلم أصحابه وأدرك المقنع قرب نهايته أشعل النار في القلعة وأحرق كل ما فيها من دواب ، ومعدات حتى لا ينتفع بها أعداؤه . كما قتل نساءه وأولاده بعد أن سقاهم شراباً مسموماً أماتهم جميعاً ، وأخيراً رمى نفسه في تنور مشتعل كان قد أذاب فيه النحاس والقطران مع السكر لمدة ثلاثة أيام ، حتى لا يظفر أعداؤه بجثته ويمثلوا بها ، وكان ذلك في نحو سنة ١٦١هـ/٧٧٧م[١].

وهكذا انتهت حركة المقنع بموته إلا أن مبادئه لم تمت لافتتان من بقى من أصحابه به ، واعتقادهم أن روحه صعدت إلى السماء لتأتي بالملائكة لينصروه على أعدائه .

حركات الخوارج:

بينما مال العلويون إلى الدعة والسكون في عهد المهدي نشطت حركات الخوارج المناهضة لحكم العباسيين التي كانت امتداداً لحركات الخوارج التي ظهرت في عهد والده المنصور ، ولكنها لم تترك أثراً يذكر ، وأحبطت دون كبير عناء بسبب أن الأعداد الكبيرة التي ناصرت حركات الخوارج لم تكن مؤمنة بما ناصرته من مبادئ بقدر ما كانت تجد فيه متنفساً لكراهيتها للحكم العباسي ؛ ومن هذه الحركات حركة ظهرت بخراسان سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٣٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٨ .

بزعامة رجل من موالي ثقيف يدعى يوسف بن إبراهيم البرم . وقد خرج على المهدي ؛ لأنه كان ينكر عليه أحواله وسيرته على ما تذكره النصوص التاريخية ، فالتف حوله خلق كثير استطاع بهم التغلب على بوشنج ومروالروذ والجوزجان . فأمر المهدي واليه على سجستان ((يزيد بن مزيد الشيباني)) بالتوجه إلى خراسان لقمع حركة البرم ، فتوجه إليه يزيد وتقاتلا قتالاً عنيفاً ، ووقع إبراهيم البرم في الأسر مع جماعة من أصحابه ، وأرسلوا إلى المهدي في الرصافة فأمر بقتلهم وصلبهم على جسر دجلة الأعلى(١).

وفي أواخر ذلك العام ثار في إقليم الجزيرة بنواحي الموصل خارجي آخر هو ((عبد السلام اليشكري)) ، وأيده كثير من الخوارج في المنطقة واستولى على معظم ديار ربيعة . وسببت حركته الكثير من الحرج والقلق للمهدي ؛ لشدتها وقربها من مركز الحكم العباسي ، وانتصاره على الجيوش العباسية التي أرسلها إليه المهدي ممَّا استدعى من الخليفة مراسلتـــه ومفاوضته ، وقد استمرت حركته ما يقرب السنتين . ولم تنتهِ حركته إلا بعد أن وجه إليه المهدي جيشاً كبيراً من ألف فارس ، جعل على قيادته ((شبيب بن أوج)) ، وأعطى كـــل فارس ألف درهم معونة ، فهرب عبد السلام حتى أتى قنسرين فتبعه شبيب وقتله(٢).

سياسة المهدي الخارجية:

العلاقات مع البيزنطيين:

تنفيذاً لوصيـــة والده سار الخليـــفة المهـــدي على نفس الاتجاهات والخطط التي رسمها له من بناء الحصون وترميم الثغور ، وحشدها بالجند ، وشحنها بالســـلاح ، وبث روح الجهـــاد في الأمـــة والتصدي لاعتداءات البيزنطيين . وفي

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٢٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٤ .

٢) خليفة ابن خياط ، تاريخ ابن خليفة ، ص٤٤٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٣٢-١٤٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٧ ، ٦١-٦٢ .

الجانب البيزنطي كان الإمبراطور ((ليو الرابع)) قد تربع على عرش الإمبراطورية البيزنطية في نفس العام الذي تولى فيه المهدي الخلافة ، واتبع نفس الأسلوب الذي انتهجه المهدي من زيادة عدد قواته للتصدي لغزوات المسلمين .

ففي عام ١٥٩هـ/٧٧٦م أرسل الإمبراطور ليو الرابع قوة بيزنطية توغلت داخل الحدود الإسلامية ، وشنت هجوماً على سميساط ، وأسرت عدداً كبيراً من أهلها . فرد عليه المهدي بحملة بقيادة عمه العباس بن محمد ، وضم إليه جماعة من قواد أهل خراسان وغيرهم ، وعسكر هو بالبردان لمتابعة أحوال جيشه عن كثب . فتوغل الجيش داخل الأراضي البيزنطية حتى وصل إلى أنقرة ، وفتحوا مدينة للروم ومطمورة ورجعوا سالمين(١).

لم يكتف المهدي بهذا النصر المحدود الذي أحرزه جيش عمه العباس إنما أعقبه بجيش آخر في منتصف عام ١٦١هـ/٧٧٨م تحت قيادة ثمامة بن الوليد الذي أغار على المناطق المحيطة بدابق شمالي حلب(٢).

استئنفت المصادمات العسكرية بين البيزنطيين والمسلمين خلال عامي١٦٢هـ و ١٦٣هـ/٧٧٩م و ٧٨٠م ، وكانت عبارة عن سلسلة من الحملات الصيفية لعل أكبرها تلك التي قادها المهدي بنفسه سنة ١٦٣هـ/٧٨٠م بعد أن جهز حملة كبيرة بلغت حوالي ١٥٠ ألف جندي . وترك ابنه موسى الهادي في بغداد لينوب عنه في إدارة شئون البلاد ، واصطحب معه ابنه هارون وعدداً من قواده الخراسانيين ، ثم عبر الفرات إلى حلب واتخذها مركزاً لأعماله الحربية ، ومن هناك عهد إلى ابنه هارون بمواصلة الغزو واشترك معه من القادة: عيسى بن موسى ، وعبد الله بن صالح ، والحسن بن قحطبة ، ويحي بن خالد بن برمك ، وسار هو إلى بيت المقدس .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١١٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٣ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٦٠ .

توجه هارون إلى الحدث وحاصر حصن سمالوا ثمانية وثلاثين يوماً حتى تم له فتحها بعد أن استسلم أهلها ، بشرط منحهم الأمان على ألا يقاتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم ، فأعطاهم الأمان ووافق على شروطهم وعاد إلى بغداد(١).

استغل بعد ذلك الخليفة المهدي موت الإمبراطور ليو الرابع ، واعتلاء زوجته ((إيرين)) عرش الإمبراطورية وصية على ابنها القاصر ((قسطنطين)) وما أعقب ذلك من اضطراب الأوضاع في الدولة البيزنطية فجهز ابنه هارون بجيش كبير ، بلغ عدده ٩٥٧٩٣ جندياً إضافة للمتطوعين مزوداً إياه بأموال طائلة للنفقة تقدر بنحو ١٩٤٤٥٠ ديناراً أو ١٤١٤٨٠٠ درهماً . فتوغل هارون في بلاد الروم، وفتح حصن ((ماجدة)) ووصل إلى سواحل ((البسفور)) على الشاطئ المواجه للقسطنطينية متجاوزاً المقاومة التي اعترضت طريقه ، ومتغلباً عليها . وكانت الإمبراطورة إيرين قد تعرضت لأزمات داخلية شديدة منها : تململ القادة العسكريين من حكمها ، وقيام ثورة في جزيرة صقلية ضدها ، وأمام تهديدات الجيش العباسي على أبواب عاصمتها اضطرت إيرين لقبول شروط هارون وأهمها:

- أن تدفع إيرين جزية سنوية للعباسيين تتراوح بين سبعين ألف ، وتسعين ألف دينار تدفع على مرحلتين .
- أن يتم تبادل الفداء والأسرى بين الجانبين .
- أن تقيم الأدلاء والمرشدين في طريق عودة الجيش الإسلامي .
- أن يسمح للجيش الإسلامي بحمل كافة الغنائم .
- أن تستمر الهدنة لمدة ثلاث سنوات .

ورجع هارون بعد ذلك منتصراً إلى بغداد فلقبه والده بالرشيد . وعدّت

---

١) البلاذري ، فتوح ، ص١٧٥ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٣٩٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٤٢ ، ١٤٤-١٤٦ ، ١٥٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٦٣ .

هذه الحملة آخر الحملات الإسلامية التي وصلت إلى شاطئ القسطنطينية[١].

أما عن علاقات المهدي بالأندلس فقد ظلت سيئة كما كانت في عهد والده ، وكان يدرك أنه لا يمكنه إعادتها إلى حكم الدولة العباسية بالطرق العسكرية لبعد المسافة بين الدولتين ، فلجأ إلى تدبير المؤامرات ضد عبد الرحمن الداخل للإطاحة به ، وذلك بتشجيع كل حركة تهدف إلى إضعاف نفوذه في البلاد . إلا أن عبد الرحمن استطاع بشجاعته وذكائه إفشال جميع خطط المتآمرين عليه . وبذلك فشل العباسيون للمرة الثانية في استعادة الأندلس[٢].

العلاقات مع بلاد الهند:

لما قامت الدولة العباسية عمل خلفاؤها جاهدين على الحفاظ على بلاد السند الإسلامية ، وسعوا إلى توسيع رقعتها . ففي عهد المهدي عجز ولاته على بلاد السند عن القضاء على الفتن والاضطرابات التي قام بها الأهالي في الأجزاء الغربية من البلاد ، وعن تنظيم الأمور بها . ونتيجة لذلك ولزيادة نشاط القرصنة في المحيط الهندي والخليج العربي جهز المهدي حملة بحرية تأديبية إلى سواحل بلاد السند ، جعل على قيادتها ((عبد الملك بن شهاب المسمعي)) . وكانت الحملة تتألف من نحو عشرة آلاف مقاتل منهم:

- ٢٠٠٠ من أهل البصرة من جميع الأجناد .
- ١٥٠٠ من المتطوعة الذين كانوا يلزمون الرباط .
- ٧٠٠ من أهل الشام .
- ١٠٠٠ من المتطوعة الذين كانوا بالبصرة .
- ٤٠٠٠ من الأساورة والسبابجة[٣].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٥٢-١٥٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٦٥ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٦٣ ، ٦٤ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٨ .

سارت الحملة حتى وصلت سواحل الهند (السند) سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وحاصرت مدينة باربد ، واستولى المسلمون عليها ، وسبوا كثيراً من أهلها ، وكان من بين السبايا ابنة ملك باربد . وعلى الرغم من نجاح الحملة إلا أن الوباء تفشى بين الجند ، مما أدى إلى إصابتهم بأمراض مات بسببها ألف مقاتل . وبعد الاستيلاء على باربد عزل المهدي والي بلاد السند نصر بن محمد بن الأشعث ، وعين مكانه قائد الحملة عبد الملك بن شهاب فتولاها فترة قصيرة لم تتجاوز العشرين يوماً ؛ لأنه فشل في إدارتها فردت إلى نصر بن محمد مرة أخرى(١).

وفيما يبدو أن عزل ولاة السند في عهد الخليفة المهدي بهذه السرعة يعود إلى أسباب منها: اشتداد النزاع بين القبائل العربية التي هاجرت إلى هناك منذ بداية الفتح الإسلامي وانشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه القبائل ممّا أضعف من سلطان الحكومة الإسلامية وأتاح الفرصة للقبائل السندية غير الراغبة بحكم المسلمين لإثارة الشغب ، يساندهم في ذلك أمراء الهنادكة على الحدود الغربية من بلاد الهند . فكان هؤلاء الأمراء يمدونهم بالمال والسلاح حتى يستمروا في مضايقة العرب ، ومن ثمَّ اقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى إماراتهم .

وأخيراً عين المهدي سفيح بن عمرو التغلبي (بسطام) أخا هشام بن عمرو التغلبي ، الذي كان والياً على بلاد السند في عهد أبي جعفر المنصور، نظراً لما اكتسبه من خبرات كثيرة في السنوات الطويلة التي عاشها في تلك البلاد حين كان نائباً لأخيه من سنة ١٥١-١٥٧هـ/٧٦٨-٧٧٣م . وقد استطاع أن يقضي على الانتفاضات التي قام بها الأهالي كما كان ناجحاً في إدارة شئون البلاد(٢).

---

١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٣٩٨ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٢٨ ، ١٤٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٥ .

٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٤١ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٣٩٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم =

ولاية العهد ووفاة المهدي:

سار المهدي على هدي سياسة والده في تقرير ولاية العهد ، فحرص من بداية توليه الخلافة على بقائها في نسله . فلجأ إلى سياسة الترغيب والترهيب حتى أرغم عيسى بن موسى على خلع نفسه ومنحه مقابل ذلك عشرين ألف دينار وقطائع كثيرة ، وعهد بعد ذلك بولاية العهد الأولى لابنه موسى الهادي عام ١٥٩هـ/٧٧٥م، ثم بايع لابنه هارون بولاية العهد الثانية سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م[١].

استمر حكم المهدي ما يقرب من عشر سنوات وتوفي في محرم سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م في قرية ((الروذ)) وتعددت الروايات في سبب وفاته منها: أنه اصطدم بباب خربة أثناء مطاردته ظبياً ، فدق ظهره في باب الخربة فمات من ساعته . وقيل إن جارية من جواريه بعثت إلى جارية أخرى بفاكهة فيها سم فأكل منها المهدي دون أن يعلم فمات[٢].

خلافة موسى الهادي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م):

ولد الهادي في الري في خلافة جده المنصور سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه المهدي في شهر محرم ١٦٩هـ/ أغسطس ٧٨٥م وكان الهادي عند وفاة والده على رأس حملة عسكرية لإخماد ثورة قام بها أهالي طبرستان ، وعند سماعه نبأ وفاة والده أوقف الحرب وعاد مسرعاً إلى بغداد ليباشر أمور دولته[٣].

= ج٨ ، ص١٥٠ ، ١٥١ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٢٦١ .

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٢١-١٢٢ ، ١٢٤-١٢٨ ، ١٥٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٥٤-٥٥ ، ٦٦ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٤٠١-٤٠٢ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ١٦٨-١٧١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٧١ .

٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٤٦ ؛ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٠٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٨٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ص٣١٣ .

اتسمت خلافة الهادي القصيرة بالنزاع بينه وبين أخيه هارون على منصب ولاية العهد ، التي ظهرت بوادره قبل وفاة المهدي عندما قسم البلاد بينهما ، فعهد إلى ابنه موسى وولي عهده الأول المشرق كله ، بينما عهد إلى ابنه هارون الغرب كله من الأنبار إلى أفريقيا وبذلك بذر بذرة الشقاق بينهما . كما يؤخذ على المهدي وزوجته الخيزران إيثارهما وحبهما لهارون ، إذ تؤكد بعض المصادر عزم المهدي على تقديم هارون على أخيه موسى في ولاية العهد لولا أن المنية عاجلته .

لهذا اتسم الهادي بالغيرة من أخيه هارون ، وكان أول عمل فكر القيام به هو خلـــع أخيه هارون من ولاية العهد ، والبيعة لابنه جعفر الذي كان لا يزال طفلاً ، واستخدم أسلوب الشدة والترهيب ضد هارون حتى كاد يوافق على طلب أخيه لولا مساندة ((يحي بن خالد البرمكي)) له وحثه على التمسك بحقه وعدم الاستجابة لرغبة أخيه ونصحه بالمماطلة والابتعاد قدر الإمكان عن أخيه حتى توفي الهادي دون أن يحقق رغبته[١].

سياسة الهادي الداخلية وموقفه من الخارجين عليه:

وصف الهادي بأنه كان قاسي القلب شرس الأخلاق[٢] ، وقد انعكس ذلك على سياسته خاصة على من عدّهم أعداء للدولة . وقد تتبع الزنادقه تنفيذاً لوصية أبيه الذي أوصاه بمحاربتهم دون شفقة أو هوادة ، واقتدى بسياسته ، فنكل بهم ، وقتل جماعة منهم ، وأمر بإعداد ألف جذع لصلبهم ، ومن الذين قتلهم بتهمة الزندقة (يزدان بن باذان) من أهل النهروان ، وعليّ بن يقطين الذي حج فرأى الناس يهرولون في الطواف فقال: ((ما أُشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر))[٣].

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٠٥-٤٠٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٦٩ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٣٥ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٩٠-١٩١ .

كما شارك أباه بغضه للخوارج ، ففي عهده ثار الخوارج بالجزيرة بزعامة حمزة بن مالك الخزاعي ، فالتف حوله الناس وقوي أمره فأمر الهادي واليه بمحاربته ، إلا أن حمزة انتصر عليهم بالقرب من الموصل وغنم أموالهم ، ولم تستطع قوات الخلافة القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن قتل زعيمهم غيلة(١).

أما عن موقفه من العلويين فتذكر المصادر أن المهدي الذي تعهد بأن لا يقتل في عهده هاشمياً ، أوصى ابنه الهادي بتعقبهم وقتل من يعثر عليه منهم دون هوادة . فاستفتح الهادي عهده بقتل ((يعقوب بن الفضل)) الذي كان ما يزال مسجوناً في سجن المهدي عند وفاته . فأرسل إليه الهادي من ألقى عليهِ فراشاً وأقعد عليه الرجال حتى مات(٢).

واستعمل معهم بعد ذلك سياسة القمع والشدة وألح في طلبهم وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطيات . كما أمر ولاته بالتضييق عليهم ومراقبتهم خاصة في الحجاز ، الأمر الذي أدى إلى تخوفهم ولجوئهم إلى شيخهم في المدينة الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن ابن عم محمد النفس الزكية ، وطالبوه بالتصدي لوالي الهادي للخلاص ممّا هم فيه من الأذى والرعب فوعدهم خيراً . وتصادف أن قدم جماعة من الشيعة إلى الحج في موسم سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م فبايعوا الحسين بن عليّ ووعدوه أن يكون موعد الخروج موسم الحج القادم ، وأن يكون شعارهم ((من رأى الجمل الأحمر)) . ولما بالغ والي المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله ، في الإساءة إليهم قرروا الخروج قبل الموعد المحدد . وكان بالمدينة جماعة من شيعة أهل الكوفة فانضموا إليهم وخرجوا في آخر الليل ودخلوا المسجد النبوي عند أذان

---

١) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٥٧-٢٥٨.

٢) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص١٩٠-١٩١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٧٤ .

الفجر ، وبايعوا الحسين بن علي علناً في ١٣ ذي القعدة سنة ١٦٩هـ/١٥ أغسطس ٧٨٦م[١].

فخرج قائد جند الحامية في المدينة فور سماعه بالخبر إلى المسجد النبوي فتصدى له يحي وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن ، وقتلاه فتفرق جنده وهرب الوالي ، فاتجه الثائرون بعد ذلك إلى السجون وأخرجوا من بها ونهبوا ما في بيت المال ، وأقام الحسين بن عليّ واتباعه في المدينة أحد عشر يوماً[٢].

وفي الواقع لم يشارك في أحداث هذه الحركة إلا عدد قليل من أهالي المدينة ، بينما آثر الباقون الحياد والاعتزال في بيوتهم ، ولم يبايعوا الحسين بن علي ، لمعرفتهم بأن هذه لن تكون بأفضل حالاً وتنظيماً من سابقاتها ، وأن نصيبها الفشل لفقدان عنصر التنظيم والعشوائية في ترتيب أحداثها ، فهم لم ينسوا ما سببته لهم ثورة النفس الزكية من حصار اقتصادي ، كما أزعجهم بدون شك اقتحام الثوار للمسجد النبوي ، واتخاذه قاعدة لهم وعدم مراعاة حرمته[٣].

بعد ذلك خرج الحسين بن علي وشيعته إلى مكة فوصلها في موسم الحج وانضم إليه بعض الحجاج والعبيْد . فلما علم الهادي بذلك جهز جيشاً جعل على قيادته محمد بن سليمان بن عليّ ، والتقى بالحسين بن عليّ بمكان بالقرب من مكة يقال له ((فخ)) يوم التروية ، واقتتلا قتالاً شديداً وقتل الحسين ومعظم اتباعه ، وسمي الحسين ((بقتيل فخ))[٤]. وكان من شدة وقع هذه المعركة على العلويين أن شبهت بموقعة كربلاء لكثرة القتلى . وقد فر من نجا

---

١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٤٥ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٠٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٩٢-١٩٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٧٥ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٩٤-١٩٥ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ١٩٦-١٩٨ .

منها إلى الأمصار البعيدة متخفين عن أنظار العباسيين ، ومن بين الفارين كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ، وأخيه يحي اللذين تمكنا من الهرب فتوجه إدريس إلى مصر ، ومنها إلى بلاد المغرب ، وأسس بها فيما بعد دولة الادارسة ، بينما هرب يحي إلى بلاد الديلم ودعا إلى نفسه فالتف حوله الأنصار إلا أنه قضي عليه في عهد الرشيد[١].

دور الوزراء في سياسة الهادي:

على الرغم من قصر عهد الهادي فقد لعب وزراؤه دوراً بارزاً في سياسته ، فلما تولى الربيع بن يونس الوزارة ، ضم له الهادي ديوان الزمام الذي كان عليه عمر بن بزيغ من أيام أبيه المهدي ؛ ليشرف على الإيرادات والمصروفات ويقيم الموازنة بينهما. ثم تولى الوزارة بعد الربيع بن يونس إبراهيم بن ذكوان الحراني ، الذي عينه المهدي مستشاراً لابنه الهادي عندما كان والياً على جرجان[٢]. ويظهر دور الحراني ووقوفه بجانب الهادي قبل تولي الأخير الخلافة ، وذلك عندما نصحه بالتمسك بحقه الشرعي وعدم الرضوخ لرغبة المهدي ، وأمه الخيزران بتقديم أخيه هارون عليه في ولاية العهد . وكان قريباً وملازماً للهادي لا يفارقه . وعندما علم المهدي بمدى تأثير الحراني على ابنه طلب منه أن يرسله إليه ، وهدده بالخلع من ولاية العهد إن لم يمتثل لأمره إلا أن المهدي توفي قبل أن يصله الحراني .

فلما تولى الهادي الخلافة استوزره ، وبذلك استمر الحراني ملازماً الهادي خلال خلافته ، ويبدو أنه لعب دوراً بارزاً في محاولة نقل ولاية العهد من هارون إلى جعفر ابن الهادي . كما كان له رأي في سياسة الهادي المالية لكونه كان مسؤولا عن بيت مال الخليفة والمتصرف في توزيع هباته ، وكان يراجع الذين يمنحهم الخليفة الأعطيات والهبات[٣].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٩٨-١٩٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٧٦ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٣٦ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٦٧ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٦٧-١٦٨ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٩٢ .

وفاة الهادي:

توفي الهادي في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ/ سبتمبر ٧٨٦م في بغداد وله من العمر ستة وعشرون عاماً . وكان في الموصل قبل وفاته وقد رجع منها عليلاً يعاني من شدة المرض[١]. وقد تعددت الروايات في سبب وفاته ، يذكر الطبري أن الهادي اعتل ومات من قرحة كانت في جوفه[٢]. بينما يذكر ابن طباطبا أن الخيزران خافت على ولدها هارون فقررت قتل الهادي وأوعزت إلى جواريها بخنقه وهو نائم[٣]. وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر .

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢١٣ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٥٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٠٥ .

٣) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٩١ .

الفصل الخامس

عصر التضاد والتيارات المتباينة

خلافة هارون الرشيد (هارون بن المهدي)

١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م

خلافة هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م

ولد هارون الرشيد بالري في خلافة جده المنصور في المحرم سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م ، وقيل سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م ، ويبدو أن الرأي الأول هو الأصح ؛ لأن أخاه الهادي ولد سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م . وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أخوه الهادي في ١٤ ربيع الأول ١٧٠هـ/سبتمبر ٧٨٦م ، وهو اليوم الذي ولد فيه ابنه المأمون . وقد عدّ ذلك اليوم من الأيام الطريفة في التاريخ ، لأنه شهد وفاة خليفة وولاية وولادة خليفة . واستمر هذا العصر مدة ٢٣ عاماً ، وشهرين و١٨ يوماً(١).

تمرس هارون على أمور الحكم وقيادة الجيوش في عهد أبيه ، وقاد عدة حملات عسكرية لبلاد الروم ، حقق فيها انتصارات عظيمة أكسبته شجاعة ومهارة في قيادة الحملات العسكرية . كما ولاه أبوه ولاية المغرب كله من الأنبار إلى أطراف أفريقيا ، أي الموصل والجزيرة وأذربيجان ، وأرمينيا والشام وأفريقيا فأكسبه ذلك مراناً إدارياً . واختار المهدي لتعليمه كبار العلماء أمثال الكسائي ، وأبي يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وعهد بتربيته وتنشئته إلي يحي بن خالد البرمكي فأحسن تربيته وزوده بنصحه وإرشاده . فنشأ الرشيد في محيط مترف ، محب للعلم ، والشعر ، والأدب ، والغناء فقرب إليه العلماء والفقهاء والشعراء والمغنيين(٢).

كان لهذه التربية والتنشئة أثر كبير في بلورة شخصية الرشيد وسلوكه فظهر حيناً بشخصية المحارب الشجاع ، وحيناً بشخصية الورع التقي الذي يصلي مائة ركعة في اليوم ويحج سنة ، ويغزو سنة ويتخذ قلنسوة كتب عليها غاز حاج(٣) ، ويستمع إلى الوعاظ والناصحين ويبكي من خشية الله ، وحيناً

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢١٢-٢١٣ ، ٢٣٠ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣١٥ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٦١ .

٢) ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٩٣ .

٣) الطبري ، تاريخ، ج٨ ، ص٣٢١ ؛ المسعودي ، التنبيه، ص٣١٥ ؛ ابن طباطبا ، الفخري، ص١٩٣.

بشخصية الأديب المتفقه في العلم ، وأحياناً أخرى بالمكثر في الترف والملذات والمتأنق في المأكل والمشرب ، فانعكس ذلك على عصره حتى جاز لنا أن نسميه ((عصر التضاد ، والمتناقضات ، والتيارات المتباينة)) ، كما جاز لكثير من المؤرخين بتسمية عصره ((بالعصر الذهبي)) .

إن التألق السياسي والعسكري والفكري والتطور الدبلوماسي الذي شهده عصر هارون الرشيد كان يحمل في طياته بداية عهد التفكك والانشقاق والتيارات السياسية المتنافرة ، والاتجاه سريعاً نحو حرب أهلية . فمنذ عهد الرشيد بدأت الدويلات المستقلة تتأسس في غرب الدولة ، نظراً لاتساع رقعة الدولة العباسية ، وعدم قدرة إدارة الرشيد في المحافظـــة على وحدتهـــا وتماسكها ، وهو أمر طبيعي لبعد مركز الخلافة ، واستحالة تطبيق النظام المركزي الذي سعى المنصور لإقامته .

ولإيضاح معنى التضاد والمتناقضات التي حملها عصر الرشيد لا بد لنا من تقديم دراسة عن السياسة الداخلية ، والعلاقات الخارجية ، والمنجزات الحضارية التي شهدها عصره .

أولاً: السياسة الداخلية:

دور البرامكة في السياسة الداخلية:

في حقيقة الأمر إن سياسة الرشيد الداخلية الإدارية منها ، والمالية مرت بمرحلتين مهمتين ، مرحلة ما قبل نكبة البرامكة ، ومرحلة ما بعدها . ونستشف ذلك من الروايات المختلفة التي دونت تاريخ خلافة هارون الرشيد من أن جميع الأمور التي كانت تجري باسمه في بداية عهده طبعت بطابع البرامكة ، فهم الذين كانوا يديرون أمور الدولة ، وهم الذين كانوا يحلون المشاكل وهم الذين يتصدون للأعمال في حين أن الرشيد حرر نفسه من جميع هذه المسؤوليات الإدارية ، وتسلم قيادة الجيوش البيزنطية[١].

---

١) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص٢٣٠-٣٠٢ .

وبما أن للبرامكة أثراً واضحاً وفعالاً في حياة هارون الرشيد وسياسته الإدارية والمالية ، لذا يتوجب علينا أن نلقي الضوء على أصول هذه الأسرة ونتتبع سيرة أعضائها ؛ للتعرف على أثر هذه الأسرة في سياسة هارون الرشيد الداخلية .

يرجع أصول البرامكة إلى بلاد الفرس ، وقد كانت لهم وجاهة قبل دخولهم الإسلام ، لأن جدهم برمك كان رئيس كهنة أو سدنة معبد قديم بالقرب من بلخ عند نهر جيحون يسمى النوبهار . وكان الموكل بسدنته يدعى ((البرموك)) ومن أجل ذلك سميت البرامكة[(١)].

وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك جد هذه الأسرة الذي لعب دوراً مهماً في النواحي الإدارية في عهد كل من السفاح وأبي جعفر المنصور ، وشيء من خلافة المهدي حتى توفي سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م . ولعل أشهر شخصية في أسرة البرامكة هي شخصية يحي بن خالد الذي عهد إليه المهدي بتربية ابنه هارون فقام بأداء هذه الرسالة خير قيام ، وظل بجانب هارون حاثاً إياه على التمسك بحقه في ولاية العهد ، وعدم الاستجابة لرغبة أخيه الهادي عندما أراد خلعه منها وظل يسانده حتى وصل إلى سدة الخلافة مزوداً إياه بالخبرات التي كانت تنقصه[(٢)].

إلى جانب ذلك كانت هناك عوامل أسرية وعاطفية تربط هارون بيحي وأسرته فقد رضع هارون من زوج يحي ، فأصبح أولاد يحي إخوته في الرضاعة . كما تربى وتهذب على يد يحي الذي كان يسهر على خدمته وراحته معرضاً حياته للخطر ، فنزل بذلك يحي من نفس هارون منزلة

---

١) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ص٣٢٢-٣٢٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٩٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٠٧-٣٠٨ ؛ انظر مقالة للكاتبة بعنوان: وزراء العصر العباسي الأول ، مجلة المؤرخ العربي ، ع٨ ، مج١ ، القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب (مارس ٢٠٠٠م) .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١٤٧ ، ٢٠٧-٢١٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٧٧ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٩٨ .

عظيمة حتى أنه كان يناديه بـ ((يا أبت)) . وقد عبر هارون عندما تولى الخلافة عن حفظه للجميل الذي أسداه له بقوله: ((يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته إليك فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، فإنني غير ناظر معك في شيء)) [١].

فأصبحت ليحي سلطة كادت أن تكون مطلقة ، فكانت له إدارة الدواوين كلها مع الوزارة ، وكانت الكتب التي تصدر من ديوان الخراج تصدر باسمه ، ولم تكن تصدر إلا عن الخليفة[٢]. وهي بدعة استنها الرشيد تجعل الوزير بمثابة النائب عن الخليفة .

وبينما كان اهتمام الرشيد منصباً على تأمين الحدود الشمالية مع البيزنطيين كان يحي يشرف على الأمور الداخلية ، ويستقل بالرأي تدريجياً عن الخليفة ، ويختار بنفسه معاونيه في الإدارة ، ويهيمن على كتاب الدواوين ويراقب أعمالهم في الدواوين المركزية[٣]. حتى قيل إنه ((كان بدار الرشيد من ولد يحي بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب قلم وسيف))[٤]. أما ولاة الأقاليم فكان يعينهم مكتفياً بأخذ الموافقة الشكلية من الخليفة ، كما حدث عندما ولى ابنيه الفضل وجعفر ، الأول على ولاية المشرق سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م والثاني على ولاية المغرب في العام نفسه . ويبدو أن هذا التعيين كان مدروساً ومخططاً له ، وذلك حتى تتمكن هذه الأسرة من المشاركة الكاملة في الحكم .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٣٠ ، ٢٣٣ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٧٧ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٣٥ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٧٧ ، ١٧٨ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٩٨ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٧٨ ، ١٨٩ ، ٢١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٩٩ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٩٨ .

٤) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندورة (مكة المكرمة: المكتبة التجارية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ، ج١ ، ص١٩ .

وقد جاء تعيين الفضل بن يحيى على المشرق ، وهي الجهات الواقعة غربي إيران (منطقة الجبال ، وطبرستان ، وأرمينيا ، وقومس ، وأذربيجان) بعدما التجأ إليها يحي بن عبد الله العلوي الذي فر من موقعة فخ ، وقام بثورته في بلاد الديلم سنة ١٧٥هـ/٧٩١م . وعندما نجح الفضل في إخماد هذه الثورة باللين ودون سفك دماء بعدما أقنع يحي بقبول الصلح ازدادت منزلته علواً لدى الرشيد[١]. وفي سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م أضيفت إلى ولايته خراسان من أجل تجنيد قوات جديدة[٢]. وقد استطاع الفضل خلال ولايته على المشرق أن يقوم بأداء مهمته خير قيام . وبفضل جهوده وسياساته الحكيمة وصلاته الواسعة نجح في إقناع أمراء المنطقة المحليين ، وجماعة من الدهاقين في تكوين الجند المطلوبين فاستطاع نتيجة لهذا التعاون أن يكون جيشاً عظيماً قوامه ٥٠,٠٠٠ ألف جندي أطلق عليه اسم ((العباسية)) أرسل منهم عشرين ألفاً إلى بغداد ، وأبقى الباقين في خراسان[٣]. ويبدو أن الفضل أراد أن يجعل من العشرين ألف جندي الذين أرسلهم إلى بغداد جيشاً خاصاً به وبأسرته ؛ ليحميهم ويأتمر بأمرهم وليقف في وجه الفئة الأخرى من الجند ، وهم الأبناء الذين عرفوا بعدائهم لسياسات البرامكة[٤].

ولقد أولى الفضل اهتماماً بالغاً لمنطقة خراسان والمشرق أثناء ولايته عليها فهو بالإضافة إلى تكوينه لجيش العباسية زاد رواتب الجند ، وبنى مساجد ورباطات كثيرة ، وحفر قناة بلخ ، وأمر بهدم معبد النوبهار ، فلم يقدر عليه لإحكام بنائه فهدم منه قطعة وبنى به مسجداً . كما أرسل حملة

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٤٢-٢٤٣ ، ٢٥٢ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٩٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٥٥ ، ٢٥٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٩٦ .

٣) يذكر الطبري ، أن عدد الجند بلغ ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف جندي ، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٥٧ .

٤) الأبناء هم أحفاد الخراسانيين الذين أتوا مع الجيش القادم من خراسان عند قيام الدولة العباسية .

- بمساعدة الدهاقين - لفتح بلاد كابل فافتتحها ، وغنم منها غنائم كثيرة وقاد حملة ضد مملكة أشروسنه . ومما يدل على عظم مكانة الفضل في خراسان أنه استطاع أن يعلن ولاية العهد لمحمد بن الرشيد ، ويلقبه (بالأمين) ، ويأخذ البيعة له من الخراسانيين قبل أن يتمكن الرشيد من فعل ذلك في بغداد[1]. وهذا يعني أن إعلان ولاية العهد للأمين تمت أولاً في المناطق الشرقية بحسن تدبير الفضل ، ومن ثمّ أعلنت البيعة في بغداد والمناطق الأخرى رسمياً رغم معارضة الكثير من الهاشميين .

وبهذا يتضح الدور السياسي والإداري الجاد الذي مارسه الفضل في البلاط العباسي ، وقد يرجع ذلك لطبيعته الجدية ، فقد أثر عنه أنه كان لا يشرب النبيذ ، وكان يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته[2].

أما جعفر بن يحيى فإنه لم يمارس عمله في ولايته على بلاد المغرب وإنما أرسل من ينوب عنه فيها ، وبقى هو في بغداد ملازماً الخليفة ، والمرة الوحيدة التي خرج فيها من بغداد لأداء مهمة رسمية كانت سنة ١٨٠هـ/٧٩٨م عندما أرسل إلى الشام لتهدئة العصبية القبلية التي هاجت وتفاقم أمرها ، فاستطاع جعفر أن يضع حداً للاضطرابات فسكنت الفتنة بعد أن أدب المتمردين ، ونزع السلاح من القبائل ، وأعاد الأمن إلى المنطقة[3].

اقتصر عمل جعفر فيما يبدو على ملازمة الرشيد لسماحة أخلاقه فكان لا يفارقه أبداً . ولعل إيثار الرشيد له وثقته به جعلته أكثر البرامكة نفوذاً ، فقد أشركه الرشيد معه في كثير من المهام الخاصة ، التي تعد من واجبات الخليفة الرئيسة ، كالنظر في المظالم ، والإشراف على البريد ، ودور الضرب وصك

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٤٠ ، ٢٥٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ، ص٩٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٩٣ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٩٤ .

٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٤١٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٥٢ ، ٢٦٢-٢٦٣ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص١٩٠ ، ٢٠٨ .

العملة ، والطرز في جميع المناطق ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى أن يظهر اسم جعفر مكتوباً على جميع القطع النقدية في المشرق والمغرب[١]. وقد ذكر أنه فصل في يوم واحد عندما كان يجلس للمظالم ألف قضية خاصة ، وقع عليها ، ولم يخرج في شيء منها عن أحكام الفقه ، ولم تكن أي واحدة منها ضد العدالة[٢].

كذلك عهد الرشيد إليه بتربية وتأديب ابنه عبد الله المأمون ، فتمكن بذلك جعفر من الحصول على الوصاية على المأمون ، وأشار على الرشيد بتوليته العهد بعد أخيه الأمين ، وكان له دور في تثبيت حق المأمون وكتابة العهد وتعليقه في جوف الكعبة[٣].

سياسة البرامكة المالية:

على أن أهم ما يميز سياسة يحي وأبنائه هي سياستهم المالية ، فقد اتسمت هذه السياسة بدقة شديدة لا تنظر إلا في مصالح الخزينة المركزية التي امتلأت بثروات ضخمة لا تقدر بثمن . ولعل أكبر دليل على نجاح سياستهم المالية ، وملئ خزينة الدولة بالأموال الطائلة ما أورده الجهشياري في كتابه الوزراء من قائمة بهذه الأموال[٤].

لقد اتبع البرامكة أساليب صارمة في جمع الضرائب لتعويض ما لحق بالخزينة من خسائر أيام المهدي . وإن كانت في أحيان كثيرة تجمع بطرق تعسفية غير شرعية . ففي بداية وزارة يحي فرضت ضريبة العشور الإسلامية على معتنقي الإسلام في السواد إضافة إلى ما كانوا يدفعونه بناء على نظام المقاسمة الذي عمل به في أيام المهدي ، ولما كان ذلك بمثابة عقوبة على

---

١) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٠٤ .

٢) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٠٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٢٩ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢١١ .

٤) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٨١-٢٨٨ .

اعتناق الإسلام فإنه سرعان ما أبطل[1]. ومن أساليبهم المتشددة في جمع الضرائب أنهم كانوا يطالبون الناس بدفع الضريبة كاملة مع جميع المتأخرات ((البقايا)) ، فتولى مطالبتهم في دار السلام عبد الله بن الهيثم الذي لم يتوان عن استخدام القوة التي تصل أحياناً إلى التعذيب لإجبارهم على دفع الضرائب أو البقايا ، كما عينوا من أجل ذلك في جميع الولايات موظفين للقيام بهــذه المهمة[2].

وفي الموصل استطاع يحي بن سعيد الحرش تحصيل جميع المتأخرات إلى جانب الضرائب ، التي فرضت على الدواجن والماشية ، فبلغت ستة ملايين درهم[3]. وفي أذربيجان التي تم إعفاء أهلها من دفع الضريبة على أراضيهم تشجيعاً لهم للاستيطان في المناطق الحدودية صاروا يطالبون من قبل عمال البرامكة بدفع هذه الضريبة[4]. وطالت هذه الإجراءات المشددة شمال أفريقيا فلم ينج أهلها من صرامة البرامكة وموظفيهم . ففي برقة جرى مسح على الأراضي المنتجة للزيتون ، ووضع تقدير جديد يقوم على فرض مبلغ إضافي ، كذلك نفذ بدقة جمع الضرائب على الدواجن والماشية[5].

ومن أجــل ضمان ولاء أفريقــيا عين البرامــكة هرثــمة بن أعــين واليــاً عليها . وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التي ارتبطت برباط وثيق مع البرامكة ، وجعلوا تحت قيادته عدداً من جند العباسية ، الذين كان الفضل بن يحي قد جندهم من الشرق فوصلها سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م ، وعمل على تهدئة الأوضاع بها . فلمــا بلــغ طرابلس أعطى جندهم أرزاقهم الفائتة وعمل مثل ذلك في القــيروان . وبعد أن استــقرت الأوضــاع فــي أفريقــيا رجــع هرثمــة إلى

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٣٦ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤١٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٧٢ .

٣) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٨٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٠٣ .

٤) M. A. Shaban, Islamic History, (Combrige: Univ. Press *1976*)Vol. II, P. 34.

٥) M. A. Shaban, Islamic History, Vol. II, P. 35.

العراق سنة ١٨١هـ/٧٩٥م فاستخلفه جعفر بن يحي على الحرس[١].

اضطربت الأوضاع في أفريقيا بعد عودة هرثمة ووجدت حكومة بغداد صعوبة في الاحتفاظ بها وحكمها حكماً مباشراً بسبب المنافسات بين القوات المجندة من البربر والعرب في المنطقة من جهة ، والقوات الخراسانية من جهة وتوسعات إدريس بن عبد الله العلوي الذي أراد فرض سلطانه على المغرب كله من جهة أخرى[٢]. فقرر الرشيد ووزراؤه البرامكة إبقاء جند العباسية الذين تركهم هرثمة هناك بصورة دائمة ، وتعيين إبراهيم بن الأغلب والياً عليها والاعتراف به أميراً مستقلاً استقلالاً ذاتياً على شرط أن تُعفى ولاية أفريقيا عن المعونة المالية التي كانت تدفع من مصر وتقدر بنحو مائة ألف دينار سنوياً ، وأن يدفع إبراهيم بن الأغلب مقابل ذلك أربعين ألف دينار سنوياً إلى خزينة الدولة في بغداد[٣]. وكان هذا الإجراء بدون شك كسباً جديداً لخزينة الدولة .

وبينما انتهج البرامكة سياسة شديدة في جمع الضرائب في جميع أنحاء الدولة في عهد الرشيد نراهم يتعاطفون مع أهل المشرق خاصة في جمع الضرائب. فالفضل بن يحي لكي ينجح في تجنيد القوات العسكرية التي عرفت باسم ((العباسية)) زاد في أُعطيات الجند والقادة ، ووصل الكتّاب بعشرة آلاف درهم . ولكنه عندما وجد أن هذه العطاءات التي بذلها للجند والقواد والكتاب غير كافية عمل على إحراق دفاتر البقايا والسجلات ، حتى لا يطالبوا بمتأخرات الضرائب[٤].

وهكذا أدت سياسة البرامكة المالية المميزة إلى امتلاء خزينة الدولة بالأموال ، ورفع ذلك من شأنهم في نظر الرشيد . وكما عمل البرامكة على

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٩٦ ، ١٠٣-١٠٤ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٩٥ ، ١٠٤ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٠٤ .

٤) الجهشياري ، الوزراء ، ص١٩١ .

ملئ خزينة الدولة عملوا أيضاً على ملئ خزينة الرشيد الخاصة ، وذلك عن طريق مصادرة الأراضي المهجورة التي غادرها أصحابها بسبب عبء الضرائب والأراضي التي مات عنها أصحابها بدون ورثة ، وأراضي بني أمية حتى تعدى ذلك ممتلكات بعض أفراد العائلة العباسية التي مات عنها أصحابها صادروها وأضافوها إلى خزائن الرشيد وعائلته[١].

إلى جانب ذلك خص البرامكة أنفسهم بثروات هائلة ، ولم يحرموا أنفسهم ولا أصحابهم من هذا النشاط لابتزاز الأموال ، فهم يمتلكون أحسن البقاع وأجمل الأبنية ، وهذا جعفر يعمر قصراً في بغداد أنفق عليه أموالاً طائلة تقدر بعشرين مليون درهم[٢]. وذكر أنه كانت لديه بركة في داره أخفى فيها أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مائة دينار ودينار[٣]. وقد بلغت واردات البرامكة السنوية من الأموال ثلاثين مليوناً وستمائة وستين ألف دينار غير ضياعهم ودورهم[٤]. وعن طريق هذه الثروات الضخمة التي حصلوا عليها استطاعوا أن يكونوا علاقات ممتازة مع الخاصة والعامة ، وذوي الحاجات عن طريق الهبات والأعطيات التي كانــوا يعطونها بسخاء حتى كثر على أبوابهم أصحاب الحاجات وتغنى بهم الشعراء . والظاهر أن علاقاتهم الجيدة مع الخاصة والعامة هي التي حدت من انتقادات الجماهير لهم ولأعمالهم .

نهاية البرامكة:

وهكذا ظلت أسرة البرامكة تدبر أمور الدولة وتحتل المنزلـــــة الرفيعة

---

١) البلاذري ، فتوح ، ص١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٣٧ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٨٧ ؛ M. A. Shaban, Islamic History, Vol. II, P. 36.

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ٢٩١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٤٤ ؛ الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان ، (بيروت: دار الفكر ، د.ت) ، ج٢ ، ص١٢٨ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٤١ .

٤) اليوزبكي ، توفيق ، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية (بغداد: مطبعة الإرشاد ، ١٣٧٠هـ/١٩٧٠م) ، ص٧٦ .

لدى الرشيد لمدة سبعة عشر عاماً ، وإن تفاوتت هذه المنزلة في هذه المدة ، حتى حصل الانقلاب الخطير في سياسة الرشيد تجاههم فأمر بقتل جعفر في صفر سنة ١٨٧هـ/فبراير ٨٠٣م ، وسجن يحي والفضل وصادر أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق(١). وعلى الرغم من أننا لا نعرف تفاصيل الوضع الذي أدى إلى هذا الانقلاب ؛ لأن الرشيد نفسه لم يفصح عن سرّ ذلك الانقلاب فأفسح بذلك المجال أمام الرواة والمؤرخين ، ومن تعرض لتاريخ هذه الأسرة بأن يؤولوها بتأويلات وصور مختلفة . فردها بعضهم إلى أسباب شخصية وإلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان ، ورده آخرون إلى ممالئتهم أعداءهم العلويين .

فقد اتهم البرامكة بأن لهم ميولاً علوية فهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحة الرشيد ، وهي تهمة عند العباسيين أشد من تهمة الزندقة التي أودت بحياة ابن وزير المهدي . وهي تهمة بالطبع تشكل خطراً جسيماً على سلامة الدولة . وقد استغلت حادثة إطلاق جعفر البرمكي سراح الثائر يحي بن عبد الله العلوي أسوأ استغلال من قبل أعداء البرامكة . وهناك عدد من الروايات التي تحاول إثبات انحياز البرامكة إلى العلويين ، وأنهم يفضلون أن يعتلي عرش الخلافة واحد منهم(٢). وهي روايات يصعب على الباحث المدقق تصديقها ؛ لأن البرامكة لم يكونوا لينالوا تلك المنزلة الرفيعة التي حصلوا عليها في عهد الرشيد لو تولى أحد العلويين عرش الخلافة .

ويمكن القول بأن موقف البرامكة المتميز بالمرونة والعطف تجاه العلويين كان يتماشى تماماً مع المناخ الفكري والسياسي في أواخر عهد الرشيد ، الذي كان يمثله حلقات المثقفين ويشجعه البرامكة بعقدهم الندوات

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٢١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٨٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٧٧ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٣٤-٢٣٥ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٧٧ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١١٤ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج١ ، ١٩٨ .

والاجتماعات لسماع الآراء والمناقشات الفكرية المختلفة ، ذلك المناخ الذي تميز بالتسامح والمرونة تجاه العلويين[1].

وفي الحقيقة أن تداخل الروايات في الأسباب التي أدت إلى نكبة البرامكة واختلاف المؤرخين الثقاة أنفسهم عن معرفة أسبابها ، وتكتم الرشيد نفسه ، وتعليقه على هذه الحادثة بقوله ((لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها))[2] وقوله ((لو علم به زر قميصي رميت به في الفرات))[3] تجعلنا نميل إلى رواية ابن خلكـــان التي مفادها أن طول مدة بقاء البرامكة في السلطة هي أحد أهم أسباب نكبتهم ؛ لأن كل طويل مملول[4]. وهذه الرواية تعضدها قولة يحي البرمكي نفسه عندما شعر بتغير الرشيد وذمه له: (إن المـــدة إذا أذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوئ ، ومن أراد أن يتجنى قدرا نسأله حسن الاختيار))[5]. هذا بالتأكيد إلى جانب الضغوط التي مارســـها الوشـــاة لتغـــير سيـــاسة الرشـــيد تجـــاههم . فقد ساء هذه الفئة – وعلى رأســـها الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ، وكاتبهم إسماعيل بن صـــبيح ، وعدد من قـــادة الأبناء أمـــثال علـــيّ بن عيـــسى بن ماهان وبني قحطبة – ازديـــاد نفـــوذ البرامكـــة وطـــول بقائهم في السلطة فأظـــهروا مساوئهـــم وستـــروا محاسنهم[6]. ولقد لقي ذلك هوى في نفس الرشيـــد

---

١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٧٧ ؛ فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي (بيروت: دار القلم ، ١٩٧٧م) ، ص١٣٠-١٣٢ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٢٢ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٩٨ .

٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٣٥ ؛ وقد ذكر الجهشياري عن عبد الله بن يحي بن خاقان أنه قال: سألت مسروراً عن سبب قتل الرشيد لجعفر فقال: إنه من ملل موالينا وحسدهم ، كتاب الورزاء ، ص٢٥٤ .

٥) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٢٦ .

٦) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٤٩-٢٥٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٣٠ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٠٩ .

الذي بدأ يشعر شعوراً مماثلاً تجاه هذه الأسرة ، خاصة بعد تنامي نفوذ جعفر بن يحي[١].

تولى أمور بلاط الرشيد بعد نكبة البرامكة الفضل بن الربيع ، وقد حاول الفضل قدر المستطاع أن ينال مركزاً أو حظوة كتلك التي نالها البرامكة ولكن دون جدوى ، فهو لم يكن يمثل كرم البرامكة وذكاءهم ، ولا سعة نفوذهم ولا حسن تدبيرهم[٢]. ولا شك أن القضاء على هذه الأسرة كان خسارة على الدولة العباسية وخاصة من ناحية النظم الإدارية . فقد أورد المؤرخون روايات عديدة عن الفراغ الذي تركه البرامكة بعد القضاء عليهم ، وقد عقد بعضهم مقارنة بين ما كانت عليه الإدارة في عهدهم ، وما أصبحت عليه في عهد سلفهم الفضل بن الربيع . وفي هذا الصدد ذكر الجهشياري أنه لما أوقع الرشيد بالبرامكة اختلت الأمور ، وقعد الفضل بن الربيع لحفظ خدمة الرشيد في حضرته ، وأضاع ما وراء بابه ، وأهمل أمور البريد ، حتى أن الرشيد توفي ، وفي ديوان البريد أربعة آلاف خريطة لم تفض[٣]. والسبب في ذلك يرجع إلى عدم كفاءة أكثر الموظفين الذين عينهم الرشيد في المناصب . فمثلاً كان مسرور الخادم وثابت الخادم هما المسؤولان عن البريد والخرائط . وقد ندم الرشيد على إيقاعه بالبرامكة ، لما رآه من إهمال عماله وموظفيه الذين لم يستطيعوا سد ما تركه البرامكة من فراغ في جميع مناحي الدولة. وأثر عنه قوله ((لا آمن الله من أغراني بقتل البرامكة ، ما رأيت رخاء بعدهم، ولا وجدت لذة ، ولا راحة)) وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء نيتهم لأعادهم إلى مناصبهم وإلى مكانتهم التي كانوا عليها. وكان يقول: ((حملونا

---

١) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٦٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٣٥ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٠٩ .

٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٧ .

٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٦٥ .

على نصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنا شيئاً))[١].

وهناك روايات تؤيد اختلال أمور الرشيد بعد نكبة البرامكة ، منها ما ذكره المسعودي ((بأن الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة غلب عليه الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح إلى أن مات واختلت أموره وبان للناس قبح تدبيره ، وسوء سياسته))[٢].

وهكذا نرى أن الفضل بن الربيع شغل المكانة الأولى في بلاط الرشيد بعد اختفاء البرامكة عن المسرح السياسي ، وبعد موت الرشيد أصبح من أبرز شخصيات حزب الأمين في الفتنة التي حصلت بينه وبين أخيه المأمون وعينه الأمين وزيراً له .

الحركات المعارضة لحكم الرشيد:

ظهور الخوارج في إقليم الجزيرة:

برزت في عهد الرشـيد عـدة حركات للخوارج في إقليم الجزيرة الذي كان مسرحاً لنشاطهم ، ومن هذه الحركات حركة صحصح الخارجي والفضل الخارجي ، والعطاف بن سفيان الشاري ، وقد أنكر هؤلاء على الخلفاء العباسيين خروجهم على بعض الأحكام الشرعية واستبداد ولاتهم . وكان من أعظم حركات الخوارج في عهد الرشيد الحركة التي تزعمها الوليد بن طريف الشاري سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م ، واتخذ من نصيبين مقراً له وتمكن من الانتصار على جيوش الخلافة ، وسار إلى أرمينية وبسط هيمنته عليها . كما سيطر على أذربيجان وجبى المال من مدنها ، فكثر مؤيدوه وازداد اتباعه فأصبح خطراً يهدد سلامة الدولة العباسية ، خاصة عندما وصلت قواته إلى حلوان وصار يهدد السواد .

---

١) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٥٨ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٢٨ .

٢) المسعودي ، التنبية ، ص٣١٥ .

اهتم الرشيد بأمر هذه الجماعة مدركاً خطورتها فاختار لقيادة حملته قائداً شيبانياً من خيرة قواده هو يزيد بن مزيد ؛ الذي عرف ببطولاته في حروبه ضد الخوارج ، فأخذ يراوغ الوليد بن طريف ، وطالت مدة المعركة ، ولم يحرز يزيد نصراً يذكر على الوليد ، فاتهم البرامكة يزيد بأنه متواطئ مع الوليد لصلة الرحم التي تربط بينهما . فغضب الرشيد وبعث برسالة إلى يزيد جاء فيها: ((إني لو وجهت خادماً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين)) فلقي يزيد الوليد في حديثة الفرات بالقرب من الأنبار ، وتمكن من قتل الوليد في مبارزة فردية سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م ، وبعث برأسه إلى الرشيد . فاعتمر الرشيد في هذه السنة شكراً لله على تمكنه من القضاء على حركة الوليد[١].

الاضطرابات في المشرق:

اضطرب الوضع في المشرق بعد عزل الفضل بن يحي البرمكي وتولية عليّ بن عيسى بن ماهان ، أحد قادة الأبناء عليها . فشهدت خراسان اضطرابات ، وفتناً كثيرة ، منها ثورة قام بها رجل يعرف بابن الخصيب بمدينة نسا سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م ، وكان من أعند ما لقي عليّ بن عيسى من المناوئين . وبعد عام من المناوشات بين الطرفين طلب ابن الخصيب الأمان فأجابه عليّ وأكرمه . إلا أن ابن الخصيب عاد ونقض العهد وخرج مرة أخرى بنسا ، واستولى عليها ، وعلى أبيورد ، وطوس ، ونيسابور ، وحاصر مرو وعندما لم يقدر عليها زحف على سرخس ، واشتد أمره لمدة عامين . فخرج له عليّ بن عيسى وكرس جهده في طلبه حتى ظفر به وقتله وسبى

١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٥١-٤٥٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٥٨ ، ٢٦١ ؛ ابن كثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٩٧ .

نساءه ، وقضى على حركته سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م(١).

ويبدو أن عدم تدقيق الرشيد في محاسبة واليه عليّ بن عيسى ، وإطلاق يده في خراسان كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى عدم استقرار المنطقة أثناء ولايته . وقد عرف عليّ بسوء سيرته وجوره في جمع الضرائب واستخفافه بأهالي خراسان . فكثرت الشكوى منه وطالب الأهالي الرشيد بعزله ، فخرج الرشيد بنفسه إلى خراسان سنة ١٨٩هـ/٨٠٥م ليتحقق من الأمر . وعندما علم عليّ بن عيسى بخروج الرشيد سارع لمقابلته محملاً بالهدايا والأموال والطرف الثمينة . كما أهدى إلى جميع من كان معه من القواد وأهل بيته وخدمه كل على قدر مرتبته . وبذلك أرضى الخليفة وأقنعه بالرجوع(٢).

وبعد فترة قصيرة من رجوع الرشيد انتفض رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند على حكومة الرشيد لأسباب شخصيه ، فالتف حوله كثير من أبناء سمرقند وأيدوه في ثورته ، وانضم إليه أهل فرغانة ، واشروسنة ، وبخارى ، وخوارزم ، وأيده حاكم الشاش والترك . وعندما علم أهالي خراسان بثورته أعلنوا تأييدهم له ، وهاجموا منزل عليّ بن عيسى ، ونهبوا ما به من أموال بسبب كراهيتهم لسياسته وقتلوا ابنه عيسى(٣).

وقد حاول عليّ بن عيسى قمع هذه الانتفاضة إلا أنه فشل ، عندها أدرك الرشيد سوء سياسة علي فأرسل هرثمة بن أعين على رأس جيش قوامه أربعة آلاف جندي ، ومعه كتاب عزل عليّ بن عيسى وتولية هرثمة على خراسان . فدخل هرثمة إلى دار الإمارة وقبض على عليّ وبعث به إلى

---

١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٥٧ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٣٠٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٠٨ ، ١١٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣١٤ –٣١٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٢١ .

٣) الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص٣١٩–٣٢٠ ، ٣٢٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٢٢ ، ١٢٧.

الرشيد الذي أمر بسجنه . وتمكن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث أخي رافع ، وأرسله إلى الرشيد ، إلا أنه لم يتمكن من القبض على رافع(١).

ويبدو أن رافع استغل الأوضاع القلقة في خراسان واستمر في انتفاضته ومعاداته للحكومة المركزية , فاضطر الرشيد إلى الخروج إليه بنفسه على الرغم من مرضه لإصلاح الأوضاع في الشرق ، إلا أن المنية وافته وهو بطوس في طريقه لمحاربة رافع ودفن بها . واستمرت انتفاضة رافع حتى سنة ١٩٥هـ/٨١١م حيث سلم نفسه إلى المأمون(٢).

سياسة الرشيد الخارجية:

العلاقات مع البيزنطيين:

في خلال فترة خلافته الأولى اهتم الرشيد باستكمال تحصينات منطقة الحدود . فوجد أن الخط الدفاعي في المناطق الشمالية على الحدود التي عرفت باسم الثغور لمواجهتها الثغرات أو المنافذ في أرض العدو ، لا تؤدي دورها المطلوب في حماية الأراضي الإسلامية خاصة بعد أن انخرط المرابطون بها في الأعمال التجارية والاهتمام بزراعة أراضيهم التي منحتها لهم السلطات في أوقات السلم . فقرر أن ينشئ خطاً دفاعياً جديداً يمتد على المنحدرات الجنوبية لجبال طوروس في خط يمتد بصورة عامة بين طوروس ، وحلب ، عبارة عن سلسلة من المواقع الدفاعية الداخلية الجنوبية عرفت باسم العواصم ؛ لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وجعل قاعدتها مدينة منبج وعين عليها عبد الملك بن صالح(٣).

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٢٣-٣٣٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٢٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٣٩ ، ٣٤١-٣٤٢ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٢٧ ، ١٢٩ .

٣) قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، ص٢٥٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٣٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٦٥ .

ثم أمر فرج الخادم التركي بإعادة تحصين طرسوس فعمرها ونقل إليها ثلاثة آلاف جندي من الخراسانية ، وثلاثة آلاف جندي ممن سرحوا من جنود أنطاكيا والمصيصة مع زيادة أُعطياتهم بمبلغ قدر بنحو عشرة دنانير ، وأقطعهم أراضي للسكنى ، وليس لاستثمارها في الزراعة أو غير ذلك حتى لا ينشغل الجند عن عملهم الأساسي وهو الجندية(١).

كما أمر في سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م بتجديد بناء مدينة ((عين زربة)) وتحصينها وزاد في أُعطيات المجندين بها ، وأقطعهم الإقطاعات للسكنى أيضاً(٢). وفي سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م بنى مدينة الهارونية التي نسبت إليه وشحنها بالمقاتلين كما أمر ببناء مدينة الكنيسة السوداء ، وكانت ذات حصن رومي قديم فأعاد بناءها وشحنها بالمقاتلة وبنى أيضاً حصن زبطرة(٣). وأنفق على بناء هذه الحصون الكثير من الأموال حتى تكون على أهبة الاستعداد للدفاع .

ونظراً لاهتمامه الشديد بالجبهة البيزنطية اتخذ من الرقة قاعدة له حتى يكون قريباً من مسرح العمليات الحربية ، وعلى اطلاع دائم بما يجري من أحداث على الحدود . وأيضاً ليبتعد عن بغداد مركز القوات الخراسانية الذين انغمسوا في الحياة العامة ، وأصبحوا عبئاً ثقيلاً على الدولة . وهو السبب الذي من أجله ذهب الفضل بن يحي البرمكي إلى خراسان لتجنيد أكبر عدد ممكن من جند المشرق ، الذين عرفوا فيما بعد باسم العباسية أو المشارقة .

بعد الانتهاء من تحصين منطقة العواصم خلال أربع السنوات الأولى من عهد الرشيد بدأت المصادمات الحربية المتبادلة على الحدود . ففي سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م خرج عبد الملك بن صالح من قاعدته منبج بعد أن جمع ما

---

١) البلاذري ، فتوح ، ص١٧٤ ؛ الطبري ، ج٨ ، ص٢٣٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٨٣ .
٢) البلاذري ، فتوح ، ص١٧٥ .
٣) البلاذري ، فتوح ، ص١٧٥ ؛ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص١١٣ .

يكفيه من الجند السوريين فتوغل في بلد الروم ؛ إلا أن البرد الشديد منعهم من إحراز نصر يذكر[١]. واستئنفت بعد ذلك الصوائف التي كانت أشبه بحملات عسكرية فغزا عبد الرزاق بن عبد الحميد الثعلبي الصائفة سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م . وفي السنة التالية غزا بالصائفة معاوية زفر بن عاصم[٢]. وفي سنة ١٨١هـ/٧٩٧م غزا الرشيد بنفسه أرض البيزنطيين وفتح حصن الصفصاف ، وغنم غنائم طائلة وعاد سالماً . وفي نفس العام خرج عبد الملك بن صالح إلى أرض الروم فبلغ أنقرة وفتح حصن مطمورة . كما حصل فداء بين البيزنطيين وبين العباسيين وكان القاسم بن الرشيد هو المتولي أمر الفداء ، وكان عدد الأسرى ٣٧٠٠ أسير[٣]. والواضح من خروج الصوائف المتتالية أن هارون الرشيد استغل الأوضاع الداخلية السيئة التي كانت تمر بها الدولة البيزنطية منذ أن تولت إيرين أرملة ليو الرابع الوصاية على ابنها قسطنطين السادس ، وقيام الفتن والثورات ضدها ، حتى أنها اضطرت إلى مهادنة المسلمين سنة ١٨٣هـ/٧٩٨م والتفرغ لقتال شارلمان الذي كان يهدد ملكها ودفعت لهم جزية سنوية قدرها تسعون ألف دينار ، فوافق الرشيد واشترط عليها أن تفتح الأسواق للمسلمين على طريق العودة وأن تمد الجيش بالأدلاء . وعم بعد عقد الهدنة الرخاء الاقتصادي في الأراضي الإسلامية نتيجة لحصول السلم ونشاط التبادل التجاري حتى بيع البغل بأقل من عشرة دراهم[٤].

إلا أن هذه الهدنة لم تستمر أكثر من ٣٢ شهراً ، إذ نقضها نقفور الذي تولى العرش بعد أن قاد حركة انقلاب عسكري ضد إيرين سنة ١٨٦هـ/

---

١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص٤٤٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٣٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٨٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٥٥ ، ٢٦٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٩٦ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٦٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٠٥-١٠٦ .

٤) أمينة البيطار ، دراسات في تاريخ الخلافة العباسية (الرياض: مكتبة دار القلم ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ، ص٢٤٧-٢٤٩ .

٩٠٢م[١] ، وأرسل إلى الرشيد في العام الذي يليه كتاباً نقض فيه الهدنة وألح في طلب الجزية التي دفعتها إليه إيرين قائلاً: ((من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك ، وإلا فالسيف بيننـــا وبينك)) [٢].

فلما قرأ الرشيد الرسالة اشتط غضباً ، ورد عليه برسالته الشهيرة ((بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام)) . وكانت ردة فعل الرشيد سريعة إذ قاد حملة كبيرة في العام نفسه ، وتوغل في داخل الأراضي البيزنطية ونزل على مدينة هرقلة ، واشتد في تخريبها وغنم منها غنائم كثيرة . فوجد نقفور نفسه عاجزاً عن التصدي له فطلب الصلح على أن يؤدي خراجاً سنوياً له[٣].

إلا أن نقفور نقض العـــهد مرة اخرى وهاجم في عام ١٩٠هـ/ ٨٠٦م عين زربة والكنيسة السوداء وأدنة ، وضيق على مرعش إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً فخرج الرشـــيد إلى المنـــاطق الحـــدودية للتشـــفي والانتقام وبعث الجيوش والسرايا إلى داخل الأراضي البيزنطية بقيادة كبار قادته أمثال شراحبيل بن معن بن زائدة ، وداود بن عيسى بن موسى ، ويزيد بن مخلد فهزمت جيوش البيزنطيين ودمرت قلاعهم . ولـــما شعـــر نقفـــور بعـــجزه عـــن صـــد المسلمـــين أرســـل في طلب الصلح وتعهد بدفع الجزية عن رأسه ، وولي عهده وسائر أهل بلده خمســـين ألف ديـــنار منها عن رأسه أربـــعة دنانير ، وعن رأس ابنه دينارين .

١) أمينة البطار ، دراسات في تاريخ الخلافة ، ص٢٤٩ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٠٧-٣٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١١٨ .
٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١١٨ .

كما تعهد بألا يعيد ترميم الحصون التي دمرها الرشيد . ولم يكن لنقفور غير طلب واحد هو استرداد فتاة رومية من هرقلة كان قد خطبها لابنه فأجابه الرشيد إلى ذلك ، ثم انصرف إلى الرقة(١).

ينتقد كثير من المؤرخين المحدثين سياسة هارون الرشيد العسكرية تجاه البيزنطيين فهو لم يحاول توجيه ضربة قاضية للبيزنطيين تدحرهم بعيداً عن منطقة حدوده ، واكتفى بإملاء الشروط وأخذ الجزية . في حين أن الأحداث العسكرية أثبتت تفوق جنده وحضوره حضوراً قوياً على الأراضي البيزنطية.

ويبدو أن الرشيد كان يدرك تماماً أنه من الصعب أن يستمر تماسك وحدة الأراضي الإسلامية ، التي امتدت إلى أطراف بعيدة في المشـــرق والمغرب ، وما يسببه ذلك الاتساع في رقعة الدولة الإسلامية من المشاكل والاضطرابات التي يصعب السيطرة عليها ؛ لذلك شعر بأنه غنى عن أن يزيد مشاكله بزيادة امتلاك أراض جديدة .

وفي عهده أيضاً غزا الأسطول الإسلامي الكامن في البحر المتوسط الجزر القريبة مثل جزيرة قبرص بقيادة معيوف بن يحي سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م وكذلك جزيرة كريت(٢).

تطور العلاقات الدبلوماسية مع الفرنجة:

تعرف الدبلوماسيـــة بأنـــها علاقـــات سلـــمية رسمـــية بـــين الدول تتضمن عناصر ومقومات ومهام أساسية ؛ منـــها إرســـال الســـفراء والمبعـــوثين أو الرسل وما يتمتعون به من الامتيازات والحصانة لـــدى الـــدول الأخـــرى ، و((البروتوكول)) الخاص باستقبالهم ، وكذلك ما يقومـــون بـــه من أعمال ومهام .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٢٠-٣٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٢٢-١٢٣ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج١ ، ص٢٠٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٢٣ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج١ ، ص٢٠٠ .

كما تشمل الدبلوماسية المراسلات والمفاوضات وعقد الاتفاقيات والمعاهدات . ومن الوسائل الدبلوماسية الضغط والتهديد وتكوين الأحلاف والمحـــاور السياسية[1]. وعلى ضوء هذا التعريف يمكننا مناقشة العلاقات السلمية بين دولة هارون الرشيد ، ودولة شارلمان المنحدرة من الأسرة الكارولنجية . وهل هذه العلاقات هي علاقات دبلوماسية بالمعنى الحقيقي للكلمة ، أم أنها لم تتعد الصلات التجارية والمجاملات وتبادل الهدايا ؟

في حقيـــقة الأمـــر أن تفاصيل هذه العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العباسية في عهد الرشيد وبين دولة الفرنجة الكارولنجية في عهد شارلمان لا يمكن اعتبارها حقيقة مسلماً بها ، لأن المصادر الإسلامية التي بين أيدينا أغفلت تماماً الحديث عنها ، ولم تشر إليها . وقد اعتمد المؤرخون المحدثون عند مناقشتهم هذه العلاقات على المعلومات في المصادر الأوربية الغربية المستمدة من ثلاثة مصادر لاتينية ، وهي الأخبار الملكية الفرنجية وسيرة الإمبراطور شارلمان لاينهارد ، وما كتبه راهب القديس جـــال[2].

واستناداً إلى هذه المصادر فقد تبودلت عدة سفارات بين الجانبين كانت أولاها سنة ١٨١هـــ/٧٩٧م عندما أرسل شارلمان سفارته المكونة من اثنين من الفرنجة وتاجر يهودي يدعى (إسحاق) تولى عملية الترجمة ، الغرض منها طلب فيل من الرشيد[3].

وفي الحقيقة نحن لسنا بصدد مناقشة أهداف هذه السفارات والغرض من قيامها ولا الحديث عن دوافع كل من العاهلين لإرسالها . فقد أسهب المؤرخون المحدثون في الحديث عنها وحملوها أكثر مما تحتمل ، وصبغوا عليها صبغـــة

---

١) عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية ، الإسلامية (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٦م) ، ص١٩ .

٢) أنظر: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة ، للدكتور سليمان الرحيلي (الرياض: دار الهدى للنشر ، د:ت) .

٣) سليمان الرحيلي ، العلاقات السياسية ، ص٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ .

التحالف السياسي ، وهو أن شارلمان أراد من وراء هذا التحالف أن يضعف من نفوذ منافسه إمبراطور الدولة البيزنطية ، بينما استغل الرشيد هذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين ، والأمويين في الأندلس على السواء .

ونظراً لعدم معرفة النوايا الحقيقية والغرض الفعلي من إرسال هذه البعوث وسكوت المصادر الإسلامية عنها ، وعدم مطابقتها في رأي لما يعنيه مصطلح الدبلوماسية في الوقت الحالي ، لذا فإننا نميل إلى الرأي القائل بأن ما حدث من اتصالات بين شارلمان والرشيد لا يعدو أن يكون مجرد تقارب محدود بين دولتي العباسيين والفرنجة يقتصر على المجاملة وتبادل الهدايا من مثل ما جرى بين الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين أو ملوك الهند والصين . وما أبعد ذلك عن مفاهيم التحالف السياسي ، وسياسة المحاور وموازين القوى ، وغير ذلك من مفاهيم عصرنا الحاضر .

ولاية العهد ونهاية الرشيد:

انشغل هارون الرشيد كما انشغل أسلافه بقضية ولاية العهد وعمل جاهداً في حصرها في أعقابه من بعده فاختار في عام ١٧٥هـ/٧٩١م ابنه محمد الأمين ولياً لعهده ، ولم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره وذلك بتأثير من زوجته زبيدة وخوفاً من أطماع العباسيين ، الذين بلغ عددهم أكثر من ثلاثين ألف شخص بين ذكر وأنثى . وقد أخذ له البيعة الفضل بن يحي البرمكي في خراسان بعد أن فرق أموالاً كثيرة[١].

---

١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٥ ، ص٤٠٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٤٠-٢٤١ ، ٥٤٥ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣١٥ ؛ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج١ (بيروت: دار الكتب العلمية ، د:ت) ، ص٢٥٩ .

وفي عام ١٨٣هـ/٧٩٩م بايع ابنه عبد الله ولقبه ((المأمون)) ولاية العهد الثانية على الرغم من أنه كان يكبر أخيه الأمين بستة أشهر وولاه ولاية المشرق . ويبدو أن ذلك حصل بتأثير من جعفر البرمكي الذي تعهد بتربيته ، وهو ابن جارية فارسية تدعى ((مراجل))[1].

وفي عام ١٨٦هـ/٨٠٢م بايع لابنه الثالث القاسم ، وجعل ولايته بعد المأمون وذلك بتحريض من مربيه عبد الملك بن صالح ولقبه المؤتمن[2]. وبذلك قسم الرشيد الملك بين أبنائه الثلاثة ، فجعل على ولاية الشام محمد الأمين وجعل على ولاية همذان إلى آخر المشرق ابنه عبد الله المأمون ، وجعل ولاية الجزيرة والثغور والعواصم لابنه القاسم المؤتمن .

إلا أن الرشيد بتقسيمه الملك بين أبنائه بذر بذرة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون . وقد أدى التنافس بين الأخوين في حياة والدهما إلى إدراك الرشيد بأن تقسيمه سيجر البلاد إلى كارثة حقيقية ويهددها بحرب أهلية ؛ لذلك استغل وجوده في الحج سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م مع ولديه الأمين والمأمون وأحضر الفقهاء والعلماء وكتب المواثيق ، وأخذ العهود على الأميرين وعلقها في جوف الكعبة . وسجلت في هذه المواثيق بأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد من بلاد المشرق ثغورها ، وكورها ، وجندها ، وخراجها ، وبيوت أموالها ، وصدقاتها وعشورها وبريدها . وبذلك أمن لكل الجبهتين مـــوارد كافية ، تمكن كلاً منهما أن يكون مستقلاً عن الآخر . وبعد أن قضى الرشيد مناسك الحج وأثناء عودته إلى العراق أقدم على قتل جعفر البرمكي في أوائل صفر سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م ونكب البرامكة[3].

---

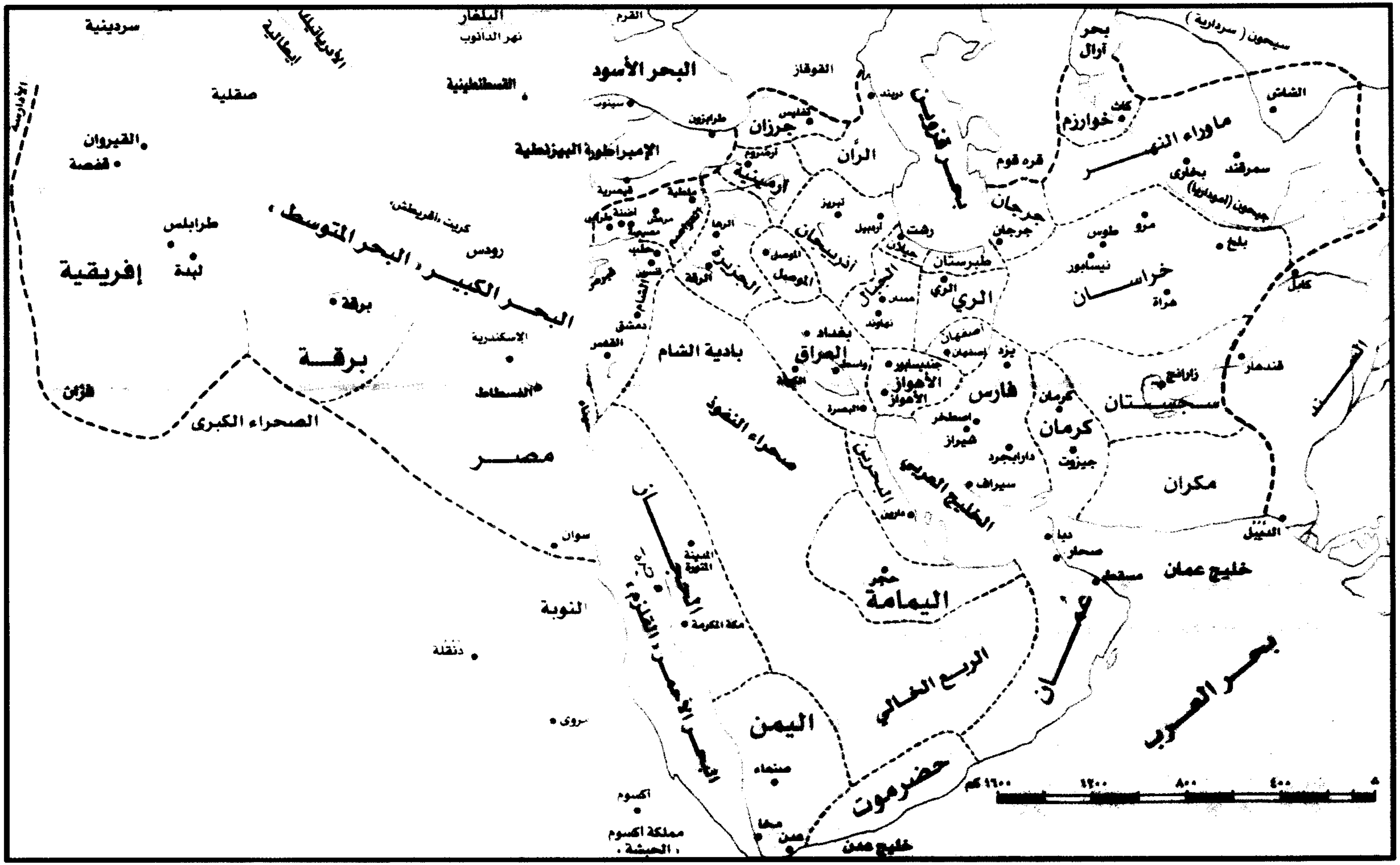
١) اليعقوبي ،تاريخ ، ج٢ ، ص٤١٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٣٦٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٧٦ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣١٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١١٢ .

٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤١٥-٤٢١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٢٧٧-٢٨٦.

وفي سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م خرج الرشيد إلى خراسان لنجدة قائده هرثمة بن أعين لوضع حد لثورة رافع بن الليث في بلاد ما وراء النهر ، واصطحب معه ابنه المأمون وكان مريضاً فاشتدت به علته ومات في طوس ودفن بها في يوم السبت ٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ/مارس ٨٠٩م[١].

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٣٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٤١-٣٤٥ .



الدولة العباسية أيام هارون الرشيد. نقلاً عن " أطلس التاريخ العربي الإسلامي "

الفصل السادس

الانحدار السريع
صراعات حزبية وفتن داخلية
١٩٣-٢١٨هـ/٨٠٨-٨٣٣م

١- خلافة الأمين (محمد بن هارون)

١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م

٢- خلافة المأمون (عبد الله بن هارون)

١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م

خلافة الأمين (محمد بن هارون) ١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م:

ولد محمد الأمين عام ١٧٠هـ/٧٨٦م بالرصافة ، وأمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، فهو هاشمي الأب والأم . ولم يتولَ أحد الخلافة هاشمي الأب والأم سواه ، وعليّ بن أبي طالب[١]. وتولى الخلافة بعد أبيه الرشيد وكانت مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر . عني والده بتربيته فاختار له أفضل علماء عصره لتأديبه وتعليمه أمثال الاصمعي ، والكسائي والمفضل الضبي فنشأ فصيحاً بليغاً فقيهاً في الدين محباً للأدب والتأريخ ، إلا أنه وصف بالمجون والاستهتار ففشل أن يكون سياسياً بارعاً وقائداً محنكاً[٢].

بادر منذ أن تولى الخلافة إلى إخراج أعداء والده السياسيين من السجن أمثال عبد الملك بن صالح ، وعليّ بن عيسى بن ماهان ، ولم يكتفِ بإخراجهم من السجن بل رد عليهم أموالهم وجعلهم من أخص قواده والمقربين إليه[٣].

ولم تكن في عهده أحداث بارزة سوى الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين أخيه المأمون . وقد عدّ كثير من المؤرخين بأن هذه الحرب نتاج الصراع القائم بين العرب والعجم ، وأن الأمين كان يمثل الحزب العربي تسانده والدته زبيدة ووزيره الفضل بن الربيع ، وأن الحزب الفارسي يمثله المأمون ووزيره الفضل بن سهل . إلا أن الحقيقة تؤكد غير ذلك فهذه الحرب لم تكن سوى حرب مصالح عمت جميع أنحاء الدولة ، واشترك فيها كل من له مصلحة . فقد كان المحرك الأساسي لها هم فئة الأبناء أحفاد الخراسانيين الأوائل الذين كانوا يتمتعون بامتيازات ومكانة خاصة في الدولة مكافأة لما

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٣٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٥٩-٣٦٠ ، ٤٩٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٥ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٢ ، ص٤٩٨ ، ٥٠٨-٥٢٤ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠١-٤٠٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ص .

٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٣ ، ص٤٣٤-٤٣٥ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٩٨ .

قدمه آباؤهم وأجدادهم من تضحيات في سبيل قيام الدولة العباسية ، وكانوا يرفضون أي تغيير يمس هذه المكانة أو يلحق أي ضرر بهذه الامتيازات . وعندما انغمس هؤلاء الأبناء في الحياة العامة والمترفة في بغداد وبدأوا يرفضون القيام بمسؤولياتهم العسكرية اضطر الرشيد والبرامكة - كما رأينا سابقاً - إلى تجنيد قوة جديدة من الخراسانيين عرفوا بالعباسية تمييزاً لهم عن الأبناء . غير أن تجنيد قوات خراسانية جديدة أثار مخاوف الأبناء والقوات السورية والعراقية معاً ، وبالتالي عداءهم لها ، وعدوها منافساً خطيراً لهم ، ومن هنا بدأ الأبناء وعلى رأسهم علي بن عيسى بن ماهان العمل على إنقاذ مصالحهم ومكانتهم المهددة ، التي جاءت كمحصلة لها الحرب الأهلية بين الأخوين الأمين ، ويسانده الأبناء ، والمأمون وتسانده القوات الخراسانية الجديدة التي عرفت فيما بعد بالمشارقة .

نشوب الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون:

ترك الرشيد لخليفته الأمين خزينة مليئة بالأموال قدرت بنحو تسعة ملايين دينار[1]. إلا أنه في نفس الوقت قصر سلطته على جنوب العراق والشام وشبه الجزيرة ومصر ، وذلك بموجب شروط ولاية العهد بينه وبين إخوته ، مؤمناً لكل منهم موارد كافية تمكن كل واحدٍ منهم أن يكون مستقلاً عن الآخر . وقد عُدَّ هذا العمل من أهم أسباب النزاع بين الأخوين ، الأمين والمأمون .

كان الرشيد قبل خروجه الأخير إلى خراسان لمحاربة رافع بن الليث قد استخلف على بغداد ابنه الأمين ، واصطحب معه ابنه المأمون ، وإسماعيل بن صبيح ، والفضل بن الربيع ، وجعل الفضل بن سهل قائماً بأعمـــال المأمـــون

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٦٤ .

ومدبراً لشئونه[1]. وبعد أن وصل الرشيد إلى طوس وقبل وفاته بثلاثة وعشرين يوماً ، أرسل ابنه المأمون إلى مرو ، ومعه قسم من الجند لمحاربة رافع بن الليث ، بينما بقي هو ووزيره الفضل بن الربيع وبقية الجيش والأموال في طوس . وعندما أحس بدنو أجله أوصى أن يسير بقية الجيش إلى المأمون لمساعدته .

لم ينفذ الفضل بن الربيع ولا قادة الجيش ومن معهم من الأبناء وصية الرشيد ، بل غادروا طوس إلى بغداد بطلب من الأمين ، الذي عندما علم بشدة مرض أبيه أرسل رسولاً إلى خراسان ، ومعه رسائل إلى قواد الجيش يأمرهم بالعودة إلى بغداد مع العتاد . ويبدو أن ذلك كان بإيعاز من عليّ بن عيسى بن ماهان الذي أخرجه الأمين من سجنه وجعله من خواصه ، ولما علم المأمون بمغادرة الجيش إلى بغداد غضب وجمع من معه من قواد أبيه وشاورهم , فأشاروا عليه بقتالهم وردهم إليه ، ماعدا الفضل بن سهل الذي خالفهم الرأي وأشار على المأمون بعدم استخدام القوة ، وإرسال وفد إلى الفضل بن الربيع يذكره بالبيعة ويطالبه بالوفاء لوصية أبيه[2].

وبذلك بدأ يظهر دور الفضل بن سهل على أنه المحرك الأساسي للفتنة التي وقعت بين الأخوين الأمين والمأمون ، حتى أن بعض المؤرخين يرجعون جميع ما حدث من أحداث في تلك الفترة إلى الفضل بن سهل ، ويغيبون دور المأمون تماماً[3]. والحقيقة أن المأمون كان محظوظاً بوجود الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل في خدمته ، وهما اللذان تدربا على يد البرامكة ، وكما وقف يحي البرمكي خلف الرشيد حينما أراد أخوه الهادي خلعه من ولاية العهد

---

١) الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٦٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٧٠-٣٧١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٣٥ .

٣) عبد المنعم ماجد ، العصر العباسي الأول ، ج١ ، ط٣ (القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٨٤م) ، ص٢٩٤ .

وقف الفضل بن سهل خلف المأمون وسانده وآزره في ساعات ضعفه ، حاثاً له على التمسـك بحقه مطمئناً له بقوله: ((فكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم ، اصبر وأنا أضمن لك الخلافة)) . لذلك فإن المأمون حفظ له ذلك الفضل ، ومنحه سلطات واسعة لإدارة أموره المالية والحربية في هذه الفترة المبكرة والحرجة من إمارته على خراسان ، فأقدم الفضل على خفض نسبة الضرائب في المنطقة إلى الربع ، ونتيجة لهذه السياسة المالية المتسامحة استطاع الفضل أن يجند عدداً كبيراً من الخراسانيين ، وأن يبرز على الساحة قادة جدد من أبناء المنطقة ؛ أمثال طاهر بن الحسين الذي قاد قوات المأمون لمحاربة بغداد فيما بعد(١).

وتظهر الروايات المتعددة براعة الفضل بن سهل ودهائه ، وحسن إدارته في تثبيت مركز المأمون أمام مكائد الأمين فقد أفشل الفضل خطط الأمين في حمل أخيه المأمون على التنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه موسى. مما دفعه إلى خلعه في عام ١٩٥هـ/٨١١م ، وجلب كتابي العهد من جوف الكعبة ، وحرقهما بالرغم من تحذير بعضهم له(٢). فرد الفضل بن سهل على هذا الإجراء بأن أطلق على المأمون لقب (إمام) ؛ توطيداً لسلطته بإضفاء صفة دينية عليه(٣).

نتيجة لهذا العمـل اشـتد التوتـر بين الأخـويـن ، وأغلقت الحدود بينهما وحشد الفضـل بن سهـل الجـيوش الكبيرة من أهالي خراسان الذين توافدوا من كل صوب وحدب ، وجعل على قيادتهم طاهر بن الحسين بعد حصوله على امتيازات عديدة ، وسارت الجيوش متجهة إلى الري . ومن ناحيته أشرف الفضل بن الربيـع على تجهيز وإعداد جيش الأمين ، وجعل على قيادته علـيّ

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٧٢ ؛ الجهشياري ، الوزراء ، ص٢٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٣٦-١٣٧ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٤٣٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٧٦-٣٧٧ ، ٣٨٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٧٦ ، ٣٨٩-٣٩٠ .

بن عيسى بن ماهان أحد أبرز رؤساء الأبناء بعد أن عقد له الأمين على كور الجبل كلها ونهاوند وهمذان وقم وأصفهان . وقد بالغ الفضل بن الربيع في تجهيز الجيش بالعدة والسلاح وفرق على الجند أموالاً كثيرة كما أجزل العطاء لقائده علي بن عيسى فأعطاه مائتي ألف دينار ، وأعطى ولده خمسين ألـــف دينار . وبلغ عدد الجيش أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، معظمهم من الأبناء والأعراب(١).

أثار تعيين عليّ بن عيسى بن ماهان على قيادة الجيش الموجه لمحاربة المأمون الغضب الشديد في نفوس الخراسانيين ؛ لأنهم لم ينسوا ظلمه وسوء إدارته عندما كان والياً على خراسان في عهد الرشيد فاستعدوا لمحاربته والاستماتة في قتاله ، وقيل إن للفضل بن سهل يداً في تعيين عليّ بن عيسى بن ماهان إذ أوعز إلى أحد عيونه وجواسيسه في بغداد بأن يزين للفضل بن الربيع تعيين عليّ بن عيسى على قيادة الجيش ؛ لأن هذا التعيين سوف يثير أهالي خراسان ضده لبغضهم وكرههم له(٢).

في هذه الأثناء كان المأمون يمر بظروف صعبة ؛ نظراً لاضطراب وخروج بعض ملوك خراسان عليه ، حتى أنه فكر في الهرب واللجوء إلى ملك الترك والتخلي عن الخلافة ، إلا أن الفضل بن سهل أشار عليه بالتريث ونصحه بأن يمنح بعض هؤلاء الملوك الاستقلال الذاتي ، وأن يتنازل لبعضهم عن الجزية ، وأن يتودد للبعض الآخر بالهدايا والتحف ، فإن نجحت خططه مع الثائرين عليه من ملوك المنطقة وانتصرت قواته على قوات أخيه فذلك الذي يأمل وإلا فليتجئ إلى ملك الترك(٣).

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٣٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٨٩-٣٩١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٩١ ، ٣٩٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٠ .

كان لهذه النصائح وقعها في قلب المأمون ، ونجحت خطط الفضل بن سهل فهدأت ثائرة الملوك العجم ، وانتصرت قواته على قوات أخيه في الري انتصاراً ساحقاً ، وقتل عليّ بن عيسى ، وتراجع جيشه إلى بغداد في حالة سيئة ولما وصلت رسل طاهر إلى الفضل بن سهل تخبره بالنصر دخل على المأمون ، وسلم عليه وبشره بالخلافة ولقبه بأمير المؤمنين(١).

وبعد مقتل عليّ بن عيسى بن ماهان ، أرسل الأمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري يقدر بنحو عشرين ألفاً من الأبناء(٢). كما أدرك المأمون المصاعب التي يواجهها طاهر بن الحسين فأرسل له فرقة قوية من جند العباسية بقيادة هرثمة بن أعين الذي كان أحد قواد الرشيد(٣). فتقابل الفريقان في همذان ، واقتتلوا ولم يزل عبد الرحمن يقاتل حتى قتل(٤).

وعندما بلغ المأمون خبر هزيمة عبد الرحمن بن جبلة ومقتله رفع من منزلة الفضل بن سهل ، وجعله مسئولاً أمامه عن الإدارة المدنية والعسكرية لكل المنطقة الممتدة من همذان إلى التبت ، ومن الخليج إلى بحر الديلم (بحر قزوين) ، ولقبه ((ذو الرئاستين)) أي رئاسة الشئون المدنية والحربية وجعل عمالته ثلاثة ملايين درهم في السنة ، وكان ذلك في رجب سنة ١٩٥هـ/إبريل ٨١٠م ، وهو التاريخ الذي أصبح فيه الفضل بن سهل وزيراً رسمياً للمأمون وأطلق عليه لقب ((الأمير)) ، كما ولى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج(٥).

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٩٣-٣٩٤ ، ٤١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٥ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج١ ، ص٢٠٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص١١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٦ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٣٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٥ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤١٢-٤١٤ ، ٤١٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٦ .

٥) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٢٤ الجهشياري ، الوزراء ، ص٣٠٥-٣٠٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٥٠ .

ثم تابع الأمين بعد ذلك إرسال الجيوش لمنع طاهر بن الحسين من الزحف إلى بغداد ، فوجه أحمد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، في عشرين ألف رجل من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين آخرين من الأبناء[1]. ثم أتبع ذلك بمحاولة أخرى يائسة لإنقاذ جيشه من الهزائم المتتالية فأعاد عبد الملك بن صالح إلى جميع ما كان عليـــه مـــن ولايـــة الشـــام ، والجزيرة ، وجند قنسرين ، والعواصم ، والثغور ليستعين بجنودها ، ولكن هذه المحاولات ذهبت سدى .

في هـــذه الأثنـــاء كـــان الأميـــن يواجـــه الكثير من المشاكل والثورات التي اجتاحت أغلب مناطق الدولة في بلاد الشام ، ومصر ، والجزيرة . ففي بلاد الشام ثار عليّ بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية المعـــروف ((بالسفيـــاني)) ودعا لنفسه ، واحتل دمشق وأعمالها بعد أن طرد عامل الأمين ، وكاد أن يستقل بالشام . فأرسل إليه الأمين الحسين بن عليّ بن ماهان فلما وصل إلى الرقة أقام بها ولم يحارب السفياني ، وبقيت بلاد الشام مسرحاً للاضطرابات ما يقرب من عامين[2].

كما اضطربت الأحوال في إقليم الجزيرة وجند قنسرين والعواصم بعد موت عبد الملك بن صالح سنة ١٩٦هـ/٨١١م ، ولم يستطع أن يمد الأمين بالجند السوري الذي وعده بهم لعدم الانسجام بينهم وبين فئة الأبناء[3]. ويصف اليعقوبي الأحوال التي صارت إليها الدولة الإسلامية بقوله: ((وصار الناس حزبين حزب يظاهر بمحمد ، وحزب يظاهر بالمأمون ، فلم يبق بلد إلا وفيه قوم يتحاربون لا سلطان يمنعهم ولا يدفعهم))[4].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٢٣ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٤٧ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٢٤-٤٢٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٥٠-١٥١ .

٤) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٤٣٩-٤٤٠ .

لم تواجه جيوش طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، وهما في تقدمهما نحو العراق ، مقاومة تذكر ، وحاصرا بغداد حصاراً شديداً ، وضيقا على أهلها الذين قاوموا الحصار لعدة أشهر ، ومن بينهم الأبناء الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم بضراوة لشعورهم بأنهم يخوضون معركتهم الأخيرة . كذلك استبسل في القتال العامة والعيارون ، الذين تطوعوا في الدفاع عن مدينتهم المحاصرة[١].

وعندما شعر الفضل بن الربيع بضعف موقف الأمين هرب تاركاً خليفته يلقى مصيره وحده ، وفي ذلك يقول المسعودي ((واستتر الفضل لما تبين من اختلال أمر محمد ووهاء أمره فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح))[٢]. والواضح من أحداث الحصار أن طاهر وهرثمة لم يكونا على وفاق ، فهرثمة كان يريد نوعاً من التفاهم مع الأمين وأعوانه المحاصرين بينما كان طاهر معارضاً لهذه السياسة[٣]. والواقع عندما أحس الأمين بنوايا هرثمة حاول استغلال موقفه ذلك لصالحه ، فأرسل إلى هرثمة يطلب الأمان ، فأجابه هرثمة إلى ذلك وأقسم له أن يقاتل دونه إذا أراد المأمون التخلص منه بالقتل . إلا أن الأمين لم ينجح في الوصول إلى معسكر هرثمة إذ غرق قاربه في النهر وقتل على يد جنود طاهر ، واجتز رأسه ، وأبلغ بذلك المأمون الذي أصبح خليفة دون منازع ، وكان ذلك في ٢٥ محرم ١٩٨هـ /أغسطس ٨١٣م[٤].

خلافة المأمون(أبي جعفر عبد الله بن الرشيد)(١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م):

ولد المأمون سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م في اليوم الذي توفي فيه عمه الهادي وولي والده الرشيد الخلافة من أم فارسية تدعى مراجل . عني والده بتربيته

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦-٤٣٨ ، ٤٤٥-٤٦٦ .
٢) المسعودي ، التنبيه ، ص٣١٨ .
٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٧٢ .
٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٧٨-٤٨٢ .

كأخيه الأمين ، فنشأ محباً للعلم والأدب والفلسفة لذلك وصف بأنه ((كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال ، وله اختراعات كثيرة في مملكته منها أنه أول من فحص منهم علوم الحكمة وحصل على كتبها ، وأمر بنقلها إلى العربية وتكلم في الطب ، وقرب أهل الحكمة))(١). تولى الخلافة رسمياً وهو بمرو بعد مقتل أخيه الأمين في محرم سنة ١٩٨هـ/أغسطس ٨١٣م . وأقام بمرو نحو ست سنوات بعد توليه الخلافة ، ولم يذهب إلى بغداد إلا في سنة ٢٠٤هـ/٨١٥م. فقد آثر الابتعاد عنها حتى تهدأ وتستقر الأوضاع بها بعد أحداث الحرب الأهلية الدامية . وقد تسبب غيابه عن مقر حكم أجداده في حدوث أزمات واضطرابات سياسية كثيرة ، اضطرته في نهاية الأمر إلى القدوم إليها.

الاضطرابات والمشاكل الداخلية في بداية عهد المأمون

معارضة أهل العراق وانتفاضات العلويين:

بعد مقتل الأمين وانتهاء الحرب الأهلية وجه المأمون ، بإيعاز من الفضل بن سهل ، الحسن بن سهل إلى بغداد لينوب عنه وعينه والياً على كل ما افتتحه طاهر من كور الجبال ، والعراق ، وفارس ، والأهواز ، وكذلك اليمن . بينما أبعد طاهر بن الحسين إلى الجزيرة الفراتية بحجة قمع ثورة نصر بن شبث العقيلي ، كما أمر هرثمة بن أعين بالتوجه إلى خراسان(٢). وعمل الفضل بن سهل في الوقت نفسه على قطع الأخبار عن المأمون وعاقب من حاول إخباره بما يجري في بغداد ليصرف الأمور حسب سياسته المخطط لها(٣). إلا أن تعيين الحسن بن سهل على العراق لقي معارضة شديدة من العراقيين عامة وأهل بغداد خاصة بما فيهم الأبناء

---

١) ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢١٦ ؛ ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تحقيق: منجي الكعبي (بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٣م) ، ص٢٥٧ .

٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٦٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٢٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٧٢ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٤٢ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢١٨ .

الذين أدركوا أن تعيين الحسن بن سهل والياً ونائباً عن المأمون في بغداد معناه القضاء على نفوذهم وسلطاتهم ومكانتهم ، التي ظلوا يتمتعون بها لسنوات عديدة . كما أثار بقاء المأمون في مرو واتخاذها عاصمة له ، ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل غضب الهاشميين في العراق من عباسيين وعلويين ، فعمت الفوضى والاضطرابات في أغلب مناطق الدولة العباسية . وأعلن العراقيون انتفاضتهم ضد حكم المأمون من الكوفة في أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٩هـ/فبراير ٨١٥م وتزعم هذه الانتفاضة أبو السرايا السري بن منصور الشيباني ، الذي كان يعمل تحت إمرة القائد هرثمة بن أعين ، وأحد أكبر أعوانه ، ثم تركه بسبب تأخر أرزاقه[١]. كما انتهز العلويون فرصة قيام انتفاضة أهل العراق فساهموا فيها للإطاحة بالحكم العباسي . فاتسع بذلك نفوذ أبي السرايا وتمكن من تحقيق الانتصارات على القوات التي بعث بها الحسن بن سهل وبسط سيطرته على البصرة وواسط ، كما مد نفوذه على الحجاز واليمن ، وضرب النقود باسمه وبدأ بعزل من يشاء من العمال وتولية من يشاء . فولى على مكة حسين بن حسن بن عليّ بن الحسين بن عليّ أحد أحفاد الحسين بن عليّ الذي تمكن من طرد الوالي العباسي ، وأمر بتجريد الكعبة من الكسوة العباسية وكساها بالكسوة التي أرسلها إليه أبو السرايا وقد كتب عليها ((أمر به أبو السرايا داعية آل محمد كسوة بيت الله الحرام ، وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس)) . كما عين على البصرة والأهواز زيد بن موسى بن جعفر الحسيني الذي لقب (بزيد النار) ؛ لكثرة ما أحرق من دور العباسيين ، كما جعل جعفر بن محمد بن زيد والحسين بن إبراهيم على واسط ، وبذلك فإن الحسنيين والحسينيين شاركوا في هذه الحركة[٢].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٢٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٣٠-٥٣٦ .

نتيجة لهذه الانتصارات التي حققها أبو السرايا لم يجد الحسن بن سهل أمامه سوى استرضاء هرثمة بن أعين ، الذي سبق وأن طرده من العراق وأمره بالذهاب إلى خراسان ، وكلفه بحرب أبي السرايا وإخماد فتنته . فاستطاع هرثمة من دخول الكوفة ، واشتبك مع قوات أبي السرايا في معارك عنيفة قتل على أثرها كثير من أصحاب أبي السرايا ، واضطر هو إلى الفرار إلـــى السوس من بلاد فارس ، ومنها إلى الجزيرة ، حيث ألقى القبض عليه أثناء هربه وضرب عنقه سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م . وما أن وصل خبر مقتل أبي السرايا وتشريد من بالكوفة والعراق من العلويين إلى مكة حتى اجتمع من بها من العلويين ، وأتباع أبي السرايا ، وبايعوا محمد بن جعفر الصادق (الملقب بالديباج) بأمير المؤمنين فقبلها بعد تردد في العام نفسه .

على الرغم من أن حركة محمد الديباج لم تكن ذات أهمية لانحسارها في مكة إلا أن هرثمة أرسل إليه أحد قواده ، وهو عيسى بن يزيـد الجلودي لقتاله . فما أن دخلت قوات عيسى مكة حتى طلب محمد الديباج الأمان له ولمن معه وخلع نفسه أمام الملأ ، فأخذه عيسى إلى المأمون ، وهو بمرو فلما صار بجرجان توفي محمد الديباج[١].

لما فرغ هرثمة بن أعين من أمر أبي السرايا رحل إلى خراسان دون أن يقابل الحسن بن سهل ، الذي اضطر إلى الخروج إلى المدائن والإقامة بها بعد أن أرغمه الأبناء والعامة من أهالي بغداد على الخروج منها . وكان في نية هرثمة عند وصوله إلى مرو إبلاغ المأمون بكل ما يجري في بغداد من غضب الأهالي وسخطهم على سياسته بتوليته الحسن بن سهل نائباً عنه على العراق . إلا أن الفضل بن سهل حال دون ذلك وأوقع بينه وبين المأمون ؛ مما أدى إلى حبسه وقتله بعد أيام[٢].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٢٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٤٢-٥٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٧٩ .

سيطر الأبناء بزعامة محمد بن أبي خالد على بغداد بعد طرد الحسن بن سهل منها ودارت معارك بين الطرفين قتل على إثرها محمد بن أبي خالد فتولى زعامة الأبناء أخوه عيسى بن أبي خالد . ثم اجتمع قادة الجند والأبناء وأشراف بغداد وقرروا تعيين منصور بن محمد المهدي نائباً عن المأمون في بغداد(١).

مبايعة المأمون لعلي الرضا:

حاول المأمون بإيعاز من الفضل بن سهل إرضاء العلويين الذين تفشت ثوراتهم في العراق والحجاز واليمن ، فتقرب منهم ولبس الخضرة وترك لبس السواد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، واتخاذ الخضرة شعاراً لهم. وبعث في طلب علي بن موسى الكاظم من المدينة المنورة وهو الإمام الثامن من الأئمة الإثنى عشرية ، وزوجه ابنته ثم بايعه بولاية العهد في الثامن من شهر رمضان سنة ٢٠١هـ/إبريل ٨١٧م. وقد علل المأمون اختياره لعلي بن موسى بقوله ((إنه نظر في بني العباس ، وبني عليّ فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه ، وأنه سماه الرضا من آل محمد))(٢).

فلما وصلت هذه الأخبار إلى العراق ثار العراقيون بما فيهم العباسيون والأبناء ورفضوا مبايعة عليّ الرضا وقالوا: ((إنما هذا دسيس من الفضل بن سهل)) . ولما أصر المأمون على البيعة اجتمع العباسيون ، واختاروا إبراهيم بن المهدي عم المأمون وبايعوه بالخلافة ولقبوه (المبارك المنير) في أول محرم ٢٠٢هـ/يوليو ٨١٧م . وبهذا العمل ازداد انقسام الناس في العراق ، والأمصار إلى مؤيد ومنكر لفعلة المأمون هذه ، فامتنع والي البصرة عن بيعة (عليّ الرضا) وعن لبس الخضرة ، وأعلن خلع المأمون . بينما أيد أهل مكة

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٥٠-٤٥١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٤٦-٥٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٨١-١٨٢ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٤٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٦٦ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ٢١٧ .

مبايعة عليّ الرضا ، وبقى أهل المدينة على الحياد[1].

عمل الفضل بن سهل على تطويق المأمون من كل جانب حتى لا تتسرب إليه أخبار الفتنة في العراق ، ومبايعة إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، فلم يجرؤ أحداً على إخباره إلا عليّ الرضا الذي أخبره بتفاصيل ما يحدث في العراق ، محذراً إياه من وزيره الفضل بن سهل[2].

العودة إلى بغداد:

عندما علم المأمون حقيقة الأمر خشي من وقوع حرب أهلية جديدة بين أفراد البيت العباسي ، وتنبه لسياسة الفضل بن سهل ، كما تنبه من قبل الرشيد لسياسة البرامكة ، وأدرك أن ثورة أهالي بغداد ونقمة أهل بيته عليه ومبايعتهم لعمه إبراهيم بن المهدي ما هي إلا بسبب قبوله رأي الفضل بن سهل بالبقاء في مرو والابتعاد عن حكم العباسيين ببغداد ، وتعيين عليّ الرضا ولياً لعهده . فاتخذ أجرأ خطوة في حياته ، إذ قرر الرحيل والانتقال إلى بغداد واصطحب معه ولي عهده عليّ الرضا ، ووزيره الفضل بن سهل ، وفي نيته التخلص منهما وكان ذلك سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م .

وما كاد أن يصل إلى مدينة سرخس حتى دبر مقتل الفضل بن سهل بإيعاز إلى جماعة دخلت عليه وهو في الحمام وقتلوه في أوائل شهر شعبان ٢٠٢هـ/مارس ٨١٨م ، ثم واصل مسيرته إلى بغداد ، ولما وصل إلى طوس توفي عليّ الرضا فجأة في أوائل سنة ٢٠٣هـ/٨١٨م ودفن بجوار قبر الرشيد . وقيل إن المأمون دس له سماً في عنب فأكل منه فمات من ساعته[3]. ويبدو أن هذه المقولة فيها شيء من الصحة ؛ لأن المأمون لم يكن يجرؤ على دخول بغداد ومعه ولي عهده العلوي .

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٤٨-٤٤٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٥٥ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٦٤ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢١٨-٢١٩ .

٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٥١ ، ٤٥٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص ٥٦٤-٥٦٥ ، ٥٦٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٩١ ، ١٩٣ .

وصل المأمون إلى بغداد بعد سنتين من خروجه من (مرو) فوصلها عام ٢٠٤هـ/٨١٩م ، ولم يكد يقترب منها حتى خلع أهالي بغداد إبراهيم بن المهدي الذي هرب هو والفضل بن الربيع ، وبقيا مستترين حتى عفا عنهما المأمون . وبعد وصوله بمدة وجيزة تخلص من كل ما يشير إلى تحوله إلى المذهب الشيعي فرجع إلى لبس السواد . وطرح عنه لباس الخضرة ، إلا أنه تمسك بلقب الإمام الذي ظل الخلفاء العباسيون اللاحقون يتمسكون به(١).

بعد أن تخلص المأمون من الفضل بن سهل استوزر أخاه الحسن بن سهل ، ولقبه (بذي الكفايتين) استرضاء لعائلة آل سهل ، وإبعاد شبهة قتل الفضل عنه، وتزوج بوران ابنة الحسن في عرس حافل سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م . وقد أنفق الحسن على زواج ابنته من المأمون مبالغ عظيمة يذكر أنه نثر على الهاشمين والقواد والكتاب كرات من المسك في كل منها رقعة مكتوب فيها عطية ، تشمل داراً ، أو ضيعة ، أو فرساً ، أو جارية ، ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم . وفرش للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة . كما نثرت جدة العروس على المأمون ألف درة كانت في صينية ذهب ، وأشعل بين يديه شمعة وزنها مائة رطل . وكان مبلغ ما أنفقه الحسن على هذا العرس خمسين مليون درهم(٢). إلا أن الحسن لم يلبث أن مرض بعلة تسمى (السوداء) سببها حزنه على موت أخيه ولـــزم منزله(٣).

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٥٣-٤٥٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٧٠-٥٧٢ ، ٥٧٤-٥٧٥ ؛ ابن طيفور الفضل بن أحمد ، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية (بغداد: مكتبة المثنى ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ، ص٢ .

٢) ابن طيفور ، بغداد ، ص١١٣-١١٥ ؛ الطبري ، ج٨ ، ص٥٦٦ ، ٦٠٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات ، ج١ ، ص٢٨٧ ، ٢٨٩ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١٠-٢١١ .

٣) ابن خلكان ، وفيات ، ج٢ ، ص١٢٣ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٢٣ .

بعد مرض الحسن بن سهل استخدم المأمون غيره من الوزراء أهمهم أحمد بن أبي خالد من الأبناء ، وأحد أفراد عائلة أبي خالد الذين قاوموا سياسة آل سهل والمشارقة مع إخلاصهم للمأمون . ظل أحمد في خدمة المأمون حتى وفاته عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥م ، ولكنه رفض أن يعين رسمياً في منصب وزير أو كاتب(١). ويبدو أن تعيين المأمون لهذا الرجل في هذا المنصب الحساس كان له مغزاه السياسي ، وهو مصالحة طبقة الأبناء الذين كانوا يكونون شريحة مهمة في طبقة المجتمع العراقي .

الانتفاضات التي واجهت المأمون في بداية حكمه:

انتفاضة نصر بن شبث العقيلي:

نتج عن الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون وبقاء المأمون بعيداً في مرو مدة من الزمن ضعف هيبة الحكم وكثرة الطامعين فيه والمخالفين من علويين وغيرهم . فقد شهد إقليم الجزيرة وشمال بلاد الشام ثورة عربية تزعمها رجل من قبيلة بني عقيل يدعى (نصر بن شبث) سنة ١٩٨هـ/٨١٣م وأعلن أن خروجه على المأمون ليس كرهاً لبني العباس ، وإنما محاماة عن العرب ؛ لأنهم يقدمون عليهم العجم(٢). وقد كان نصر أحد المتطوعين في الجيش السوري الذي كان قد شكله عبد الملك بن صالح لإغاثة الأمين . ولما لم يهب هذا الجيش لمساعدة الأمين غضب نصر واستولى على الجزيرة وشمال الشام ، وملك سميساط واتخذ من كيسوم مقراً له مستغلاً الجيش السوري ، وانضمام بعض القبائل العربية في شمال الشام إليه ، وامتنع من إرسال خراج المناطق التي استولى عليها إلى بغداد . وحاول العلويون إقناعه بالدعوة لأبناء عليّ ' إلا أنه رفض ولم يقرهم على رأيهم .

١) ترجع أصول عائلة أبي خالد إلى مرو الروذ ، انظر: الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٣٠ ؛ ابن طبا طبا ، الفخري ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٧١ .

أقلقت هذه الانتفاضة المأمون وهو بمرو فعين سنة ١٩٨هـ/٨١٣م طاهر بن الحسين على بلاد الشام وكلفه بقتال نصر . إلا أن طاهراً لم يبد تحمساً لقتال نصر بسبب تعيين الحسن بن سهل بدلاً منه على العراق ، وقد عبر عن ذلك بقوله: ((ما أنصفني أمير المؤمنين)). واستمر القتال بينهما دون إحراز أي نصر حتى قدم المأمون إلى بغداد فاستدعى إليه طاهراً وولاه على خراسان ، وعين عبد الله بن طاهر على الجزيرة والشام وكلفه بمحاربة نصر[١].

أقدم عبد الله بن طاهر لمحاربة نصر بحماس شديد ، وضيق عليه وحاربه لمدة خمس سنوات . وكان في هذه الأثناء يراسله داعياً إياه إلى الطاعة وترك العصيان حتى اضطره إلى طلب الأمان سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م . فكتب له المأمون كتاب الأمان فسلم نفسه إلى عبد الله بن طاهر الذي سيره إلى المأمون في بغداد[٢]. وقد عمل عبد الله على تهدئة الأوضاع في المنطقة وذلك برفع الكثير من الضرائب عن كاهل القبائل هناك .

انتفاضة الزط في جنوب العراق:

الزُطّ (بضم الزاي وتشديد الطاء) هو تعريب للكلمة الفارسية (جت Jet ، أو Jat) ، وقد اتفق المؤرخون والجغرافيون واللغويون على أن أصلهم من بلاد الهند وأنهم هاجروا قبل ظهور الإسلام من بلادهم إلى بلاد فارس والعراق ، لغلاء وقع هناك ساق وراءه الفقر والفاقة[٣]. بينما يرى حمزة الأصفهاني سبباً آخر لهجرة بعض هؤلاء إلى فارس ، وهو أن بهرام جور ملك فارس (٤٢٠-٤٣٨م) سأل ملك الهند أن يرسل إليه عشرة آلاف

---

١) ابن طيفور ، بغداد ، ص١٨ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٥٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٨٠ .

٢) ابن طيفور ، بغداد ، ص٢٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٩٨-٦٠١ .

٣) البلاذري ، فتوح ، ص٣٦٨ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٢٣ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، ج٧ ، ص٣٠٨ .

زطي من الرجال والنساء البارعين في العزف والغناء[1].

ويفهم من الروايات القليلة الموجودة في المصادر العربية أن الفرس عرفوا أقوام وقبائل السند المختلفة ، ومنهم الزط خلال العصور السابقة للفتوحات الإسلامية ، وأنهم جلبوهم إلى بلادهم ، كملهين ، أو كأسرى حرب ، أو كجنود مرتزقة ، وقد استعانوا بهم في حروبهم ، ومن ثم انتشر هؤلاء الأقوام في بلاد فارس ، وعلى أطراف الخليج العربي ، واختلطوا بأهالي البلاد الأصليين مكونين مع مرور الزمن جاليات كبيرة . وهذا ما يبرر وجود جاليات عظيمة منهم في فارس ، والأهواز ، والقطيف ، وعمان ، والأبلة ، ونواحي البصرة . وعندما فتح المسلمون هذه البلاد تعايشت هذه الجماعات مع قبائل العرب وحرصت على بقاء تقاليدها وعاداتها القديمة ، وعرف أفرادها بهيئاتهم وأجسامهم وألوانهم وألبستهم وشعورهم[2].

وفي فترة ولاية الحجاج على العراق أرسل إليه محمد بن القاسم بناءً على طلبه أقواماً من زط السند مع أسرهم وجواميسهم لتحل محل العناصر الزطية التي انتقلت من البصرة إلى الشام في عهد معاوية بن أبي سفيان فأسكنهم الحجاج بأطراف كسكر[3] بغية تعمير المنطقة ، كما منع ذبح البقر والجواميس في السواد للقيام بعملية الحراثة والزراعة ، فتناسل الزط بها وأزداد عددهم مع مرور الأيام . وقد شجعهم ذلك على إثارة الفتن والقلاقل رغبة في التخلص من الظلم والجور الذي لحقهم ورغبة في تحسين وضعهم

---

١) حمزة الأصفهاني ، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ط٢ (بيروت: مكتبة الحياة ، د.ت) ، ص ٤٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٣ ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٢ ، ص٢٤٩ ؛ أنظر مقالة للكاتبة عن الزط وموقعهم في التاريخ الإسلامي ، مجلة العصور ، مج٨ ، ج١ (رجب ١٤١٣هـ/يناير ١٩٩٣م) .

٣) كسكر: كورة واسعة امتدت بطائحها ومستنقعاتها جنوباً إلى البصرة ، وكانت تقطعها نهر قديمة تسمى (نهر الزط) ونسبتها مدينة واسط بين البصرة والكوفة ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٦١ .

المعيشي السيئ . فاستغلوا وجود المأمون في مرو في بداية خلافته وتمردوا على السلطة . وجسدوا تمردهم بإثارة الاضطرابات وعدم الاستقرار حتى سيطروا على طريق البصرة . وبدأوا يغيرون على السفن القادمة إلى بغداد وسيطروا على الطريق المائي المؤدي إلى بغداد ، فانقطع بذلك عنها جميع ما كان يحمل إليها من البصرة في السفن[1].

ولما استقر المأمون ببغداد سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م شعر بخطرهم ورأى ضرورة التخلص منهم . فأوكل هذه المهمة إلى عيسى بن يزيد الجلودي سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م ، غير أنّه أخفق في القضاء عليهم فولى المأمون داود بن ماسجور ٢٠٦هـ/٨٢١م ولاية البصرة ، وكور دجلة ، واليمامة ، والبحرين وعهد إليه بمحاربة الزط[2]. ولكنه فشل هو الآخر في القضاء على انتفاضاتهم المتتالية ، لعدم تمكنه من التوغل وسط الأهوار والمستنقعات والآجام والأماكن التي يعتصم بها الزط وبذلك ظلت حركتهم إلى أيام المعتصم الذي سيقضي عليهم .

وقد أدى عدم تمكن قواد المأمون من السيطرة على فتنة الزط أن سخر منه نصر بن شبث العقيلي ، حينما كتب إليه المأمون يهدده بالقضاء عليه وعلى اتباعه معلقاً بقوله ((ويلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه – يعني: الزط ، ويقوى على حلبة العرب))[3].

ويدلنا تعليق نصر بن شبث الطريف هذا على أن انتفاضة الزط في عهد المأمون رغم قلة عددها كانت قوية ، حتى عجز قواده عن الانتصار عليهم ، كما يدل تشبيهه الزط بالضفادع على أنهم كانوا يسكنون منطقة المستنقعات المائية في منطقة البطيحة جنوبي العراق .

---

١) البلاذري ، فتوح ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٨٠ ، ٥٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٩٧ ، ٢٠٤ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٩٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٠٧ .

الاضطرابات السياسية والعنصرية والمذهبية في الأقاليم:

الأوضاع في مصر:

بعد أن قضى عبد الله بن طاهر على انتفاضة القبائل العربية في الجزيرة وشمال الشام ، واستسلم زعيمها نصر بن شبث أمره المأمون بالتوجه إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها وتهدئة الأوضاع فيها سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م . وكان العرب في الدلتا منذ أواخر عهد الرشيد قد رفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم. وعندما تولى الأمين حاول احتواء الموقف فعمل على تجهيز قوة من ألف جندي من الأبناء لإرسالها إلى مصر لتهدئة الوضع فيها ، إلا أن الحرب الأهلية بينه وبين أخيه المأمون حالت دون ذلك . وفي أثناء هذه الحرب الأهلية انقسم الجيش والقبائل العربية هناك ، وأهالي مصر إلى ثلاثة فرق ، فريق يؤيد الأمين تمثله القيسية ، وفريق يؤيد المأمون وتمثله اليمانية ، وفريق ثالث يعمل لحسابه الخاص بزعامة عبيد الله بن السري[١].

توجه عبد الله بن طاهر إلى مصر لمحاربة عبيد الله بن السري الذي تغلب عليها بعد أن هزم قوات الخلافة التي أرسلت إليه من قبل . وعندما دخلت قوات عبد الله بن طاهر مصر انضم إليه علي بن عبد العزيز الجروي وكان قد تغلب على مصر السفلى ، فاضطر عبيد الله بن السري إلى الاعتصام بالفسطاط . فحاصره عبد الله بن طاهر ، وشدد عليه الحصار حتى طلب الأمان وأستسلم مشترطاً أن يترك له جباية الصعيد لمدة شهرين فقبل عبد الله بن طاهر شرطه حقناً للدماء . وبعد انقضاء الشهرين حمله عبد الله بن طاهر إلى المأمون في بغداد[٢].

لم تهدأ الأوضاع في مصر ؛ إذ لم تلبث أن اندلعت انتفاضة بين القبائل

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦١٠-٦١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١١ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ٤٦٠ ؛ الطبري ، ج٨ ، ص٦١٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١٣ .

العربية بعد عودة عبد الله بن طاهر إلى بغداد ، بسبب الزيادة في الضرائب التي أحدثها والي مصر عيسى بن يزيد الجلودي ، فأرسل المأمون هذه المرة أخاه المعتصم . إلا أن المعتصم لم يظهر كفاءة في تهدئة الأمور بين القبائل فعمل على محاربتهم ، وأسر زعيمي القيسية واليمنية ، مسببي الشغب ، وأمر بضرب أعناقهما، كما أسر عدداً كبيراً من الثوار وحملهم إلى بغداد[1]، دون أن يحل المسألة الجوهرية في المشكلة ، وهي مسألة الضرائب . فأدى ذلك إلى نشوب انتفاضة خطيرة شملت هذه المرة معظم أنحاء الوجه البحري سنة ٢١٦هـ/٨٣١م اشترك فيها العرب والأقباط بسبب السياسة التعسفية لوالي مصر عيسى بن منصور، ومنها فرض الجزية على الأقباط . وفي أثناء قيام هذه الانتفاضة كان المأمون في بلاد الشام فاضطر إلى المسير إليها للاطلاع بنفسه على ما يجري فيها، وأقام بها ما يقرب من سنة . وعندما تحقق من الأمر ألقى مسؤولية تلك الاضطرابات إلى واليه عيسى بن منصور ، وقال له: ((لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون ، وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد)) ، ثم أمر بعزل الوالي واستعمل طرق اللين والشدة مع الثوار حتى هدأت الأحوال ، وعاد إلى بغداد في صفر سنة ٢١٧هـ/مارس ٨٣٢م[2].

الأوضاع في أذربيجان:

حركة بابك الخرمي:

إن نزوح القبائل العربية غير المنظم من جنوب العراق إلى أذربيجان في عهد المنصور نتج عنه مع مرور الزمن أزمة اقتصادية ؛ نتيجة الضغط الشديد على موارد هذه المنطقة التي تعدّ في غالبيتها موارد معدنية[3]. وقد أدى

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١٦ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٢ (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د.ت) ، ص٢٠٤-٢٠٥ ، ٢٠٨ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٢٥ ، ٦٢٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم، ج٣ ، ص٢١٥-٢١٦.

٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٣٧١ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٣٥٤ .

سوء الأوضاع الاقتصادية فيها إلى قيام انتفاضة من قبل الأهالي المحليين فسرت على أنها انتفاضة مذهبية سياسية ، وعرفت في التاريخ باسم ثورة بابك الخرمي . ومن المدهش أن هذه الحركة تميزت بسعة انتشارها وبراعة قياداتها واتصالها بقوميات مختلفة ، كما اشتركت فيها القبائل العربية التي استقرت في المنطقة وكل من له مصلحة[١]. ومن المعروف أن منطقة أذربيجان هي عبارة عن سهول خصبة تمتد بها سلاسل جبلية تحتوي على موارد معدنية . ومن المؤكد أن وجود هذه المعادن النفيسة هي جوهر القضية والذي يؤكد ذلك هي رواية الأزدي التي تشير بأنه قدم على المأمون وفد من المنطقة يحملون معهم أكثر من أربعين عينة من معادن هذه المنطقة ، وذكروا له أن سبب المشاكل في أذربيجان هو الصراع على هذه المعادن[٢].

وعرفت هذه الحركة (بالبابكية) نسبة إلى زعيمها بابك بن بهرام الخرمي الذي اتخذ من الخرمية التي تبيح كثيراً من المحرمات مذهباً له. وقد انقسمت الخرمية إلى فئات متعددة ، منها الخرمية المحمرة ، والخرمية البابكية التي تزعمها بابك بن بهرام ، وانتشرت في جبال أذربيجان وأران ، ومركزها البذ أحد كور أذربيجان .

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى (بلاد أباد) ، وعرف بشدة طموحه السياسي فاتصل بجويدان ملك جبال البذ ، ورئيس من بها من الخرمية ، فخدمه وأصبح من خواصه ، حتى قيل إن جويدان قبل وفاته أوصى زوجته بأن يكون بابك خليفته قائلاً عن بابك إنه ((سيبلغ بنفسه وبكم – أي الخرمية – حداً لم يبلغه أحد من قبل ، ولا يبلغه أحد بعده ، وأنه يملك الأرض ، ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ، ويعز به ذليلكم ويرفع به وضيعكم))[٣].

---

١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٤٦١-٤٦٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦١٩ ، ٦٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١٧-٢١٨ .

٢) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٣٥٤ .

٣) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٢٥١ ؛ ابن النديم ، الفهرست (بيروت: دار المعرفة ، د.ت) ، = ص٤٨٠-٤٨٢ .

وقد ظهرت هذه الحركة منذ أواخر عهد الرشيد واشتد بأسها أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون ؛ حيث مكنت المنتفضين من الاعتصام ومقاومة الحملات التي كانت توجهها لهم بغداد . وعندما عاد المأمون إلى بغداد أرسل عدة حملات لمحاربة بابك باءت جميعها بالفشل كانت أخرها الحملة التي أرسلها بقيادة محمد بن حميد الطوسي ، الذي توجه إلى أذربيجان لملاقاة بابك وتوغل في البلاد الجبلية نحو معاقله الحصينة ، إلا أن قوات بابك التي كانت محصنة في الجبال خرجت عليه من كل جانب ، وفتكت بالجيش وقتل محمد بن حميد ، وظل بابك وأتباعه معتصمين بجبال أذربيجان حتى وفاة المأمـــون سنـــة ٢١٨هـ/٨٣٣م[١].

سياسة المأمون الخارجية:

سار المأمون على نهج وسياسة أسلافه العدائية ضد البيزنطيين ، على الرغم من انشغاله بالقضاء على ثورة بابك ، والفتن الداخلية التي تعرض لها حكمه. إلا أنه يبدو أن المأمون أراد أن يحقق ما عجز عن تحقيقه خلفاء العباسيين الذين سبقوه ، وذلك بالهيمنة على العرش البيزنطي عن طريق عقد المؤامرات ، والأحلاف مع أعداء الإمبراطورية البيزنطية . فاستغل فرصة الثورة الداخلية التي تزعمها توماس الصقلبي ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م فأمده بالمال والسلاح ليتمكن من الاستيلاء على القسطنطينية ، وبالتالي على الحكم . إلا أن اكتشاف أمر المؤامرة من قبل الإمبراطور ، وهزيمة توماس وقتله وصلبه على أبواب مدينة القسطنطينية سنة ٢٠٩هـ/٨٢٣م فوت على المأمون هذه الفرصة[٢].

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ، ص٤٦٢-٤٦٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٧٦ ، ٦٠١ ، ٦١٩ ، ٦٢٢ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٣٥٣ ، ٣٥٤-٣٥٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢-٣٩١ .

٢) حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ط٥ (القاهرة: دار الفكر العربي ، ص ١٧٣ ؛ أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي (بيروت: دار النهضة العربية ، د.ت) ، ص١١٢ .

وممّا يدلنا على رغبة المأمون الجدية في سيطرته على القسطنطينية هو تنظيمه للحملات التي قادها بنفسه تنظيماً دقيقاً ، واتخاذه موقف الهجوم وتغلغله داخل الأراضي البيزنطية ، ورفضه لعرض الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي أرسل إليه وفداً يطلب منه عقد الهدنة بين الطرفين(١).

ففي صفر سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م خرج المأمون مصطحباً معه ابنه العباس على رأس جيش لمحاربة البيزنطيين ، كما استدعى أخاه المعتصم من مصر للحاق به ، فاستطاع أن يتوغل داخل الأراضي البيزنطية وفتح حصن (ماجدة) ، وحصن (قُرَّة) ، ووجه قواده للاستيلاء على الحصون الأخرى مثل حصن (سندس) ، وحصن (سنان) ، مما اضطر قادة هذه الحصون إلى الاستسلام والخضوع لشروط المسلمين وعندما حل الشتاء عاد المأمون إلى بلاد الشام(٢).

وعندما تحسنت الأحوال المناخية عاود المأمون القتال في السنة التالية ٢١٦هـ/٨٣١م ، واستطاع في هذه الحملة فتح ثلاثين حصناً ومطمورة (نقاط محصنة) ، واجتاز الحدود حتى وصل إلى أذنة . فأرسل إليه الإمبراطور تيوفيل رسولاً يعرض عليه الصلح ، وكان الخطاب الذي أرسله يبدأ باسم الإمبراطور ، فأثار ذلك سخط المأمون ورده دون أن يأخذ بما جاء به ، فأرسل إليه الإمبراطور رسالة أخرى عرض عليه فيها أن يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده ، وهم سبعة آلاف أسير ، وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمسة سنين فلم يجبه إلى ذلك وعاد إلى بلاد الشام(٣).

وعاود المأمون القتال مرة أخرى في العام ٢١٧هـ/٨٣٢م وتوغل داخل الأراضي البيزنطية بعد أن ضم إلى جيشه عدداً كبيراً من أجناد الشام

---

١) البلاذري ، فتوح ، ص١٩٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٢٩-٦٣٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٢٣-٦٢٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢١٨-٢١٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٢٥ ، ٦٢٩-٦٣٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٢٠ .

وحاصر أكبر الحصون البيزنطية على الحدود ، وهي حصن لؤلؤة الـذي يقع على مفارق الطرق ، وأقام على حصاره مائة يوم دون أن يتمكن من الاستيلاء عليه في أول الأمر ، ولكنه تمكن من فتحه بعد ذلك ، وكرر تيوفيل طلب الهدنة فلم يجبه المأمون إلى ذلك[١].

وفي سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م أرسل المأمون ابنه العباس إلى (طوانة) وهي من مدن الروم على فم الدرب ، شمال طرسوس لبنائها وتحصينها بالجند الذين جلبهم من المناطق المختلفة ، وأجرى لهم العطاء ؛ للفارس ١٠٠ درهم والراجل ٤٠ درهماً تشجيعاً لهم للاستيطان بها . ثم شرع المأمون بعد ذلك لحصار عمورية، غير أنه لم يلبث أن توفي على نهر البدندون قرب طرسوس في رجب سنة ٢١٨هـ/أغسطس ٨٣٣م ، وحمل إلى طرسوس ودفن فيها واضطر المسلمون إلى إخلاء موقعهم فيما وراء جبال طوروس[٢]. فانتقلت الخلافة من بعده إلى أخيه المعتصم ، الذي أوصى إليه بالخلافة قبل وفاته متجاوزاً بذلك ابنه العباس .

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٦٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٢١ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ج٤٦٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٥٠ .

الفصل السابع

عنصر جديد في حلبة التنافس العسكري

(٢١٨-٢٣٢هـ/٨٣٣-٨٤٧م)

١- خلافة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله

٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م

٢- خلافة أبي جعفر هارون الواثق بالله

٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٧م

الإمام احمد بن حنبل
ابرز الأئمة الذين تعرضوا للفتن

خلافة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله ٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م:

ولد المعتصم أثناء خلافة والده الرشيد بقصر ((الخلد)) ببغداد سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م ، من أم تركية من مولدات الكوفة تدعى (ماردة) ، أهمل الرشيد تربيته وتأديبه فنشأ ضعيف القراءة والكتابة محدود الثقافة . والسبب في ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتّاب غلام ، فمات الغلام فقال له الرشيد: ما فعل غلامك ؟ فقال مات واستراح من الكتّاب ، فقال له الرشيد قد بلغ منك كراهية الكتاب إلى أن تجعل للموت راحة منه ، والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتاب[١]. إلا أنه اهتم في شبابه بالصيد والفروسية ، وتربى في البادية فنشأ فصيحاً شجاعاً مقداماً حتى قيل ، إنه كان أهيب خلفاء بني العباس[٢].

تولى الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون بطرسوس سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م بوصية منه متجاوزاً ابنه العباس . إلا أن بعض القادة العسكريين من الأبناء سعى إلى تولية العباس ابن المأمون ، مما يدل على علاقه المعتصم الوثيقة بالجند الجدد القادمين من الشرق . كما يدل أيضاً على أن المأمون كان يدرك مدى علاقة ابنه بفئة الأبناء، وأن تولية أخيه المعتصم الخلافة من بعده كان بدافع إبعاد الأبناء عن مزاولة السلطة مرة أخرى . وقد تردد العباس في بداية الأمر من البيعة لعمه المعتصم ، ولكن حزم المعتصم أنهى تردده وأجبره على المبادرة بالبيعة ثم تبعه الجند . فما كان من المعتصم إلا أن أمر بهدم معقل طوانة الذي كان العباس بناه وحصنه بالجند المقربين إليه ، كما أمر المعتصم بسحب الجند المستوطنين فيه ، وحمل من السلاح ما استطاع حمله قبل عودته إلى بغداد[٣].

١) اليعقوبي ، ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١١٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص٢٩٥ .

٢) المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص٤٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٢ ، ص٢٥١ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٦٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٣١ .

والمعتصم هو أول من أضاف إلى لقبه لفظ الجلالة (المعتصم بالله) ونقشه على خاتمه . وسمي (بالمثمن) ؛ لأنه ثامن الخلفاء العباسيين وكانت خلافته ثماني سنوات ، وثمانية أشهر ، وثمانية أيام ، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون عاماً ، وخلف ثمانية ذكور ، وثماني بنات ، وتمكن من إحراز ثمانية فتوحات[١].

سياسة المعتصم الداخلية:

إن أهم ما يميز سياسة المعتصم الداخلية ، هو استكثاره من العناصر القادمة من الشرق ، التي انخرطت في جيش الحكومة المركزية . إذ عمل المعتصم على إقناع رؤسائهم ، وأمرائهم بالتجنيد في جيش الحكومة النظامي . وقد عرف هؤلاء في مصادرنا التاريخية باسم (الأتراك) بدون تحديد دقيق للكلمة . حتى أنهم كانوا يسمون أهالي جرجان ، وخوارزم ، وسجستان ، وجميع الشعوب التي كانت تقطن شرق حدود الدولـــة الساسانيـــة (أتراكاً) [٢]. وقد ضلل ذلك التعميم في استعمال الكلمة الكثير من الباحثين حتى أطلقوا على الفترة التالية لعهد المعتصم اسم ((عصر النفوذ التركي)) وعزوا جميع ما حصل فيه إليهم .

وعلى أية حال فقد جاء عصر المعتصم ، والجيش العباسي النظامي كان يتألف في معظمه من:

- الخراسانية والتي تفرعت عنها فئة الأبناء ، وهم الجيل الثالث ، أو الرابع من نسل الخراسانية في العراق .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص٢٩٥ .

٢) البلاذري ، فتوح ، ص٤١٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٤٦١ ، ج٩ ، ص١٨ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص٥٣ .

- العباسية وهم الذين جندهم الفضل بن يحي البرمكي في خراسان في عهد الرشيد وبلغ عددهم ٥٠ ألف جندي ، أرسل منهم إلى بغداد عشرين ألفاً وهم الذين وصفوا باسم موالي الخليفة .

- الجند العرب الذين تضاءل استخدامهم تدريجياً في الجيش فتحولوا إلى جنود يتطوعون للعمل مع القواد العرب الذين يعهد إليهم بالتجنيد في بعض المهمات العسكرية ، وقد أنهى المعتصم هذا الدور لعدم خضوعهم لنظام التجنيد .

- المغاربة من الحوف في مصر .

- الجند السوري من أهل الشام ، والموصل ، والجزيرة .

وأخيراً الجند الجدد القادمين من المشرق في عهد المعتصم الذين يمكن أن نطلق عليهم اصطلاح (المشارقة الجدد) تمييزاً لهم عن باقي الجند القادمين من المشرق كالخراسانية والعباسية وغيرهم . وقد اجتمع منهم ما يقرب من أربعة آلاف جندي في خلافة أخيه المأمون اصطحبهم معه إلى مصر حين ذهب والياً عليها[١].

وعندما تولى المعتصم الخلافة فتح الباب على مصراعيه أمام القادمين الجدد من المشارقة لينخرطوا في جيش الحكومة المركزية . فجاءوا على هيئة جماعات تحت زعامة رؤسائهم ، الذين كان كثير منهم أمراء محليين في المشرق ، كالإفشين الذي كان أمير منطقة أشروسنة في بلاد الصغد ، وعجيف بن عنبسة ، وشيري باميان ، وعمرو الفرغاني ، ومنكجور الفرغاني . كما جاءوا على هيئة أفراد وعندما أثبت هؤلاء الأفراد مقدرة عسكرية عينوا موالي للخليفة[٢].

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٦٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٣١ ؛ الكندي ، الولاة ، ص١٨٨ .

٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤١٩-٤٢٠ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٥٧٩ ، ج٩ ، ص١٠-١١ ، ص٢٨ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ١٠٢ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ٤١١ ، ٤١٦ .

وقد بلغ عدد هؤلاء القادمين في بداية عهد المعتصم ما يقرب من ثمانية عشر ألفاً ، قدموا من مناطق متفرقة من بخارى ، وسمرقند ، وفرغانة ، وأشروسنة وغيرها . ثم زاد عددهم حتى بلغوا عشرات الألوف(١). وأخذت تبرز من بينهم شخصيات قيادية كان لها أثر كبير في الحياة العامة ، أمثال الإفشين وأيتاخ وأشناس ، ووصيف وبغا ، وسيما الدمشقي .

وعن طريق هؤلاء المشارقة حقق المعتصم جميع الانتصارات التي تمت في عهده . ويبدو أن اعتماد المعتصم على هؤلاء المشارقة كان بسبب عدم اطمئنانه لباقي فئات الجند ، وخاصة فئة الأبناء والعباسية ، الذين عارضوا خلافته وأظهروا تأييدهم للعباس بن المأمون بعد وفاة والده .

وترتب على زيادة عدد المشارقة الجدد في جيش المعتصم أن عمد إلى بناء مدينة سامراء لتكون بمثابة معسكر لهم . ويذكر المؤرخون أن السبب في انتقال المعتصم إلى سامراء هو إبعاد مواليه الأتراك عن الأبناء الذين كانوا معارضين لسياسته ومخططاته نحو الاستكثار من هؤلاء المشارقة والاعتماد عليهم في الجندية، فوقفوا مدافعين لاستعادة نفوذهم ، وعملوا على مضايقة هذه القوات فاضطر المعتصم عن الابتعاد عن مدينة السلام واتخاذ سامراء معسكراً لجنده وعاصمة له(٢).

بناء مدينة سامراء:

شرع المعتصم في بناء عاصمته الجديدة سامراء سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م فجلب لبنائها من الأمصار المختلفة، العمال ، والبنائين ، وأهل المهن من الحدادين، والنجارين ، وسائر الصناعات . ووضع أساس قصره وعهد إلى أشناس ببناء باقي القصور والدور ، وجلب أصناف الأشجار المثمرة من جميع

---

١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٥٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٧٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٣٦ .

البلدان ، فغرست البساتين في كل مكان ، وخطت القطائع للقواد والكتاب ، وخط المسجد الجامع ، واختط حوله الأسواق صفوفاً وجعل لكل صناعة وتجارة شارعاً ، وأقيمت دواوين الدولة وشيدت ثكنات لسكنى ٢٥٠ ألــف جندي(١). أما عن تسميتها فسميت في البداية (بسر من رأى) لجمال بنائها وحسن تنظيمها ، فخففها الناس بعد هجرها وقالوا (سامراء)(٢). وتقع على مسافة ستين ميلاً شمال بغداد ، وظلت خمسين عاماً عاصمة للعباسيين .

موقف المعتصم من الحركات المعارضة:

القضاء على فتنة الزط:

كان من أولى اهتمامات المعتصم عندما تولى الحكم هو القضاء على الفتن والاضطرابات التي ظهرت في عهد أخيه المأمون ، وقد توفي دون أن يضع حداً لها . وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون ونفذ جميع ما أوصاه به ، من حيث الاهتمام بأمر الرعية ، ومحاربة الخارجين على الدولة وعدم التهاون معهم .

وفي بدايــة عهد المعتــصم كانت قــد تهيــأت لجمــاعــة الزط الثائرين بجــنوب العــراق فرصــة أكبر لنجاح انتفاضتهم ، وذلك بانضمام العناصر الساخطة الأخرى ، مثل العبيد الفارين من المناطق الأخرى ، وكذلك موالي قبيلة باهلة وغيرهم . وقد شجع هؤلاء جميعاً الزط على المجاهرة بالعصيان وقطع الطريق والقيام بأعمال السلب والإرهاب(٣). ونتج عن ذلك أن سيطروا سيطرة تامة علــى طرق المواصــلات بيــن البصــرة وبغداد ، وحالوا دون وصول الأقوات

---

١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ، ص٢٥٣ ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٢-٤٧٣ ؛ الطبري ، ج٩ ، ص١٧-١٨ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٤٢٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٥٤-٥٥ .

٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٧٣-١٧٤ .

٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٦٨ .

إلى بغداد ، فتعطلت طرق المواصلات والنقل المائية مدة طويلة . فقام المعتصم بإرسال جيش عظيم لحربهم سنة ٢١٩هـ/٨٢٤م جعل على قيادته أحد قواده وهو أحمد بن يوسف بن مسلم بن قتيبة الباهلي ، ولكنهم هزموه وفرضوا المكوس والرسوم الجائرة على السفن المارة من البصرة إلى الكوفة . وكان سبب نجاحهم وانتصارهم على الجيوش العباسية اتخاذهم أسلوب حرب العصابات ، وهو أسلوب الكر والفر السريع وساعدهم في ذلك طبيعة المنطقة من حيث امتلائها بالبرك ، والمستنقعات ، والأعشاب والبوص .

وعلى أثر انهزام أحمد بن يوسف الباهلي قرر المعتصم اتخاذ الإجراءات العسكرية الصارمة ، والقضاء على فتنة هذه العناصر الساخطة التي هددت مرافق دولته نهائياً . فجهز جيشاً قوياً ضم إليه من القواد والجند خلقاً كثيراً وجعل على قيادته عجيف بن عنبسة . وبلغ من اهتمام المعتصم بهذه الحملة أن رتب المحطات على طريق بغداد - البصرة وجهزها بالمؤن اللازمة والخيول السريعة ، فكانت أخبار المعركة تصله وهو بمدينة السلام أولاً بأول في ساعات النهار ، أو أوائل الليل(١).

وقد استخدم عجيف مع الزط أسلوب الشدة والحزم ، واتبع معهم تكتيكاً حربياً لم يستخدمه معهم أحد من القواد السابقين له ، فعسكر بالقرب من واسط بقرية يقال لها (الصافية) في خمسة آلاف رجل ، وضيق عليهم الخناق ، وأخذ يسد عليهم المسالك البرية والنهرية ، وحبس مياه الأنهار عنهم وحاصرهم من كل جانب حتى يحملهم على الاستسلام . وفي أولى جولاته معهم أسر منهم خمسمائة ، وقتل ثلاثمائة رجل ، ثم ضرب أعناق الأسرى ، وبعث برؤسهم إلى المعتصم ، وظل يحاصرهم مدة تسعة أشهر ، حتى أرغمهم على طلب الأمان حين أدركوا أنه لا مفر لهم من ذلك ، فأمنهم فخرجوا إليه ، وكان

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٦٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٣٢ .

عددهم سبعة وعشرين ألفاً بين رجل وامرأة وطفل ، وقد بلغ عدد مقاتليهم اثني عشر ألفاً[1].

وبعد هزيمة الزط حملهم القائد عجيف في السفن ، وهم على هيئتهم في الحرب ومعهم الأبواق ، وأعطى لكل من أصحابه دينارين جائزة ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م ، فمروا أمام الخليفة المعتصم ورجال دولته وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام ، نقلوا بعدها إلى الجانب الشرقي من بغداد. ثم أمر المعتصم بعد ذلك بنفيهم إلى (خانقين) في آسيا الصغرى ثم نقلوا بعدها إلى عين زربة ، وبقوا هناك حتى أغار البيزنطيون على مدينة عين زربة سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م فأسروا من كان فيها ونقلوهم إلى الأناضول[2]. والحقيقة أن انتفاضة الزط هذه ما هي إلا بداية سلسلة من الانتفاضات الأخرى التي شهدتها منطقة جنوب العراق مثل حركة الزنج والقرامطة، وحركة عمران بن شاهين.

القضاء على حركة بابك الخرمي:

كان المأمون قبل وفاته قد أوصى أخاه المعتصم بأن يتجرد لحركة بابك بالمال والسلاح والجنود ، لهذا سخر المعتصم جميع قواته لقتال بابك واختار لقيادة جيوشه خيرة قواده . ففي سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م أرسل المعتصم قائده إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على رأس جيش لمحاربة اتباع بابك في إيران. وقد تمكن إسحاق بن إبراهيم من تمزيق شمل الخرمية في همذان بعد أن قتل قسماً كبيراً منهم ، وهرب الباقون ، وبذلك استطاع إبراهيم من القضاء على اتباع بابك في إيران ، وانحسر القتال في أذربيجان معقل البابكية الأصلي[3].

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٦٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٨-١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٣٢ ، ٢٣٣ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٢١ .

٢) خليفة ابن خياط ، تاريخ ابن خليفة ، ص٤٧٦ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٦٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٠ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٢٣ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٨ ، ص٦٦٨-٦٦٩ .

وأبدى المعتصم اهتماماً كبيراً بتدعيم مركز قواته وأشرف بنفسه على سير المعارك ووضع الخطط ، وعين سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م الإفشين حيدر بن كاوس أعظم قواده أميراً على بلاد الجبال وأمره بقتال بابك كما وجه محمداً بن يوسف إلى أردبيل وحشدها بالجند لحفظ الطريق وتأمين وصول الميرة إلى قواته ، ورتب البريد حتى صارت الرسائل تصل من معسكر الإفشين إلى سامراء في مدة أربعة أيام أو أقل(١).

عسكر الإفشين في برزند من نواحي تفليس ، واستخدم أسلوب الحذر والتجسس مع عدوه ، فأطلق الأسرى الذين جندهم للتجسس لحسابه بعد أن أغراهم بالأموال والعطايا .

شعر بابك بالخطر المحدق به فاستنجد بالإمبراطور البيزنطي مناشداً إياه الهجوم على الثغور الإسلامية ، حتى يشغل المعتصم بفتح جبهة حربية أخرى له . إلا أن هذه المؤامرة لم تنجح أمام الضربات التي وجهها إليه جيش الإفشين . فتحصن بابك في مدينة البذ فزحف الإفشين نحوه وحاصر معقله بالبذ مدة طويلة ، حتى تمكن من دخولها يوم الجمعة في ١٠ رمضان عام ٢٢٢هـ/أغسطس ٨٣٧م. إلا أن بابك تمكن من الهرب إلى أرمينية فكتب الإفشين إلى أمرائها وبطارقتها ، بسد الطرق في وجهه ، فوقع بابك وأخوه في قبضة أحد بطارقتها ويدعى (سهل بن سنباط) وسلمهما إلى الإفشين . وجيء ببابك وأخيه إلى المعتصم بسامراء فأمر بقطع يدي بابك ورجليه ، ثم قتله وصلبه على أبواب سامراء وصلب معه أخاه عبد الله(٢). وهكذا انتهت هذه الحركة بعد أن أقلقت مضاجع الخلافة العباسية ، وكلفتها الكثير من الأموال والأرواح منذ عهد المأمون .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١١-١٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٥٥ ، ٥٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٣٤ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٣-٤٧٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣١-٥٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٤٠-٢٤٦ .

انتفاضة المازيار:

ما كادت تنتهي فتنة بابك الخرمي حتى ظهرت انتفاضة لم تكن متوقعة في طبرستان من قبل أميرها ، ويدعى (المازيار محمد بن قارن بن بنداد هرمز) ، أحد موالي المأمون وثقاته ، وأكثر الأمراء المتعاونين معه . ولاه المأمون ولاية طبرستان ولقبه (بالإصبهيذ) ، لأنه كان من نسل الأمراء القريانيين الذين كان لهم حكم طبرستان في الزمن الإسلامي والساساني قبله ، ويبدو أن لآل طاهر دوراً في انتفاضة المازيار . فكما هو معروف أن المأمون ولى طاهر بن الحسين مؤسس الأسرة الطاهرية ولاية خراسان عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م ، وجعلها وراثية في عقبه مما أثار حقد الأمراء المحليين أمثال المازيار الذين أنفوا من أن يخضعوا لسيطرة آل طاهر . والذي يدلنا على أنفة المازيار من الخضوع للطاهريين هو أن المازيار كان لا يحمل خراج منطقة طبرستان إلى الطاهريين على الرغم من تبعية إقليم طبرستان لإقليم خراسان ، وإنما كان يرسل الخراج إلى المعتصم مباشرة[١].

استغل المازيار حقد الإفشين قائد المعتصم هو الآخر على الطاهريين فاتصل به واتفق معه على العمل سوياً ضد آل طاهر . ويظهر من الروايات التاريخية أن علاقة المازيار بالإفشين كانت علاقة عميقة الجذور وثيقة الصلة، وذلك لأن كلاً منهما كان سليل أسرة حاكمة التجأ إلى المأمون وأسلما على يديه على إثر نزاع وقع بين كل منهما وأسرته على العرش ، وأصبحا من مواليه وخاصته . وقد كان إسلام المازيار والإفشين سطحياً ولم يتعمق الدين فيهما ، يذكر المسعودي ((أن الإفشين والمازيار كانا قد اجتمعا على دين اتفقا عليه من مذاهب الوثنية والمجوس))[٢]. كما كان المازيار يكاتب بابك ويعرض

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥٣ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٦١ .

عليه المساعدة[١]. والراجح أنه كان على مذهب المجوس .

وبازدياد نفوذ الطاهريين في منطقة خراسان ضعف نفوذ المازيار ووجد صعوبة في المحافظة على الأمن في ولايته فأعلن المازيار العصيان على سلطة الطاهريين بأن اعتقل عدداً كبيراً من أهل آمل وسارية ، وكان أغلبهم من العرب والأبناء وكبلهم بالحديد ، وحبسهم ، وقد زاد عددهم على عشرين ألفاً . كما أمر الفلاحين بالوثوب على أرباب الضياع وقتلهم – وكان قسم كبير منهم من العرب أو مواليهم – وانتهاب أموالهم وحرماتهم[٢].

لم يقف المعتصم ولا الطاهريون مكتوفي الأيدي أمام مجاهرة المازيار بالعصيان ، فسرعان ما تحركا وعملا على إخماد هذه الانتفاضة التي لم تكلف جيوشهما القوية الكثير من الجهد . وأخيراً تم اعتقال المازيار ، وكانت نهايته شبيهة بنهاية بابك ، حيث قتله المعتصم وصلبه وعين على طبرستان والياً آخر من نفس العائلة[٣].

نهاية الإفشين:

أما عن نهاية الإفشين أحد أبرز قواد المعتصم ، الذي لمع اسمه بعد تمكنه من القضاء على انتفاضة بابك الخرمي ، وبعد انتصاره في موقعة عمورية فكانت شبيهة أيضاً بنهاية المازيار ، إذ قبض عليه الخليفة وألقى به في السجن ومن ثم قتله . والسبب في ذلك بأن الإفشين كانت له أطماع سياسية بتأسيس دولة ذات استقلال ذاتي في بلاده اشروسنه ثمناً للانتصارات المتكررة التي حققها للمعتصم ، ومكفأة له لقاء خدماته كتلك التي منحها المأمون للطاهريين في خراسان . وعندما لم يحقق له المعتصم رغبته هذه ، لوجود

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٨٤–٨٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥٣ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٨٠–١٠١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥٤–٢٥٧ .

السامانيين المخلصين للحكومة المركزية والمسؤولين عن حماية تلك المنطقة بدأ الإفشين يخطط سراً لتنفيذ رغبته .

وقد استطاع المعتصم أن يقف على أهداف الإفشين ومخططاته عن طريق الطاهرين الذين ضبطوا رسائله إلى المازيار ، يوافقه فيها على العصيان والتمرد[١]. كذلك رسائله إلى والي أذربيجان (منكجور الفرغاني) محرضاً إياه على العصيان[٢]. فتغيرت سياسة المعتصم تجاهه فبدأ بتقليص نفوذه العسكري بأن قسم الجيش الذي تحت إمرته إلى قسمين ، قسم معه ، والقسم الآخر جعله تحت قيادة أشناس . فلما أحس الإفشين بافتضاح أمره وتغير المعتصم عليه ، هم بالهرب ، فلم يتمكن من ذلك . مما دفعه إلى محاولة التخلص من المعتصم وقواده بعمل وليمة يدس لهم السم في الطعام ، ويهرب بعدها إلى بلاده عن طريق أرمينية والخزر ، ويستميل الخزر إليه .

إلا أن محاولته هذه باءت بالفشل ، وقبض عليه وألقي في السجن في ذي القعدة سنة ٢٢٥هـ/أكتوبر ٨٤٠م بعد محاكمته ، حيث توفي في السنة التالية[٣]. أما عن رجال جيشه فبقوا مخلصين للمعتصم ، ومنهم ابن الإفشين الذي ما لبث أن اصبح أحد أبرز قواد الجيش[٤].

وزراء المعتصم:

استخدم المعتصم عدداً من الوزراء من بينهم الفضل بن مروان الذي كان نصرانياً من أهل البردان[٥]. إلا أنه وصف بأنه كان عامياً لا علم عنده ولا معرفة ، رديء السيرة جاهلاً بالأمور ، قليل المعرفة ، بالعلم حسن

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥٩-٢٦٠ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٧-٤٨٨ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٠٢ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٠٤-١١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥٩-٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٥٨ .

٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٥ .

المعرفة بخدمة الملوك[١]. ويرجع السبب في تعيين المعتصم له في منصب الوزارة أنه كان كاتبه قبل توليه الخلافة ، وأنه قام بأمر البيعة له في بغداد وضبط الأمور فيها حتى عاد المعتصم . وعلى الرغم من صفة الجهل التي اتصف بها الفضل بن مروان إلا أنه تمكن من السيطرة على أمور الخلافة ، واحتل منزلة رفيعة لدى المعتصم ، ومنح سلطات وصلاحيات واسعة[٢]. ولكن المعتصم ما لبث أن تبين له جهله وتحكمه في الإدارة ، فأمر بعزله من منصبه في رجب سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م وحبسه وصادر أمواله ثم عفا عنه ، فأخذ الفضل يتنقل في البلاد مدة من الزمن ، حتى مات في عهد المستعين سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م[٣].

بعدما عزل المعتصم الفضل بن مروان استعان بالتجار في إدارة شئون الدولة خاصة المالية منها ، وذلك لما لهم من قوة اقتصادية فعين التاجر الثري محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات وزيراً له[٤]. وقد عرف بابن الزيات ؛ لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من قريته تدعى (جيل) جنوبي بغداد ليتاجر فيه . وقد نال ابن الزيات حظاً عظيماً من العلوم والآداب ، ساعده على القيام بأعباء الوزارة خير قيام طيلة عهد المعتصم وابنه الواثق .

فمن سياسته المالية التي عمل بها أثناء وزارته هي إلغاء ضريبة العشر على السفن الواردة من وإلى موانئ الخليج[٥] ، عبر المحيط الهندي من شرقي أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ، والشرق الأقصى . ويبدو أن إلغاء هذه الضريبة كان بالدرجة الأولى لمصلحة الأغنياء أمثال ابن الزيات نفسه ، لأن إلغاء هذه الضريبة ، وإن أدى إلى خفض الأسعار نوعاً ما ، إلا أنه لم يستفد منها عامة الشعب والفقراء ، لأنها كانت تتاجر بالسلع الكمالية .

١) ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٣٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٥ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٠-٢١ .
٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص١٢٧ .
٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٠ ، ١٦٠-١٦١ .
٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٥٠ .

ويعد ابن الزيات رغم عيوبه التي تميزت بالقسوة خاصة في جمع الضرائب وعدم محبة الناس له ، آخر وزراء العصر العباسي الأول الأفاضل العلماء ، وكان الوزير الوحيد الذي وزر وزارة واحدة لم يقطعها عزل أو صرف لثلاثة خلفاء متتابعين[١].

سياسة المعتصم الخارجية

سياسته مع البيزنطيين:

لم يكن اهتمام المعتصم يقل عن اهتمام أسلافه بالجبهة البيزنطية ، إلا أن إخماد الفتن التي ورثها عن عهد أخيه المأمون ، مثل انتفاضة الزط وبابك الخرمي شغلته في بداية عهده عن الجبهة البيزنطية ، فساد الهدوء بعض الوقت في مناطق الحدود مع البيزنطيين . إلا أنه ما كاد يمضي على خلافته أربع سنوات حتى عاد القتال من جديد بين البيزنطيين والمسلمين . فقد استغل ثيوفيل إمبراطور الدولة البيزنطية انشغال المعتصم بإخماد انتفاضة بابك الخرمي في أذربيجان فعمل على احتضان هذه الانتفاضة ، وقد شجعه على ذلك استنجاد بابك به ، وتحريضه على الإغارة على الأراضي الإسلامية الخالية من وسائل الدفاع ، لأن قوات المعتصم جميعها منشغلة بحركته . وقد أراد بابك بذلك أن يخفف وطأة الجيش الذي يحاصره ووعده باعتناق المسيحية[٢].

أعد الإمبراطور ثيوفيل جيشاً قوامه مائة ألف جندي اتجه به إلى أعالي الفرات ليفتح الطريق بينه وبين بابك حتى يتمكن من الاتصال بأتباع بابك في أرمينيا وأذربيجان ، وهاجم حصن زبطرة أقرب الثغور إلى البيزنطيين سنة

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٦ ؛ الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص٢٢٤ .

٢٢٣هـ/٨٣٨م وأشعل النيران فيها بعد أن دمرها وقتل وأسر من فيها ، ثم واصل إغاراته على ملطية وغيرها من الحصون القريبة . وسبى من النساء أكثر من ألف امرأة مسلمة ، ومثل بمن وقع في يده من المسلمين فسمل أعينهم وقطع آذانهم وأنوفهم(١).

عندما علم المعتصم بما حصل لأهل زبطرة وملطية عزم على نجدة أهلها بأسرع وقت ممكن ، فأرسل قسماً من جيشه بقيادة عجيف بن عنبسة عوناً لأهلها ، فتمكن هذا الجيش من إعادة السكان إلى مدنهم وقراهم ، وكان ثيوفيل قد رجع إلى بلاده. كما عزم المعتصم على الرد السريع والانتقام من البيزنطيين ، ولكنه آثر القضاء على ثورة بابك أولاً .

بعد أن من الله على المعتصم بالانتصار على بابك والقبض عليه والقضاء على العصاة والمتمردين بأذربيجان صمم على الخروج بنفسه لمحاربة البيزنطيين . وتشير الروايات التاريخية إلى أن المعتصم ((تجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة من قبل من السلاح والعدة والعدد والآلات والبغال والدروع والجواشن وآلة النار والنفط)) وقدر عدد جيشه بأكثر من مائتي ألف مقاتل من المشارقة والخراسانية والعرب ، ومن أهل الشام والجزيرة(٢). ووقع اختياره على عمورية لتكون هدف حملته ؛ لأنها كانت من أحصن مدن البيزنطيين ، وموطن الأسرة الحاكمة . وأمر بأن يكتب على التروس والألوية اسم عمورية . ويقال إن الذي زاد من حماس المعتصم هو استغاثة امرأة هاشمية وقعت في الأسر بقولها (وامعتصماه) ، فلما بلغه النبأ استعظمه وقرر الانتقام من البيزنطيين من ساعته(٣).

---

١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٩٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٦٠ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٤٧ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٢٧-٣٢٨ .

زحف المعتصم بهذه الجيوش المعدة إعداداً منظماً إلى منطقة الثغور الإسلامية . وجعل على مقدمته أشناس ، وعلى ميمنته إيتاخ ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار ، وعلى القلب عجيف بن عنبسة ، وأقام على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس[١]. وهنا عمل على تقسيم الجيش إلى فرق فوجه فرقة بقيادة الإفشين إلى مدينة سروج ، وأمره بأن يتجه إلى أنقرة عن طريق درب الحدث ، وفرقة بقيادة أشناس ، وأمره أن يدخل الأراضي البيزنطية من درب طرسوس وأن ينتظره بالصفصاف . واتفقوا على أن يلتقوا عند أنقرة فإذا تم فتحها توجهوا جميعاً نحو عمورية .

بهذه الجيوش وبهذا التكتيك الحربي استطاع المعتصم اقتحام أنقرة وهزيمة الجيوش البيزنطية شر هزيمة . فما كان من ثيوفيل إلا أن أرسل إلى المعتصم يطلب الصلح معتذراً عما بدر منه ومن قواته في زبطرة ، ووعده أنه في حالة الصلح سوف يفك أسر جميع من عنده من أسرى المسلمين ، وأن يعيد بناء مدينة زبطرة وإعادة أهلها إليها. إلا أن المعتصم رفض مبادرة الصلح هذه واتجه نحو عمورية وحاصرها حصاراً شديداً لمدة أسبوعين ، ونجح في اقتحام المدينة عنوة رغم المقاومة العنيفة التي أبداها أهلها ، وعلى الرغم من حصانتها ومناعتها في رمضان ٢٢٣هـ/أغسطس ٨٣٨م ، ثم أمر المعتصم بهدم أسوارها وأسر أهلها بعد أن غنموا منها غنائم كثيرة[٢].

يروي المؤرخون أن المعتصم بعد أن اكتشف له ضعف البيزنطيين كان ينوي المضي ومواصلة انتصاراته بفتح القسطنطينية . إلا أنه اضطر إلى التوقف عن عزمه ، لأنه علم بالمؤامرة المحبوكة بين العباس ابن المأمون

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ص٦٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٢٨ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٠-٤٧٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٤٨-٢٥٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٢٨-٣٣٠ .

وبعض قادة الأبناء التي كانت تهدف إلى القضاء عليه ومبايعة العباس . وعندما علم المعتصم بخبر المؤامرة وهو في أرض الروم ألقى القبض على العباس ، وتتبع المتآمرين وأخذهم جميعاً وأمر بقتلهم ، فدفن العباس في منبج سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م(١).

لم تتوقف المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين بعد ذلك حتى سنة ٢٢٦هـ/٨٤١م ، وفيها أرسل الإمبراطور ثيوفيل إلى المعتصم الهدايا وعرض عليه عقد هدنة بين الطرفين وتبادل الأسرى . وقد لقي ذلك العرض القبول لدى المعتصم فتم عقد الهدنة في السنة التالية ، وهي السنة التي توفي فيها كل من العاهلين المعتصم وثيوفيل . ومات المعتصم وكان قد احتجم فأصيب عقب ذلك بالمرض الذي أدى إلى وفاته في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ/١٥ يناير ٨٤٢م ، بعد أن أوصى بالخلافة من بعده لابنه هارون الذي لقب (بالواثق)(٢).

خلافة أبي جعفر هارون الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م):

ولد أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده المعتصم ، وبعهد منه في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ/١٥ يناير ٨٤٢م . ولم يتعرض خلال فترة حكمه لأية منازعات من قبل أفراد الأسرة العباسية على السلطة ؛ لأن والده لم يجعل معه في الولاية غيره(٣).

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٧١ ، ٧٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٥١-٢٥٢ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٣٠-٣٣١ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١١٨-١١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٦٥ .

٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٧٩ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١١١ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٦٥ .

يعدُّ الواثق آخر خلفاء العصر العباسي الأول ، وهو الخليفة العباسي التاسع من حيث الترتيب . كانت مدة حكمه خمس سنوات وتسعة أشهر . عرف الواثق بحبه للعلم والأدب ، وكان يشبه عمه المأمون في اتجاهاته العلمية حتى كان يسمى (بالمأمون الصغير) ؛ لأدبه وفضله . كما اقتدى به في تأييده لمذهب المعتزلة ، وإفساحه المجال للمناقشات الفكرية . وكان المأمون يعظمه ويقدمه على ولده ، إلا أنه لم يكن بدهاء المأمون وحنكته السياسية . كذلك اقتدى بوالده في اعتماده بشكل كبير على المشارقة في الجيش ، فقسم مسؤولية الدفاع عن الدولة إلى اثنين من أبرز قادته ، هما اشناس في الغرب ، وإيتاخ في الشرق دون التعرض لممتلكات ومسؤوليات الطاهريين في الشرق .

كما تأسى الواثق بسياسة جده هارون الرشيد في نكبته للبرامكة فانتهج سياسة شديدة تجاه محاسبة عماله وكتابه ؛ لأنه لم يكن هناك نظام دقيق في محاسبة موظفي الدولة ؛ مما أدى إلى تفشي ظاهرة الرشوة والثراء السريع بينهم . فعمل الواثق على مصادرة أموال موظفيه ، ممن أظهر منهم خيانة ، وعدم إخلاص في العمل(١).

الأوضاع الداخلية في عهد الواثق:

تمرد الأعراب في الحجاز:

اضطربت أحوال الحجاز في عهد الواثق بعد الهدوء الذي شهدته في عهد والده ، ولم تكن الاضطرابات صادرة هذه المرة عن انتفاضات العلويين وإنما من تمرد الأعراب من بني سليم ، وغيرهم من البدو الذين عاثوا فساداً في جهات المدينة . وكان بنو سليم من أكثر القبائل العربية بالحجاز عدداً وأقواها، وكانوا يسكنون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة (بحرة بني سُليم).

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٧٧ ، التنبيه ، ص٣٢٩ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٠ ، ص٢٦٩-٢٧٠ .

وعاثوا حول المدينة فساداً وقطعوا الطريق وأخذوا الأسواق بالسعر الذي يريدون . فلما تمادوا في الغي والفساد أرسل إليهم عامل المدينة محمد بن صالح بن العباس قوة عسكرية لتأديبهم وقتالهم . إلا أن الأعراب تغلبوا عليهم وازداد أمرهم ، واستباحوا القرى والمناهل بين مكة والمدينة ، وقطعوا الطريق بينهما .

وعندما استفحل أمرهم جرد لهم الواثق حملة عسكرية كبيرة بقيادة أحد أقوى قواده ، وهو ((بغا الكبير)) ، مما يدل على أن الأمر قد أفلت من يد الوالي . توجه بغا في شعبان سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م إلى حرة بني سليم فالتقى بأعرابها وحاربهم ، وقتل منهم نحو خمسين شخصاً ، وأسر خمسين آخرين بعد أن هزمهم . ثم دعاهم إلى الأمان والنزول على حكم أمير المؤمنين واحتجز منهم نحو ألف رجل ، بعد أن ثبت لديه أنهم مفسدون وأطلق سراح الباقيين . وشخص بعد ذلك إلى مكة لأداء فريضة الحج فلما انفض الموسم توجه إلى بني هلال بقرية تدعى ذات عرق وعرض عليهم الأمان مثل ما عرضه على بني سُليم فأخذ من المفسدين منهم نحواً من ثلاثمائة رجل ، وأطلق سراح الآخرين[١].

توجه بغا بعد ذلك إلى بني مرة بفدك ، وبني كلاب بالقرب من المدينة، وأخذ منهم نحو ألف رجل من المتمردين ، وبينما كان بغا بفدك خرج من كان في حبس المدينة من أسرى بني هلال وبني سليم ، وكان عددهم ما يقرب من ألف وثلاثمائة أسير ، بعد أن قتلوا حراس السجن . فاجتمع عليهم أهل المدينة ومن بها من السودان الذين تضررت أسواقهم ومصالحهم التجارية بعبث هؤلاء وفسادهم فقتلوهم جميعاً ، وأخذ السودان يقتلون كل من يجدون من أهل البادية داخل المدينة ، حتى أنهم وجدوا أعرابياً خارجاً من المسجد النبوي فقتلوه .

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٢٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٧٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٣٨-٣٣٩ .

وبعد أن أدى بغا مهمته وعم الأمن والاستقرار المدينة وما حولها ، رجع إلى سامراء بما تبقى لديه من الأسرى الأعراب ، وكانوا يزيدون عن ألفين ومائتي رجل سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م[١].

العلاقات الخارجية في عهد الواثق:

الجبهة البيزنطية:

ساد منطقة الحدود على الجبهة البيزنطية هدوء نسبي بعد وفاة كل من الخليفة المعتصم والإمبراطور ثيوفيل عام ٢٢٧هـ/٨٤٢م . فلما تولى الواثق الحكم لم يستطع أن يستفيد من الانتصارات التي حققها والده المعتصم ، كما أنه لم يستغل الظروف التي كانت تمر بها الدولة البيزنطية والأزمات الداخلية التي تعرضت لها ثيودورا زوجة ثيوفيل التي حكمت البلاد وصية على ابنها القاصر ميخائيل . فلم تحدث حروب تذكر على هذه الجبهة في عهده[٢].

إلا أن أهم حدث في سياسة الواثق الخارجية وعلى الجبهة البيزنطية هي عملية الفداء أو تبادل الأسرى ، وهو الفداء الثالث بين العباسيين والبيزنطيين . وكان نتيجة للحروب والغارات المتبادلة بين الطرفين ووقوع الكثير من الأسرى في يد الجانبين ظهور نظام لتبادل الأسرى ، وطرق معاملتهم ووسائل إطلاق سراحهم . وكانت عمليات الفداء عند المسلمين تتم وسط احتفالات بهيجة يحضره المسؤولون وكبار الشخصيات العسكرية . ففي سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٥م وصل إلى أرض العراق وفد بيزنطي ليفاوض في أمر الفداء بمن في يدهم من أسرى المسلمين فوافق الواثق . وتم الاتفاق على الفداء دون تفرقة بين كبير وصغير , فتى أو شيخ ، واختير خاقان الخادم للإشراف

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٣٢-١٣٣ ، ١٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١١١ .

على عملية الفداء . وأرسل أحمد بن أبي قحطبة ليتأكد من عزم البيزنطيين على الفداء ، وليتعرف على عدد الأسرى المسلمين الذين بلغ عددهم حسب رواية الطبري ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة(١). وحسب روايات أخرى أربعة آلاف وستمائة أسير(٢). ومهما كان من اختلاف الروايات فإن عدد الأسرى كان كبيراً فيما يبدو حتى ضاق بهم البيزنطيون فبادروا إلى طلب الفداء .

وتمت عملية الفداء على جسرين على نهر اللامس عند سلوقية ، وعلى مسيرة يوم من طرسوس . وعقد الواثق لأحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي على الثغور الإسلامية والعواصم وأمره بحضور الفداء كما حضر الفداء خاقان الخادم ، وحضرت معه فرقة عسكرية كبيرة من حملة الرماح . فكان المسلمون يرسلون الأسرى البيزنطيين على جسرهم ويرسل البيزنطيون الأسرى المسلمين على جسرهم ، فإذا أطلق سراح المسلم كبر له المسلمون وهللوا وأعطي فرساً وألف درهم ، واستمرت عملية الفداء أربعة أيام . وقد طلب رئيس الوفد البيزنطي من رئيس وفد المسلمين أن يعقد هدنة لمدة أربعين يوماً حتى يصل الأسرى إلى بلادهم ومأمنهم(٣).

ولما انقضت مدة الهدنة غزا والي الثغور أحمد بن سعيد بن قتيبة شاتياً الأراضي البيزنطية على رأس سبعة آلاف رجل ، فأصاب الناس البرد والمطر فمات كثير منهم وغرق آخرون في نهر البدندون ، فرجع دون أن يحقق شيئاً . فغضب عليه الواثق وعزله ، وعين بدلاً منه على منطقة الثغور نصر بن حمزة الخزاعي في جماد الأولى سنة ٢٣١هـ/ يناير ٨٤٦م(٤).

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٤١-١٤٢ ، ١٤٣ .

٢) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٤٠ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٤٣-١٤٤ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٤٤-١٤٥ .

وفاة الواثق:

كان عهد الواثق قصيراً استمر أقل من ست سنوات ، وتوفي بمرض الاستسقاء في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ/أغسطس ٨٤٧م . وكان الأطباء قد وضعوا له علاجاً لتسكين آلامه ، وذلك بجلوسه في تنور مسخن ، فلما وجد الواثق في ذلك راحة لآلامه أمر بأن يسخنوا له التنور أكثر من ذي قبل فأغمي عليه من شدة الحرارة ومات[١]. ولم يعهد لأحد من بعده بالخلافة خوفاً من تحمل وزر ذلك بقوله: ((لا أتحمل أمركم حياً وميتاً)) ، وبوفاته ينتهي عصر من عصور الدولة العباسية ، وهو العصر العباسي الأول أو ما يعرف ((بالعصر الذهبي)) للخلافة العباسية ، الذي استمر قرناً كاملاً من الزمان .

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٧٦ .

الفصل الثامن

العصر العباسي الثاني

تخبط السلطة العسكرية

٢٣٢-٢٥٦هـ/٨٤٧-٨٧٠م

١- خلافة المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم)

٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م.

٢- خلافة المنتصر بالله (محمد بن المتوكل)

٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م.

٣- خلافة المستعين بالله (أحمد بن محمد بن المعتصم)

٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م.

٤- خلافة المعتز بالله (أبي عبد الله محمد بن المتوكل)

٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م.

٥- خلافة المهتدي بالله (محمد بن هارون الواثق)

٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٩-٨٧٠م.

خلافة المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم) ٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م:

إن الانقلاب الذي أحدثه المعتصم بتجنيده قوات جديدة من المشارقة الذين عرفوا في مصادرنا باسم (الأتراك) أورث العهود التي تلته حالة من الفوضى العسكرية ، تميزت بقتال مرير ، ومعقد بين القوات المسلحة في بغداد وسامراء ، وفيما بين القوات نفسها في كل من هاتين العاصمتين العباسيتين . وظهر على مسرح الأحداث أسماء العديد من القواد العسكريين من المشارقة ممن كان لهم دورٌ بارزٌ في هذا الصراع . وقد ازداد خطر هؤلاء القادة العسكريين ؛ نظراً لاعتماد خلفاء هذا العصر عليهم في ردع خطر الخارجين من ذوي النزعات الإقليمية ، مما أدى إلى ازدياد طموحات هؤلاء القادة ونفوذهم وتسلطهم على مقدرات الخلافة ، وبذا أصبحوا خطراً يهدد مركز الخليفة وحياته .

ولم يقتصر هذا النفوذ على عاصمة الخلافة ، بل تعداها إلى الولايات حينما بدأ خلفاء هذا العصر منح قادتهم العسكريين إقطاعات من الأراضي تغطية لنفقاتهم الشخصية ، أو كوسيلة لإغرائهم بالانتقال إلى مناطقهم الجديدة التي يعينون بها لأداء مهمات إدارية أو عسكرية .

وقد عُرف هذا النظام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين ، وهو يقوم على أنه من حق الإمام اصطفاء أراضٍ لنفسه ، وإقطاعها لمن يشاء من المسلمين المميزين بأفعالهم ، وخدماتهم ، إلا أنه أصبح في العصر العباسي أداة سياسية في يد الخلفاء ، يحكمون بها سيطرتهم على بعض المناطق . وذلك بأن يمنح بعض القادة العسكريين ممن يتميزون بثقة الخليفة إقطاع الولايات إضافة إلى تمتعهم بصلاحيات كاملة على الشئون العسكرية والمالية مقابل مبالغ يدفعونها للخزينة المركزية ، وقد أتاح هذا النظام مع مرور الوقت الفرصة للقادة الطموحين بالانفصال بولاياتهم . وبذلك انتقل الحكم من المركزية إلى اللامركزية . وقد تولى الخلافة خلال هذه الفترة من ٢٣٢-٢٥٦هـ/٨٤٧-٨٧٠م خمسة خلفاء ،

هم المتوكل ، والمنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدي وضع خلالها القادة العسكريون من المشارقة أيديهم على جميع مقدرات الخلافة ، وبسطوا نفوذهم على كافة أقاليمها .

بويع المتوكل على الله الخلافة في نهاية شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ/ أغسطس ٨٤٧م بعد وفاة أخيه الواثق ، وله من العمر ستة وعشرون عاماً . وكان سبب توليه الخلافة أن الواثق مات ، ولم يعهد لأحد من بعده بالخلافة فنشب صراع بين الحزب المدني والحزب العسكري بشأن اختيار الخليفة الجديد فكان على رأس الحزب المدني القاضي أحمد بن أبي داود ، والوزير عبد الملك بن الزيات ، ومرشحهم محمد بن الواثق على الرغم من صغر سنه ، وعلى رأس الحزب العسكري إيتاخ ، ووصيف ، ومرشحهم جعفر بن المعتصم . وقد تغلب الحزب العسكري حين فرض مرشحه للخلافة ، وبذلك تمت مبايعته ولقب بالمتوكل على الله[١]. والجدير بالملاحظة أن مبايعة المتوكل للخلافة عن طريق تدخل أهل الحل والعقد كانت سابقة ، لم تعرف من قبل خلال المائة عام من عمر الخلافة العباسية ، ومن ثمَّ أصبحت نهجاً وطريقاً يتم بموجبها مبايعة أغلب خلفاء العهود التالية .

سياسة المتوكل الداخلية:

استطاع المتوكل أثناء فترة حكمه الذي استمر ما يقرب من خمس عشر سنة إجراء بعض التغييرات التي سار عليها أسلافه ، وكان من أهمها أنه أبطل النقاش حول القول بخلق القرآن الكريم ، وتشدد في تعصبه للدين ، ولأهل السنة والجماعة وإظهارها على المذاهب الأخرى، مضطهداً المعتزلة بإبعادها،

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٥٤-١٥٥ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص٨٥ .

كما اضطهد آل عليٍّ لميل المعتزلة لهم ، وقد كان لهذا أثرٌ طيب على نفوس أهل السنة ، وقد أكسبه محبتهم وتقديرهم . كما تشدد مع الفئات غير المسلمة، فحرمهم من حق التوظيف ، وفرض الضريبة على منازلهم[1].

على أن أهم ما يميز سياسة المتوكل هو التغيير الذي أحدثه في إدارته خلال أسابيع قليلة ، بعد توليه الخلافة ، وذلك بعزل الوزير عبد الملك بن الزيات الذي استمر في منصب الوزارة مدة ١٢ عاماً ، كما عزل أغلب رجاله وموظفيه من إدارته بعد أن صادر أموالهم ، وذلك لاستغلالهم مناصبهم في جمع الثروات الطائلة ، فقد بلغ ما أخذه من ابن الزيات وحده تسعين ألف دينار[2]، وقد استبدله وموظفيه بمجموعة أخرى ممن تدربت على الخدمة في وظائف الدواوين ، وكانت لهم خبرة في شئون الإدارة المالية ، وكان على رأسها الوزير محمد بن الفضل الجرجائي .

وقد أعاد المتوكل ضريبة العشر التي ألغاها ابن الزيات على السفن الواردة من وإلى موانئ الخليج[3]، فقد رأى المتوكل أن الإلغاء كان يصب بالدرجة الأولى في مصلحة الأغنياء والتجار من أمثال ابن الزيات ، ولم يؤدِ إلغاء الضريبة إلى خفض الأسعار ، ولم يستفد منها عامة الشعب ، لأنها كانت تجارة بالسلع الكمالية . ويبدو أن سياسة المصادرة واستخراج الأموال من الوزراء والكتاب وأصحاب المناصب في الدولة كانت استمراراً لسياسة أخيه الواثق .

أما عن الجيش فقد رأى ضرورة إحداث تغييرات جذرية ، تحدّ من تسلط قواده الذين ازداد نفوذهم ، فعمد إلى جعل الجيش وحدة واحدة ، تكون

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص٤٨٤-٤٨٥ ، ٤٨٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص ١٧١-١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٤ ، ٤٨٥ ؛ الطبري ، ج٩ ، ص١٥٦-١٦١ .

٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٠ .

تحت سلطته المباشرة ، وذلك بإضعاف قيادته ، بادئاً بإيتاخ الذي كان مسئولاً عن الجيش ، والبريد ، والحجابة ، ودار الخلافة ، فاعتقله في بغداد بعد رجوعه من الحج وسجنه سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م[١]. وبحركة ذكية أخرى لأضعاف سلطة القادة العسكريين وعدم تدخلهم في اختيار خلف له عهد بولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة ، واحداً بعد الآخر ، كما حدد لهم ألقابهم التي سيعرفون بها بعد أن يتولوا الخلافة ، وهم محمد ولقبه (بالمنتصر) ، وأبو عبد الله محمد ولقبه (بالمعتز) ، وإبراهيم ولقبه (بالمؤيد) وقسم البلاد بينهم فولى المنتصر المغرب كله ، وولى المعتز المشرق كله ، وأقطع المؤيد أجناد حمص ودمشق وفلسطين ، وذلك سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م. ثم أضاف إلى ابنه المعتز في عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م خزائن الأموال في جميع البلاد ودور الضرب وأمر أن تضرب الدراهم باسمه[٢].

وبما أن ولاة العهد كانوا جميعهم قصر ؛ إذ لم يتجاوز أكبرهم الثالثة عشر من عمره لم يكن متوقعاً منهم تحمل المسؤولية الملقاة على عاتقهم وحدهم . لذلك عمد المتوكل إلى خطوة جريئة أخرى لإضعاف الجيش في سامراء وذلك بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام ، على رأس كل قسم قائد عسكري يرافقه إداريون مختلفون من كتاب وموظفين مسؤولين عن الشئون المالية ، وأرسل كل قسم مع ولاة العهد الثلاثة إلى المناطق التي ولوا عليها ، على أن يبقى المتوكل هو المسئول الأعلى عن هذه المناطق[٣]. إلا أن هذا العمل لم يخلُ من انعكاسات جرت على الدولة كثيراً من المشاكل والاضطرابات فيما بعد ، من أهمها زيادة تفعيل نظام الإقطاع ، وذلك بإقطاع القادة العسكريين قطعاً من الأراضي ترغيباً لهم بالانتقال إلى مناطق عملهم الجديدة ، والابتعاد

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٥-٤٨٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٦٦-١٦٩.
٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص٤٨٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٧٦ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص٨٧ .
٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٧٧-١٧٩ .

عن مركز الحكومة . وبمرور الوقت استغل هؤلاء القادة ضعف السلطة المركزية وعدم معرفة الخليفة بمجريات الأمور في الولايات فاستقلوا بولاياتهم وانفصلوا بها

وفي عام ٢٣٦هـ/٨٥٠م عزل المتوكل محمد بن الفضل الجرجرائي عن وزارته ، وعين بدلاً منه عبيد الله بن خاقان ، وقد قال المتوكل عند عزله الجرجرائي ((قد ضجرت من الشيوخ ، وأريد حدثا أستوزره)) . ويبدو أن استيزاره لعبد الله بن يحي بن خاقان كان يتماشى مع سياسته التي ترمي إلى إضعاف نفوذ تسلط القادة العسكريين المشارقة ؛ فقد عرف عن عبيد الله بن خاقان كفاءته وخبرته بالأمور الإدارية وبولائه للبيت العباسي . فقام منذ توليه الوزارة بتنفيذ مخططات المتوكل ، فعمل على تجنيد جيش نظامي جديد يكون تحت سلطة الخليفة المباشرة . غير أنه لم يتم تجنيدهم هذه المرة من المشرق ، بل من الأقاليم الغربية من السوريين ، وأهل الجزيرة والعراق ، وأذربيجان ، وأرمينيا ، والأبناء ، وبعض صعاليك العرب وقد بلغ عددهم نحو من ١٢ ألفاً كانوا بمثابة شاكرية للمتوكل[١].

وتتويجاً لمخططاته العسكرية أراد المتوكل أن يربط نفسه بتكتلات جديدة ويبتعد عن سامراء مقر جند الأتراك والمشارقة ، فنقل عاصمته إلى دمشق حيث يكون بين أهلها من العرب ، إلا أن هذه الخطوة باءت بالفشل إذ أجبره القادة العسكريون على الرجوع إلى سامراء بعد أن أعلنوا الثورة العلنية عليه ، فاضطر إلى العودة إليها خاصة وأنه لم يلق الدعم من أهالي الشام وجندها الذين ثاروا عليه وطالبوه بالعطاء[٢]. لكنه لم يرضَ بأن يبقى في

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٨-٤٨٩ ؛ الطبري ، ج٩ ، ص١٧١ ، ١٨٥ ، ٢٢٩ ؛ المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص٣٢٩ . يذكر الطبري أن عددهم ما بين عشرين ألفاً وثلاثة عشر ألفاً ، ج٩ ، ص٢٢٩ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢١٠ ؛ المسعودي، مروج الذهب ، ج٤ ، ص١١٥ .

سامراء فبنى مدينة لنفسه قريبة من سامراء سماها (الجعفرية) على اسمه ، ونقل إليها دواوينه ، ومقر حكمه وأقام فيها جنده وحاشيته . وقد أنفق المتوكل على بناء هذه المدينة مبالغ ضخمة قدرت بنحو مليوني دينار . إلا أن هذه المدينة هجرت بعد وفاة المتوكل لافتقارها لمصادر المياه[1].

الحركات الانفصالية في عهد المتوكل :

انتفاضة أهالي أذربيجان وأرمينيا :

كان محمد بن البعيث أحد القادة العرب الذين ساندوا انتفاضة أهالي أذربيجان بزعامة بابك ، وقبض عليه في عهد المعتصم ، وسجن في بغداد بعد القضاء على هذه الانتفاضة ، غير أن ابن البعيث تمكن من الهرب في عهد المتوكل وعاد إلى أذربيجان وأتخذ من مدينة مربد ذات الأشجار الكثيفة والمياه الوفيرة قاعدة له ، وأجتمع حوله مؤيدوه وخاصة من اعراب قبيلة ربيعة فصار في نحو من ٢٢٠٠ رجل ، وأعلن العصيان .

وعندما لم يستطع الوالي على أذربيجان القضاء على هذه الفتنة استبدله المتوكل بوال آخر يدعى ((حمدويه بن علي)) . فلما وصل إلى أذربيجان جمع حوله الجند والشاكرية فبلغ عددهم نحو عشرة آلاف رجل توجه بهم إلى محاربة ابن البعيث ، وحاصره مدة طويلة . ولما لم يفلح في اقتحام المدينة أرسل له المتوكل عدداً من الحملات مدداً له ، كان آخرها حملة بغا الشرابي في ٤٠٠٠ آلاف جندي مابين تركـــي وشاكري ، وعربي استطاعت إضعاف مقاومة إبن البعيث ، ورجاله ودخلوا المدينة عنوة ، وحاول إبن البعيث الهرب فلحقه جماعة من الجند ، فأخذوه أسيراً . كما أسروا نحو من ٢٠ من رجاله المقربين ، وثلاثة عشر إمرأة من حريمه ، وفي شوال سنة ٢٣٥هـــ / ٨٥٠ م دخل بغا الشرابي إلى

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩٢ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٨١-٢٨٢ .

سامراء ومعه ابن البعيث ، وباقي الأسرى . فعفا عنه المتوكل ، وألحق أبناءه الثلاثة في فرقة الشاكرية التي نظمها عبد الله بن خاقان(١).

بعد القضاء على انتفاضة ابن البعيث في أذربيجان انتفض أهالي أرمينيا على واليها يوسف بن محمد ، فقتلوه في رمضان سنة ٢٣٧هـ / ٨٥٢م . وهي انتفاضة اشترك فيها العرب ، والأرمن من أهالي المنطقة ، وتزعمها أحد بطارقتها ، ويدعى بقراط بن أشوط . ويبدو من اشتراك العرب فيها أن السبب لقيامها لم يكن عنصرياً أو مذهبياً ، وإنما كان اقتصادياً بالدرجة الأولى وذلك لتعسف الولاة في جباية الضرائب . ولخطورة الموقف أرسل المتوكل حملة كبيرة بقيادة بغا الشرابي الذي لقي مقاومة شديدة من قبل العصاة ، ولم يتمكن من القضاء عليها إلا بعد جهد كبير (٢) .

تمرد أهل حمص :

في سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤م ثار أهل حمص المسلمون والمسيحيون منهم على عامل المعونة ، وعلى صاحب الخراج وأخرجوهم من المدينة . ويبدو أن ذلك كان بسبب ضريبة العشر التي فرضها المتوكل على منازل النصارى خاصة(٣) ، والسياسة التعسفية التي انتهجها عامله ضدهم . فأرسل إليهم المتوكل حملة عسكرية واستبدل عاملهم بآخر يدعى (محمد بن عبد ربه). فهدأت ثائرتهم لهذا الإجراء ، إلا أن العامل الجديد لم يكن بأفضل حالاً من الذي سبقه فسامهم سوء العذاب ، وفعل بهم الأعاجيب . مما دعاهم إلى التمرد من جديد في العام التالي . وحتى لا يتفشى أمرهم إلى باقي مناطق بلاد الشام لم يتهاون المتوكل في إنزال

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٨٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص ١٦٤ – ١٦٦ ، ١٧٠–١٧١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ٢٨١ – ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ١٨٧ – ١٨٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص ٢٨٨– ٢٨٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص ١٧٢ .

أشد العقوبات عليهم ، فحاربهم وقبض على متسببي الشغب والفتنة ، وخرب كنائسهم وأخرج جميع المسيحيين من المدينة، وبذلك سيطر على تمردهم [١]

غارات البجة على أطراف مصر :

منذ الفتح الإسلامي كانت الهدنة قائمة بين المسلمين والبجة (وهم أهالي ساحل البحر الأحمر ما بين الحبشة ومصر) ، وكان من أهم شروط هذه الهدنة أو معاهدة الصلح أن يؤدوا إلى عمال الخليفة في مصر أربعمائة مثقال تبر خام كل سنة . وأن يسمحوا للعرب المسلمين بالاستيطان فيها ، واستثمار مناجم الذهب والفضة والمعادن الأخرى الموجودة فيها [٢] .

وفي عهد المتوكل امتنع البجة من أداء تلك الضريبة لعدة سنوات متتالية . ويبدو أن سبب ذلك هو أن عمال الضرائب بدأوا في مطالبتهم بدفع الخمس على الإنتاج المعدني فاعتبر البجة ذلك خرقاً لمعاهدة الصلح التي ساروا عليها سنين طويلة . فولى المتوكل محمد عبد الله القمي على فقط ، والأقصر وأسوان وأسنا ، وأمره بحرب البجة . فلما خرج محمد إلى محاربتهم انضم إليه العرب الذين منعوا من التعدين في مناطقهم ، فخرج معه عشرون ألفاً من الناس بين فارس وراجل ، وبنهاية عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥م تمكن من استعادة نفوذ العرب ومكانتهم هناك . وأدى البجة الخراج عن المدة التي امتنعوا فيها عن أدائها [٣] .

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩٠ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٩٧ ، ١٩٩ - ٢٠٠ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٤٦ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص ٢٠٣ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٠٣ - ٢٠٦ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ٣٤٦ .

سياسة المتوكل الخارجية :

العلاقات مع البيزنطيين :

لم يستمر الهدوء الذي ساد على الجبهة البيزنطية في عهد الواثق طويلاً. فقد اشتعلت الحرب فجأة في عهد المتوكل وبدون سابق إنذار في شرقي البحر المتوسط وعلى الشاطئ المصري بالتحديد ، ففي عام ٢٣٨هـ / ٨٥٢م أغار البيزنطيون على دمياط في ثلاثمائة مركب ، فدخلوها في غياب حاميتها . وكان والي مصر عنبسة بن إسحاق الضبي قد طلب من الحامية والجنود في دمياط أن يحضروا إلى الفسطاط للاحتفال بالعيد ، فتركت المدينة بدون حامية عسكرية تحميها . فاستغل البيزنطيون ذلك فدخلوا المدينة ، وأشعلوا النيران فيها بعد أن خربوا سورها ، وأسروا وسبوا عدداً كبيراً من رجالها ونسائها ، وعادوا إلى بلادهم [١] .

وقد تنبه المسلمون إلى فداحة الموقف فعملوا على تحصين السواحل السورية المصرية ، وبناء أسطول بحري جديد في مصر ليس فقط للدفاع عن أراضيهم في حالة تعرضهم إلى هجوم مماثل من قبل البيزنطيين ، وإنما للإغارة على المدن البيزنطية كما حدث عام ٢٤٦هـ / ٨٦٠م عندما غزا الفضل بن قارن بحراً في عشرين مركباً وافتتح حصن أنطاليا [٢] .

أما من ناحية الحدود البرية فقد تولى أمر القتال والدفاع عن منطقة الثغور الإسلامية القائدان الإسلاميان عمر بن عبد الله الأقطع ، أمير ملطية ، وعلي بن يحي الأرمني أمير طرسوس . وقد تعاون معهم الأرمن بزعامة قربياص ، وذلك للاضطهاد الذي لحقهم من قبل الأباطرة البيزنطيين لعبادة الصور المقدسة ((الأيقونات)) . ففي عام ٢٤١هـ/٨٥٥م أغار البيزنطيون على عين زربة وأسروا من كان فيها ، ومن بينهم الزط الذين نفاهم الخليفة المعتصم إليها . وفي

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص١٩٣ – ١٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص ٢٩٢ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢١٩ .

١٢ شوال من نفس العام تم الفداء الرابع بين المسلمين والبيزنطيين على نهر اللامس ، وكان عدد من افتدي به من أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً ، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة[١].

وفي عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م أغار البيزنطيون على الأراضي الإسلامية فهاجموا شمشاط وتفريق عاصمة قربياص ، حتى قاربوا أمد ، وفي طريق عودتهم إلى بلادهم نهبوا قرى كثيرة ، وأسروا عشرة آلاف من المسلمين ما بين رجل وامرأة ، فخرج في إثرهم عمر بن عبد الله الأقطع وقربياص فلم يلحقوا بأحدٍ منهم[٢]. وبعد هذه الغارة البيزنطية نشطت الحملات الصيفية بزعامة كل من عمر بن عبد الله الأقطع ، وعلي بن يحي الأرمني . فأنزل عمر الأقطع هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في توقات عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١م وفتح المسلمون أكبر الموانئ على البحر الأسود[٣].

نهاية المتوكل:

عندما أدرك القادة العسكريون من المشارقة بأن المتوكل عازم على الحدّ من نفوذهم المتزايد وتدخلهم في شئون الحكم ، وذلك بالتخلص من بعض قادتهم وإبعاد الآخرين عن سامراء ، ومن ثمّ استرجاع ضياعهم وإقطاعياتهم التي أقطعت لهم من قبل ، كما فعل مع وصيف الذي استرجع منه ضياعه بالجبل وأصبهان ، عندها عزموا على التحرك السريع ، بالتخلص منه فدخلوا عليه وقتلوه[٤].

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٠١ ، ٢٠٢-٢٠٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٩٥ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٤٧ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٠٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٢٩٧ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢١٨ ، ٢١٩، Bury, History of Eastern Roman Empire. (London: 1912) P279.

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٢٢- ٢٣٠ ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٣٤٩- ٣٥٠.

خلافة المنتصر بالله (محمد بن المتوكل) ٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م:

ما أن تم اغتيال المتوكل حتى بويع ابنه (محمد المنتصر) بالخلافة من قبل قتلة أبيه وذلك في ٤ شوال سنة ٢٤٧هـ/ ١١ ديسمبر ٨٦١م وكان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً(١). وكان أول ما طلب منه إلغاء جميع ما قام به المتوكل من تنظيم الجيش ، وإعادة ترتيبه على ما كان عليه أيام المعتصم . وذلك بعزل كل من أخويه المعتز والمؤيد ، وضم جيوشهما إلى جيش سامراء(٢).

ولإلغاء جميع ترتيبات المتوكل أعيدت الحكومة والدواوين إلى سامراء وهجرت مدينة الجعفرية ، التي اتخذها المتوكل عاصمة له بعد عشرة أيام من خلافة المنتصر ، والأكثر من ذلك أنه أمر بتخريب قصورها ونقل جميع من فيها حتى صارت المدينة خراباً(٣).

فاستوزر المنتصر أحمد بن الخصيب ، وأصبح أتامش أحد قادة الجيش البارزين في سامراء(٤). وكان من أهم الأعمال الملقاة على عاتق الوزير هو إيجاد حل لجيش (الشاكرية) الذي نظمه المتوكل خاصة بعدما أعيد تشكيل جيش سامراء على ما كان عليه في أيام المعتصم . فكان الحل إخراج جيش

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٣٤ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص١٢٩ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٤٨-٢٤٩ .
٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩٣ .
٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩٣ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٤٠ ؛ المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص٣٣٠ .

الشاكرية إلى الثغور الشامية تحت زعامة وصيف لغزو الروم . وكتب المنتصر إلى وصيف يأمره بالبقاء بمنطقة الثغور لمدة أربع سنوات ، وأن لا يعود إلى العاصمة إلا بأمر منه[1].

نهاية عهد المنتصر:

لم تستمر خلافة المنتصر أكثر من ستة أشهر ، أدرك خلالها أنه مسلوب الإرادة واقع تحت سيطرة طغمة من القادة العسكريين ، فحاول التخلص من زعمائهم ، وكان يسميهم (قتلة الخلفاء) ؛ إلا أنه لم يتمكن من ذلك ؛ لأن المنية وافته . واختلف في سبب وفاته فقيل إنه مات بسكتة قلبية ، وقيل إنه مات من ورم خبيث في معدته ، وقيل إنه مات مسموماً عن طريق طبيبه الذي سمه في مشرط حجمه به يوم السبت ٤ ربيع الثاني ٢٤٨هـ/يونيه ٨٦٢م[2]، ومما يؤثر عن المنتصر أنه عامل العلويين معاملة طيبة ، لأنه كان يرى فيهم قرابة يجب أن لا تنتهك حرمتها على عكس أبيه المتوكل ، وأطلق أوقافهم ، ومنع إلحاق الأذى بهم وبشيعتهم[3].

خلافة المستعين بالله (أحمد بن محمد بن المعتصم) ٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م:

شهدت الخلافة العباسية بعد وفاة المنتصر اضطرابات لم يشهد لها مثيلاً ، فقد أخذ أهل الحل والعقد من القادة العسكريين والوزراء والكتاب في اختيار خلف له . ولم يرضَ هؤلاء أن يتولى أحد من أولاد المتوكل خوفاً من أن ينتقموا منهم لمقتل أبيهم . فوقع اختيارهم على ابن عم المنتصر ، وهو أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين بالله ، فكان أول خليفة عباسي

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٤٠-٢٤٤ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص١٣٤ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٥١-٢٥٣ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ١٣٤ .
٣) المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص١٣٥ .

تولى الخلافة بعد ابن عمه ولم يكن أبوه خليفة . وحينما بايعوه بالخلافة كان له من العمر ثمانية وعشرون عاماً(١).

اضطرابات الجند في عهد المستعين:

استولى القادة العسكريون في عهد المستعين على أكبر المناصب في الدولة، فعين أتامش وزيراً وعقد له على مصر والمغرب ، كما عين أحمد بن الخصيب كاتباً ، وجعل شاهك الخادم مسئولاً عن إدارة شئون الخليفة المالية وخزائنه وحراسه وخاص أموره . إلا أنه لم يمضِ شهر على هذه التعيينات حتى تخلص أتامش من أحمد بن الخصيب ، وذلك بنفيه إلى جزيرة كريت ومن ثم إلى القيروان(٢). فأصبح أتامش المسيطر على جميع الشئون العسكرية والمدنية ، ولكن هذا الإجراء لم يرضِ الشاكرية الذين عادوا إلى سامراء مع وصيف بعد وفاة المنتصر ونادوا بخلافة أخيه المعتز . فأدى ذلك إلى قيام فتنة بين الجند ؛ وانتهى الأمر بدمج جند الشاكرية في جيش جند سامراء ، بعد أن قتل من الطرفين عدد كبير(٣). وبعد عام واحد قتل أتامش وكاتبه شجاع بن القاسم على يد الجند وذلك بإيعاز من وصيف وبغا الذين أهملا ، ولم يعينا في أي منصب مهم في حكومة أتامش . ويبدو أنهما كانا معترضين على سياسة أتامش التي منها: دمج جند الشاكرية في جيش سامراء الموحد ، وعدم السماح للقادة العسكريين في التدخل في الشئون المدنية ، وخاصة جمع الضرائب وإبطال الإقطاعات(٤).

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٥٦ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج١ ، ص٣٥٧ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٩٤ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٥٦ ، ٢٥٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٥٦-٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣-٢٦٤ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٦٤ ، ٤٤٦ .

وبمقتل أتامش تحقق لوصيف وبغا ما كان يرميان إليه من نفوذ ، فأقطع وصيف الأهواز ، وبغا فلسطين . كما تم تعيين أبي صالح عبد الله محمد بن يزداد الوزارة واستبدل بعد فترة قصيرة بمحمد بن الفضل الجرجرائي[١]. ثم ما لبث أن دب الخلاف بين وصيف وبغا وبين باغر الذي كان قد أُقطع أراضٍ واسعة بسواد الكوفة ، وبدأت منزلته تزداد وتعلو[٢]. فتآمر عليه وصيف وبغا وبعثا إليه بمن اغتاله فثار لباغر أعوانه ورجاله من جيش سامراء ، وهاجموا مقر الخليفة ، وفقد وصيف وبغا التأييد الذي كانا يتمتعان به من جيش سامراء فاستعان وصيف بجيش الشاكرية إذ ما لبث أن نشب القتال بين الفريقين . وعندما أدرك وصيف وبغا بضعف موقفهما أوعزا إلى المستعين بالهرب إلى بغداد ، لعلهم يجدون في قوات آل طاهر الدعم والمناصرة[٣]. عندها أعلن القادة العسكريون في سامراء خلع المستعين ، ومبايعة المعتز بن المتوكل بعد أن أخرجوه من سجنه ، وبذلك أصبح للدولة العباسية خليفتان وحاضرتان ، وتحول الصراع إلى هاتين الحاضرتين بغداد وسامراء[٤].

ساند آل طاهر وقواتهم في بغداد الخليفة المستعين ، وبدأوا بإجراءات مشددة فقاموا بتحصين المدينة ، وحفروا حولها الخنادق ، ورتبوا الجند على أبوابها وأسوارها وبعثوا بتعليماتهم إلى جميع الأقاليم ؛ لإرسال أموال الخراج وغيرها إلى بغداد وليس إلى سامراء . ونشبت الحرب بين الطرفين وقاتل أهالي بغداد وقوات الشاكرية قتالاً شديداً . وظهر العيارون مرة أخرى للدفاع عن مدينتهم فأظهروا بلاءً كبيراً على مسرح القتال . إلا أن قوات سامراء بقيادة أبي أحمد طلحة (الموفق) شقيق المعتز استطاعت أن تفرض حصاراً

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٦٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٧٨-٢٨١ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٨١ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٨٢ .

شديداً على بغداد ، فقلت المؤن والمواد الغذائية نتيجة لذلك ، وتعرض أهلها لكثير من السلب والنهب وكوارث الحرب . فأضحى موقف المستعين ضعيفاً فآثر والي بغداد ابن طاهر التخلي عنه ، والتفاوض مع أبي أحمد طلحة ، فكانت نتيجة المفاوضات أن يبقى جند الشاكرية في بغداد ، وأن يعطي ابن طاهر ثلث دخل الحكومة المركزية في سامراء للإنفاق عليهم ، وأن يولي بغا مكة والمدينة والحجاز ووصيف الجبل وما والاه . وبعد إجراء المفاوضات ، وموافقة كل الأطراف عليها أجبر المستعين على خلع نفسه ، ونفي إلى واسط وبويع المعتز بالخلافة ، وأخذت له البيعة رسمياً على من كان ببغداد من الجند والشاكرية ، وذلك في يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢هـ / ٢٦ يناير ٨٦٦م(١).

انتفاضات العلويين في عهد المستعين :

عاود العلويون خروجهم على الحكم العباسي بعد فترة الهدوء التي سادت في عهد المنتصر الذي أوقف ملاحقتهم ، وأعاد لهم ما صودر من أملاكهم . ففي عام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م خرج يحيى بن عمر بن يحيى بالكوفة ، وجمع حوله عدداً من الأعراب المقيمين بجوارها بعدما فشل في إقناع كبار رجال الدولة في بغداد وسامراء واتخذ من ضواحي الكوفة معسكراً له . فلما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر والي بغداد أرسل إليه حملة عسكرية لمحاربته فأسرع يحيى بن عمر إلى الكوفة واستولى على بيت المال بها ، ثم بدأ يتنقل بين الكوفة وسوادها داعياً إلى الرضا من آل محمد ، فانضم إليه العامة من أهل العراق . ولكن حركته منيت بالفشل عندما حلت الهزيمة به على يد الجند العباسي ، وقتل هو وعدد كبير من جماعته في ١٣ رجب سنة ٢٥٠ هـ / أغسطس ٨٦٤م . وأرسلت رأسه إلى

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٨٧ – ٢٨٨ ، ٣٤٢ – ٣٤٦ – ٣٤٩ .

المستعين فعلقها على باب العامة في سامراء ، ثم نقلت إلى بغداد ، ولكن ذلك أثار مشاعر أهلها ورفضوا تعليقها فدفنت [1] .

وفي العام نفسه خرج العلويون في طبرستان بزعامة الحسن بن زيد الملقب (بالأطروش) ، والسبب في ذلك أن المستعين أقطع محمداً بن عبد الله بن طاهر أراضٍ قرب طبرستان ، مكافئة له على انتصار جيوشه على حركة يحيى بن عمر بالكوفة . وكان إلى جوار تلك الإقطاعات ملك عام مشاع لأهل المنطقة ، تشمل مرافق عامة عبارة عن مراعٍ ومحطبة ، فأراد آل طاهر الاستيلاء عليها . مما أغضب الأهالي فاستجاروا بجيرانهم من أهالي الديلم . وكان الحسن بن زيد مقيماً بينهم ، فاتفقوا على مبايعته بالإمامة وأن يقود ثورتهم . فتمكن الحسن وأنصاره من الاستيلاء على مدن الديلم تباعاً حتى أنهم استولوا على مدينة الري وطردوا عامل العباسيين منها . ونجح الحسن بن زيد في إقامة دولة علوية بطبرستان ، عرفت بالدولة الزيدية استمرت تقريباً من ٢٥٠-٣١٦هـ / ٨٦٤-٩٢٨م [2] .

العلاقة مع البيزنطيين :

كانت ردة فعل الإمبراطور البيزنطي عنيفة على الهزيمة التي تلقتها جيوشه في (توقات) عام ٢٤٧هـ/٨٦١م ، فجهز جيشاً كبيراً قوامه ٥٠ ألف مقاتل ، والتقى بالمسلمين بزعامة عمر بن عبد الله الأقطع في بوزون بين بحيرة تاتا ونهر هاليس ، واستطاعوا أن يطوقوا المسلمين من جميع الجهات . إلا أن القائد المسلم عمر الأقطع أبدى بطولة وشجاعة حاسمة في ساحة المعركة إلا أنه

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ٤٩٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٦٦ – ٢٧٠ ؛ الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص٥٠٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٧١ – ٢٧٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣١٦-٣١٧ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ،ص٣٥٧-٣٥٨ .

سقط صريعاً في أرض المعركة مع ألف من رجاله ، وذلك في عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م[١].

وبعد هزيمة المسلمين ، ومقتل قائدهم توغل البيزنطيون في الأراضي الإسلامية باتجاه ميافارقين في أعلى الفرات ، فلما علم علي بن يحي أمير طرسوس - وكان عائداً من أرمينيا - بمقتل عمر الأقطع ، وبالفظائع التي ارتكبها البيزنطيون بحق المسلمين خرج إليهم في جماعة من أهل ميافارقين ، إلا أنه لقي مصرعه هو الآخر مع أربعمائة من رجاله في رمضان من العام نفسه[٢].

وعظم مقتل هذين القائدين على المسلمين ، ونادت العامة بالنفير العام والدعوة للجهاد في كل من بغداد وسامراء . وقد اعتبرهما الطبري نابين من أنياب المسلمين ؛ لشدة بأسهما وكثرة حروبهما مع البيزنطيين[٣].

خلافة المعتز بالله (أبي عبد الله محمد) ٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م:

بعد أن أجبر المستعين على خلع نفسه بويع المعتز بالخلافة رسمياً ، وأخذ له البيعة ممن كان ببغداد من بني هاشم ، والقضاة والفقهاء ، والقواد والشاكرية . وبهذا عاد مقر الخلافة إلى سامراء وعاد إليها وصيف وبغا بعد أن رضي عنهما المعتز ، وعقد لهما على أعمالهما وخلع عليهما[٤]. كما شخص إليها أبا أحمد طلحة مع جيشه بعد أن أدى مهمته التي ذهب من أجلها إلى بغداد في محرم ٢٥٢هـ/٨٦٦م فخلع عليه المعتز ، وتوجه بتاج من ذهب واستوزر أحمد بن إسرائيل وخلع عليه[٥] فكانت مهمته الأساسية جمع الضرائب وتوزيعها وإرضاء القادة العسكريين .

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣١٢ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣١٣ .
٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٢٦٢ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٦٣ .
٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٤٨ ، ٣٥٦ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص١٦٦ .
٥) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٤٩ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٦٣ .

أراد المعتز أن يكون المسيطر على الموقف في سامراء ، وأن يمسك بزمام السلطة ، وأن يتولى شؤون الجيش بنفسه ، فاتخذ لذلك بعض الإجراءات منها:

- خلع أخيه المؤيد من ولاية العهد ، وحبسه في ١١ رجب ٢٥٢هـ/أغسطس ٨٦٦م ، الذي ما لبث أن توفي في سجنه بعد أيام(١).

- أمر بحبس أخيه أبي أحمد طلحة ، ولم يشفع له النصر الذي حققه له على جيوش المستعين ، ومساعدته له للاحتفاظ بالخلافة في سامراء . ثم ما لبث أن نفاه إلى واسط ، ومن ثم إلى بغداد(٢).

- التخلص من وصيف ، وقد ساعدته الظروف على ذلك ، حينما شغب الجند من الأتراك والفراغنة والاشروسنية مطالبين بأرزاقهم لمدة أربعة أشهر ، فأرسل المعتز لتهدئتهم وصيفاً وبغا وسيما الشرابي ، ولما أغلظ وصيف في الرد على الثائرين من الجند وثبوا عليه وقتلوه(٣).

- التخلص من بغا باغتياله عن طريق التآمر مع بايكباك أحد قادة سامراء البارزين في تلك الفترة ، فأحرقت جثته وصودرت جميع ممتلكاته(٤).

ولكن فيما يبدو أن محاولات المعتز بأن يصبح سيد الموقف في مملكته وأن يتسلم السلطة الحقيقية بيده باءت بالفشل ، عندما اصطدمت محاولاته هذه بأرض الواقع . فقد عجزت خزينته الخاوية عن سد مطامع قادته ، وجنوده الذين ما لبثوا أن تأمروا عليه مطالبين بأرزاقهم . فلما كان بيت المال خالياً أرسل إلى أمه (قبيحة) ذات الثروة الطائلة أن تعطيه مالاً يستعين به على مطالب الجند فأبت أن تعطيه شيئاً من المال ، وأنكرت أن يكون

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٦٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٣٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٩٢ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٧٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٣٥ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٧٩-٣٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٣٥ ؛ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج١ ، ص٣٦٣ .

عندها شيء منه . عندها اتفق الجند مع قادتهم على خلع المعتز ، وسلموه إلى من يعذبه فمات في السجن في ٢ شعبان ٢٥٥هـ/يوليو ٨٦٩م ، فكانت مدة خلافته ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوماً(١).

خلافة المهتدي بالله (محمد بن هارون الواثق)٢٥٥-٢٥٦هـ/ ٨٦٩-٨٧٠م:

عندما تم خلع المعتز تردد القادة العسكريون وعلى رأسهم صالح بن وصيف فيمن يولونه الخلافة ، وبعد تردد أحضر محمد بن الواثق من بغداد وبويع بالخلافة ولقب بالمهتدي بالله . إلا أن المهتدي الذي عرف عنه ورعه وتقاه لم يقبل بأن يتولى الخلافة إلا بعد أن يتنازل عنها المعتز علناً وكان ذلك في نهاية شهر رجب سنة ٢٥٥هـ/يوليو ٨٦٩م . وكان عمره عندما تولى الخلافة سبعة وثلاثين سنة(٢).

رشح المهتدي من قبل للخلافة بعد وفاة والده الواثق سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م ولكن صغر سنه حال دون ذلك . ولقي توليه الخلافة معارضة من العامة في بغداد ، ورفضوا مبايعته مفضلين ابن عمه أبا أحمد طلحة عليه ، لما كان يتمتع به من شخصية قيادية . إلا أن المهتدي تغلب على الأمر بتفريق الأموال على الثائرين ، ومن ثم نُفي أبو أحمد طلحة إلى مكة(٣).

سياسة المهتدي الداخلية:

تشبه المهتدي في سياسته بالخليفة الأموي الورع عمر بن عبد العزيز وكان كثيراً ما يردد قوله ((إني لأستحي أن يكون لبني مروان عمر بن

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٨٩-٣٩٠ ، ٣٩٥ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٣٢ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٥٠٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٩١ ؛ ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق: قاسم السامرائي (الرياض: دار العلوم ، ١٩٨٢م) ، ص١٣٣ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٩٢-٣٩٣ .

عبد العزيز وليس لبني العباس مثله ؛ وهم آل الرسول عليه الصلاة والسلام وبه الزم وإليه أقرب))[1]. وفي عهده أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر فحرم الشراب ومنع الغناء ، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالناس ويؤمهم . وكان يجلس للمظالم بنفسه فبنى قبة لها أربعة أبواب سماها (قبة المظالم) يجلس فيها للعام والخاص ، ومنع رجال دولته من الظلم والتعدي على حقوق الآخرين[2]. كما أظهر التقشف في مأكله وملبسه ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فضربت دنانير ودراهم[3].

أدرك المهتدي أن ضعف مؤسسة الخلافة يكمن في سيطرة طغمة من القادة العسكريين على الشئون المدنية وخاصة المالية منها ، فقام بإجراء بعض الإصلاحات المالية ، وذلك بترشيد النفقات ، فبدأ بنفسه وأهل بيته فخصص مائة درهم يومياً لنفقاته الخاصة ، فبلغ جميع ما أنفقه على نفسه وولده وغلمانه وحشمه خمسة عشر ألف دينار مدة خلافته[4]. كما عمل على أن تدفع رواتب الجند باليوم ليكون في مأمن من ثوراتهم حتى إذا نقصت الأموال خصم ذلك اليوم عليهم [5] . وكان الجندي المشرقي يتقاضى درهمين في اليوم ، بينما يتقاضى الجندي المغربي درهماً واحداً [6] . وحتى يحد من تدخل العسكريين في الشئون الضرائبية باشر المهتدي الإشراف بنفسه على الأمور المالية فكان يجلس للنظر في شئون الخراج والدخل والمصروفات ، والموظفون بين يديه يقومون بعمل الحسابات [7] .

---

١) المسعودي ، التنبيه ، ص٣٣٤ ؛ ابن العمراني ، الأنباء ،ص١٣٣ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ،ص٥٠٥ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ،ص٤٠٦ ؛ المسعودي، مروج ،ج٣ ،ص١٨٩ ؛ ابن العمراني ، الأنباء ،ص١٣٣-١٣٤ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٩٦ ، ٤٤٢ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص١٨٩ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٤٥ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٤ ، ص١٩٠ .

٥) ضيف الله الزهراني ، النفقات وإدارتها ، ص٢٩٩ .

٦) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص ٤٦٠ .

٧) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٥٠٥ .

إلا أن الأمور لم تسر وفق ما كان المهتدي مخططاً لها ، ولم يستمر الهدوء كثيراً في سامراء ، إذ قرر موسى بن بغا ، الذي كان في مهمة حربية في منطقة الجبال العودة مع جيشه إلى سامراء عندما تولى المهتدي الخلافة . وبعودة موسى بن بغا عادت الاضطرابات من جديد في المؤسسة العسكرية ، فاستتر صالح بن وصيف ، وحل مكانه قائد آخر يدعى بايكباك [1] . وعاد الصراع بين القادة أنفسهم كما كان أيام المعتز .

ويبدو أن المهتدي كان قد سئم الخلافات التي لم تنته بين القادة العسكريين المشارقة، فعزم على تقديم الأبناء والتقرب إليهم [2] . كما سئم الجند أنفسهم من قادتهم وحقدوا عليهم ، لأنهم كانوا يستأثرون بالأموال والامتيازات والمناصب والإقطاعات دونهم ، فثاروا مطالبين برواتبهم وقرروا الوقوف بجانب الخليفة ودعمه ، ليتمكن من تحقيق مطالبهم وتهدئة النار المستعرة في مؤسستهم العسكرية ، وتعهدوا بحمايته ، وبقتل كل من يريده بسوء [3] وقد تضمنت مطالبهم :

- أن يستعيد الخليفة نفوذه على كافة شئون الدولة .
- أن يتم تسليم عطاءاتهم مرة كل شهرين وبانتظام .
- أن يعاد تنظيم الجيش على الشكل الذي كان مطبقاً في أيام المستعين ، وهو أن يكون على كل تسعة عريف منهم ، وعلى كل خمسين خليفة ، وعلى كل مائة قائد .
- إسقاط جميع المساعدات التي كانت تدفع للنساء والأطفال .
- أن لا يتدخل القادة العسكريون في الشئون الضرائبية والمالية .
- أن تبطل الإقطاعات وتحسن أحوالها .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٣٨ – ٤٤٠ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ،ج٢ ، ص٥٠٦ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٤٤ .

- أن يتم ترقيات الجيش من قبل الخليفة فقط بأن يزيد من يشاء ويرفع من يشاء .
- أن تكون القيادة العليا للجيش لأحد أخوته [١] .

وعلى الرغم من أن المهتدي وعدهم بتحقيق مطالبهم إلا أن الظروف السياسية والاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها الخلافة لم تمكنه من الوفاء بوعده . فعاد القتال من جديد في صفوف الجند ، وأدى ذلك إلى مقتل بايكباك بأمر من المهتدي . أدى مقتل بايكباك إلى ثورة عارمة بين صفوف رجاله وأعوانه فاجتمع نحو ٧٠ ألفاً، منهم وطالبوا بدمه . فاستنجد المهتدي بالأبناء ومن دعمه من الجند الذين تراوح عددهم نحواً من عشرة آلاف فارس ، والتقى بالثوار في ميدان العاصمة سامراء فتمكن منه الثوار ، وقبضوا عليه ، وسجنوه وطلبوا منه أن يخلع نفسه ، فلما أبى أرغموه على ذلك ، وقاموا بتعذيبه حتى مات في سجنه في ١٨ رجب ٢٥٦هـ / يوليو ٨٧٠ م بعد حكم دام أحد عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً [٢] .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٤٦ ، ٤٦٣ .

٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٥٠٦ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٥٦-٤٥٧ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٣٣ .

الفصل التاسع

العودة إلى بغداد وفترة الهدوء النسبي

٢٥٦-٣٢٢هـ/٨٧٠- ٩٣٤م

١- خلافة المعتمد على الله (أبي العباس أحمد بن المتوكل)

٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠- ٨٩٢ م.

٢- خلافة المعتضد بالله (أبي العباس أحمد بن الموفق)

٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م.

٣- خلافة المكتفي بالله (علي بن المعتضد بن أبي أحمد المتوكل)

٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م.

٤- خلافة المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد)

٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م.

٥- خلافة القاهر بالله (محمد بن المعتضد)

٣٢٠-٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٤م

خلافة المعتمد على الله (أبي العباس أحمد بن المتوكل) ٢٥٦-٢٧٩هـ/ ٨٧٠- ٨٩٢ م:

بعد قتل المهتدي أخرج أحمد بن المتوكل من السجن وبويع بالخلافة ولقب بالمعتمد على الله ، وكان عمره حين ولي الخلافة ٢٧ عاماً . وكان أول عمل قام به المعتمد بعد توليه الخلافة تولية عبيد الله بن يحي بن خاقان منظم الشاكرية وزارته في ٢ شعبان ٢٥٦هـ/يناير ٨٧٠م[١].

اتسم عهد المعتمد الطويل بالهدوء النسبي ، والإصلاح في جميع مؤسسات الدولة ، وخاصة العسكرية منها ، ذلك الإصلاح الذي ابتدأه المهتدي الذي لم يمهله الموت ليرى محاولته تأخذ طريقها إلى النور . وكانت قوات سامراء بعد أن اشتدت المنافسة بين زعمائها قد طالبت المهتدي أن يتولى أمر الجيش أحد أخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم ليتحقق بذلك الإصلاح المنشود. وعندما لم يستطع المهتدي تحقيق مطالبهم وقع ذلك الأمل على عاتق المعتمد لتحقيقه . فوقع الاختيار على أبي أحمد طلحة (الموفق) لكفاءته العسكرية حين قاد القوات السامرائية ضد قوات بغداد أثناء خلافة المعتز . فاستدعى أبا أحمد من منفاه في مكة ، فقدم سامراء في١٣ ذي الحجة سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م[٢].

وفي صفر سنة ٢٥٧هـ/يناير ٨٧١م ، ولى المعتمد أخاه الموفق الكوفة ، طريق مكة واليمن ، ثم ولاه في رمضان من العام نفسه ، بغداد والسواد ، وكور دجلة ، والبصرة ، والأهواز ، وفارس . وجعله ولي العهد الثاني بعد أن جعل ولاية الأولى لابنه جعفر الذي لقب (بالمفوض) . كما طلب من الموفق تدبير أمور المناطق الشرقية التي كانت خاضعة لآل طاهر بعد ضعف نفوذهم ، فأصبح بذلك مسئولاً أعلى من آل طاهر عن هذه المناطق ،

---

١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص٥٠٧ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٧٤ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص١٩٨ ، ١٩٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٧٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٦٠ .

واتخذ من بغداد مقراً له ، وبذلك سيطر على السلطة الحقيقية[1]. وكان لتعاون الموفق مع الوزير عبيد الله بن خاقان دور كبير في إعادة بعض الاستقرار إلى أمور الدولة المضطربة . ولكون الموفق أكثر قابلية على التحكم في الأمور ، وأقوى شخصية من أخيه المعتمد وابنه المفوض ، فإنه أمسك بجميع الأمور بيده وأبقى للخليفة الخطبة ، والسكة ، والتسمي بأمير المؤمنين ، فانكسرت بذلك شوكة العسكريين ، وقلت هيمنتهم على باقي مؤسسات الدولة . وأبعد الخليفة الذي لم يكن له من الأمر شيئاً إلى واسط بعد خمس سنــوات مــن حكمه ، فسار إليها في ذي القعدة سنة ٢٦٩هـ/يونيه ٨٨٣م. فأصبح كالمحجور عليه تدار الأمور باسمه وليس له أي نفوذ[2].

موقف الخلافة من الثورات الداخلية والحركات الانفصالية

ثورة الزنج:

تعدُّ ثورة الزنج من أخطر الثورات التي شهدها العصر العباسي بل ومن أبرزها ، فقد هــزت وبعــنف أســس الدولة العباســية ، أكــثر من أربعــة عشرة سنة ، إذ ابتدأت منذ عهد الخليفة المهتدي سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م ، وازداد خطرها في عهد الخليفة المعتمد . وكــان زعيم هذه الثــورة رجــلاً ادعــى النسب العلــوي وعرف باســم علي بن محــمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، وتنقل في بداية حياته بين مناطق مختلفة في بغداد وسامراء والري والبحرين[3]. وفي (هجر) أهم مــدن البحريــن ادعــى

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٧٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ٣٦١ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٦٤٢ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٣٤ ؛ ابن العمراني ، الأنباء ، ص١٣٧ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٠ ؛ ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، مج٢ (بيروت: دار الأندلس ، د.ت) ، ص٣١١ ؛ مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، تحقيق: عُمر السعيدي (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، د.ت) ، ج٤ ، القسم الأول ، ص١٤-١٦ .

النبوة ، وأنه يعلم الغيب ، فاستقطب عدداً من المؤيدين ، وأصاب نجاحاً مرموقاً وأحله أهل البحرين وأعدوه نبياً حتى جبي له الخراج . وعلى أثر ذلك نشبت فتنة أسفرت عن قتل بعضهم فانتقل على أثرها إلى البادية متنقلاً بين أحيائها ومصطحباً معه جماعة من أهل البحرين(١).

وعندما لم يبد أهل البادية اهتماماً بدعوته انتقل منها إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ، ونزل بين عرب بني ضبيعة ودعاهم إلى حركته فاتبعه جماعة منهم. فلما اكتشف أمره بالبصرة فر مع بعض من أصحابه إلى بغداد. وفي بغداد استمال جماعة من أهلها بعد أن مكث بها عاماً كاملاً ثم – غادرها إلى البصرة مرة أخرى بعد عزل واليها المتشدد ، ونزل بضاحية من ضواحي البصرة تسمى برنجل ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ/ أغسطس ٨٦٩م(٢).

ومن هذا الموضع شرع علي بن محمد في دراسة أحوال سكان منطقة جنوبي العراق لضمهم إلى حركته ، فالتفت حوله جموع غفيرة من سكان المنطقة ، وعلى رأسهم الزنج الذين كانوا يعملون بالسباخ وإزالة الطبقة الملحية منها بعد أن وعدهم بأن يملكهم العبيد والأموال ، وحلف لهم ألا يغدر بهم وألا يخذلهم أو يدع لهم شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم(٣). وقد استطاع صاحب الزنج هذا فيما بين عامي٢٥٥-٢٦١هـ/٨٦٩-٨٧٤م أن يسيطر على البصرة وما حولها ، ثم امتد نفوذه إلى الأهواز ، وعبدان ، والآبلة وواسط ، وهي الفترة التي يمكن أن يطلق عليها فترة انتصارات صاحب الزنج .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١١ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١١-٤١٣ ؛ ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، مج٢ ، ص٣١٢ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٣٥ ؛ وقيل بير نخل ، مجهول ، العيون والحدائق ، ج٤ ، ص٤٧ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٣-٤١٤ .

والحقيقة أن منطقة جنوب العراق كانت أرضاً خصبة لاحتضان مثل هذه الحركات . فقد ذكرت المصادر أن الجبهة التي شهدت أحداث انتفاضة الزنج هي المنطقة الممتدة من مصب دجلة العوراء (شط العرب حالياً) وبين مدينة واسط ، وهي منطقة ملأى بالأجام والمستنقعات والأدغال وغابات النخيل ، وتخترقها آلاف القنوات التي تزداد حول البصرة وهي المنطقة التي تسمى بالبطيحة والبطائح ، وتسمى أحياناً (ببطائح واسط) أو (بطائح البصرة) لوقوعها بين هاتين المدينتين . وفي هذه المنطقة تواجه الملاحة النهرية صعوبة كبيرة[1]. وهي بؤرة للأمراض والأوبئة والملاريا[2].

وعليه فإنه من الطبيعي أن منطقة تتصف بهذه الصفات الجغرافية تصلح لأن تكون ملاذاً يلوذ بها أصحاب المصالح ، والعصاة والمتمردون وأن يستغلوا ظروفها الطبيعية لصالحهم أحسن استغلال ، وقد رأينا من قبل كيف أن الزط الذين كانوا يقيمون في هذه المنطقة استغلوا ظروفها الطبيعية للقيام بانتفاضتهم . وعلاوة على ذلك فإن تباين واختلاف عناصر السكان في هذه المنطقة واختلاف مذاهبهم ، وأديانهم جعلتها بيئة صالحة لظهور مثل هذه الانتفاضات .

وقد كانت الغالبية الساحقة من الثوار الذين انضموا إلى هذه الثورة من الزنوج الذين استوطنوا منطقة الخليج ، وجنوبي العراق . والزنوج هم من سكان الساحل الشرقي لأفريقيا ، عرفه جغرافيو العرب قديماً (بساحل الزنج) أو زنجبار[3]. وقد كان من بين هؤلاء الزنوج ، الأفريقيون الشرقيون الأحرار الذين استوطنوا في جميع المراكز التجارية في الخليج ، وجماعات من الرقيق

١) أنظر مقالة للكاتبة بعنوان " البطائح تحت نفوذ عمران بن شاهين " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، مج٧ (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ، ص١١٦ .

٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٢٥ .

٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٦ .

السود الذين جلبهم التجار المسلمون بأعداد كبيرة ، إما لاستخدامهم في الأعمال المنزلية ، أو للعناية بالزراعة . ومع أنهم كانوا ينتشرون في أكثر من موقع إلا أن تمركزهم الحقيقي كان في منطقة البطائح الممتدة بين البصرة وواسط . وكان عليهم أن يجففوا المستنقعات الناتجة عن البثوق والفيضانات الحاصلة من نهري دجلة ، والفرات ، وأن يزيلوا عن الأرض جميع الطبقة الملحية وهي السباخ التي تتسرب إليها من مياه الخليج ، وإعدادها للحرث والزرع(١). وقد أطلق على الذين كانوا يعملون بإزالة الطبقة الملحية اسم الشورجين(٢). وهو عمل مرهق ومع ذلك كانوا يعملون بلا مقابل تقريباً واقتصر أجرهم على طعام مكون من الدقيق والسويق والتمر(٣). ولاشك في أن علياً بن محمد أدرك هذه الحقائق ، بعد أن مكث زمناً يتجول في سهول البصرة يدرس أحوال هؤلاء الزنوج فأستغل ذلك أحسن استغلال ونجح في استقطابهم إلى ثورته .

وعلى الرغم من أن الغالبية الساحقة من الثوار الذين انضموا إلى ثورة عليّ بن محمد كانوا من الزنج إلا أن وجود العنصر العربي في هذه الثورة أمر لا يستهان به ويظهر ذلك بوضوح في زعامتها وقادتها . فعليّ بن محمد كان عربياً بدون شك سواء كان من السلالة العلوية كما ادعى أو من قبيلة عبد القيس كما أكدته المصادر(٤). كما أن أنصاره المخلصون والمقربون إليه والذين كان لهم شأن في قيادة هذه الثورة كانوا عرباً من البحرين ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر رجل كيال من أهل الإحساء يدعى يحي بن محمد الأزرق المعروف بالبحراني ، ويحي بن أبي ثعلب ، وكان تاجراً من أهل

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٣ .

٢) الشورج: مشتقة من كلمة شورة وهي كلمة فارسية تعني (الملح) .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٣ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص٣٤٧ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج١ ، ص٣٦٣ ؛ ابن الوردي ، تاريخ الوردي ، ج١ ، ص٢٢٤ .

هجر ومحمد بن سلم القصاب الهجري ، وحسين الصيدناني وغيرهم[1]. وعندما نزل علي بن محمد بين عرب بني ضبيعة بالبصرة سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م دعاهم إلى حركته فتبعه جماعة من بينهم ، عليّ بن أبان المهلبي ، وأخوه محمد والخليل[2]. ويعد آل المهلب من أهم الأسر العربية التي خدمت كلاً من الأمويين والعباسيين بإخلاص .

أما عن دور القبائل العربية فقد انضم إلى ثورة علي بن محمد بعد رجوعه إلى البصرة سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م بعض القبائل التي كانت تسكن منطقة جنوبي العراق والبطائح ، ويشير الطبري إلى دور قبيلة باهلة في هذه الانتفاضة ومساندتهم لها ، إذ أن علياً بن محمد استخدمهم كأدلاء ومرشدين لمعرفتهم بطرق البطائح ومسالكها[3]. كما تعاطف جماعة من قبيلة عجل بن بكر بن وائل بقرية الجعفرية ، جنوب شرق البطائح مع حركة الزنج ، فعرضوا أنفسهم على زعيم الثورة واستعدادهم لبذل ما لديهم لدعم ثورته ، وقد رحب بهم وأمر بعدم التعرض لهم ولقريتهم[4].

كما انضم إلى قائد الثورة بعض أفراد من قبيلتي أياد وهمذان ، ومنهم محمد بن الحسن الإيادي وإبراهيم بن جعفر الهمذاني[5]. ولعل انضمام هذين الرجلين لم يكن مجرد انضمام أفراد من قبيلتي إياد وهمذان فحسب ، وإنما انضمام جماعة من هاتين القبيلتين . كذلك اشترك جماعة من قبيلتي تميم وأسد مع علي بن أبان المهلبي في اقتحامه البصرة سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م[6]. وترتب على ذلك رسوخ قدم علي بن محمد وثورته في جنوب العراق وتمصير العديد

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١١ ؛ ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ص٣١٢ .
٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١١ ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، ج٤ ، ص٤٩ .
٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٣٧ .
٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٢٠ .
٥) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٢ ، ٤١٨ .
٦) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٨٣ ، ٤٨٦ .

من المدن كالمختارة ، والمنيعة ، والمنصورة ، وغيرهما وانضمام العديد من القبائل العربية إليه .

وقد تغلغل في هذه الثورة العنصر اليهودي ، وعلى سبيل المثال فقد جاء رجل يهودي خيبري يدعى ماندويه إلى علي بن محمد ، وزعم أنه يجد صفته في التوراة ، وأنه يرى القتال معه(١).

وهكذا تتضح أمامنا صورة مكونات العناصر البشرية التي اشتركت في ثورة الزنج ، وبالتالي نستطيع القول بأن هذه الثورة ليست ثورة عبيد كما ادعى بعضهم(٢) ، وإن كان غالبية من شارك فيها من الزنج ، وذلك للحيثيات التالية:

- أن كلمة زنج لا ترادف كلمة الرقيق أو العبيد لسواد لون بشرتهم ، فقد كان من بين هؤلاء الزنوج أفريقيون أحرار كانوا يعملون بالتجارة وتبادل السلع الأفريقية .
- ليس كل من كان يعمل على إزالة الطبقة الملحية من الأرض (الشورج) كان من العبيد ، إذ كان هناك أحرار يعملون بالشورج(٣).
- والأهم من ذلك أن مشاركة العنصر العربي في هذه الثورة كان دليلاً واضحاً على بطلان من أطلق عليها هذا الوصف .

ومما لا شك فيه أن هذه الثورة قامت على الطموحات الشخصية البحتة، ولم يكن هدفها تحرير العبيد على الإطلاق ، وإنما العكس من ذلك فقد كان أحد أهدافها امتلاك العبيد ، لأن علياً بن محمد وعد أتباعه ومناهم بأن يملكهم العبيد والأموال والمنازل ، كما أنه كان من دوافع الثورة ومحركها الصراع على

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤٢٠ .

٢) Noldeke, Theodor, Sketches Fnom Eastern History, Translated by J. S. Black, (Edimbrgh 1892) p. 146-175 . E. A. Belyaev, Arabs, Islam and the Arab Caliphate, Translated bY Gourevitch, (pall Mall 1969) p. 241-243 .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٣ ؛ ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ص٣١١-٣١٢ .

التجارة الأفريقية وخاصة السلع المتميزة[١].

وحتى تكون جميع روافد تجارة جنوب العراق في أيديهم ، احتل الثوار مدينة واسط التي تتوسط الطريق التجاري بين البصرة وبغداد . كما استولوا على الكوفة بعد أن قتلوا عاملها وطردوا قوات الحكومة منها ، وذلك لتأمين الطرق البرية أيضاً[٢]. وبناء عليه ازدهرت جميع المدن التي أنشأها الثوار تجارياً ، وأصبحت تجمع في أسواقها ثروات ضخمة ، ويأتي إليها التجار والأعراب من جميع النواحي حاملين ما معهم من بضائع للإتجار بها[٣].

والذي ساعد علياًّ بن محمد على الاستمرار والتوسع في اقتطاع أراضي الخلافة العباسية حتى باتت بغداد مهددة من قبله ، هو انهماك قوات الخلافة في محاربة يعقوب بن الليث الصفار أحد الخارجين عليها في منطقة سجستان . وأخيراً تفرغ الموفق أخو الخليفة المعتمد لمحاربة عليّ بن محمد ، وأعوانه ففرض حصاراً اقتصادياً على المدن التي استولى عليها ، ومنع الأعراب من حمل المؤن والطعام إليها ، ثم دارت معارك عنيفة بين الطرفين انتهت باحتلال (المختارة) عاصمة علي بن محمد ، وتوالت بعد ذلك هزائمهم ، وسقوط مدنهم الأخرى حتى تم النصر النهائي سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م ، وقتل عليّ بن محمد وابنه ، واستسلم من بقى من اتباعه[٤].

استقلال يعقوب بن الليث الصفار بمنطقة سجستان:

أدى ضعف الطاهرين المسئولين عن الشرق وإهمالهم لمنطقة سجستان النائية الواقعة جنوب شرق منطقة فارس أن عمت الفوضى في المنطقة

---

١) أنظر مقالة للكاتبة بعنوان " ثورة الزنج هل هي ثورة عبيد ؟ " ، مجلة المؤرخ المصري ، يصدرها قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١٤ (يناير ١٩٩٥م) ، ص٢١٩-٢٤٠ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٥٠٨ ، ٥٣٦-٥٤٠ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٣٥ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٦٠٥ .

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٦٥٤-٦٦٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٥١-٥٣ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٤٠٠-٤٠٧ .

وكثرت أعمال النهب والسلب وازدادت حركة قطاع الطرق . وعندما عجزت قوات الطاهريين عن وضع حد للمشاغبين وتأمين الطرق قام أهالي المنطقة بالدفاع عن أنفسهم وعن مصالحهم فكونوا فرقاً من المتطوعة لهذا الغرض . وكان يعقوب بن الليث الصفار أحد زعماء هذه المنطقة ، الذي استطاع فيما بعد عن طريق هؤلاء المتطوعين أن ينشئ أول دويلة استطاعت أن تنال شبه استقلال عن الخلافة العباسية ، عرفت باسم الدولة الصفارية واستمرت ما يقرب من الخمسين عاماً من ٢٥٤-٢٩٨هـ/٨٦٨-٩١٠م[١].

لم تقتصر أطماع يعقوب على سجستان ، وإنما تعداها إلى المناطق المتاخمة فمد نفوذه على باقي أملاك الإمارة الطاهرية ، فضم خراسان وفارس ، وتمكن من الاستيلاء على نيسابور عاصمة الطاهريين سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م ، وأزال بذلك ملك الطاهريين في خراسان ، وأقام دولته على أنقاضها في المشرق[٢].

لم يكتف يعقوب بما حققه من نجاح على حساب الطاهريين في المشرق بل أرسل إلى الخليفة المعتمد يطالبه بتقليده رسمياً جميع ما بيد آل طاهر من أعمال ، وشرطة بغداد ، وسامراء ، وأن يقلده حكم كرمان وسجستان والسند وأن يعترف بشرعية حكمه على جميع المناطق[٣].

ونظراً لما كانت تمر به الخلافة من انشغال قواتها في محاربة الزنج فقد وافق أصحاب القرار ببغداد وسامراء على مطالب يعقوب ، الذي كان قد هدد الخلافة بالهجوم على بغداد في حالة عدم رضوخها لمطالبه ، وعلى الرغم من موافقة الخلافة على تلك المطالب إلا أنه سار في تحدٍ متجهاً نحو بغداد ؛ معللاً سلوكه هذا بأنه يريد مقابلة الخليفة ، وقد أحرج هذا التصرف الإدارة

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٣٨٢ ؛ المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص٢٠٠ . وقد سمي يعقوب بالصفار لأنه كان يعمل في أول حياته بصناعة الصفر .

٢) ابن الوردي ، تاريخ الوردي ، ج١ ، ص٢٢٤ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج٣ ، ص٣٨٥-٣٨٦ .

٣) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٩٠ .

العليا في حاضرة الخلافة ، ولم تجد غير الحرب وسيلة للحد من جرأته عليها. فجعلت قيادة الجيش للموفق ، الذي ترك ساحة القتال مع صاحب الزنج ، وتفرغ لمحاربة يعقوب ، كما خرج الخليفة المعتمد بنفسه إلى بغداد ، ومنها سار الجيش إلى الزعفرانية . وكان يعقوب الذي تمكن من دخول واسط في جماد الآخرة سنة ٢٦٢هـ/مارس ٨٧٦م قد تقدم إلى دير العاقول في تحد سافر . وبفضل براعة الموفق في قيادة المعارك استطاع أن يحرز انتصاراً ساحقاً على جيوش يعقوب في ١١ رجب من العام نفسه . وقد تراجع يعقوب أمام هذا النصر إلى نيسابور تاركاً وراءه غنائم كثيرة من الأموال والدواب . وقد أعاد هذا الذي حققه الموفق للخلافة هيبتها ونشاطها ، وفعاليتها(١).

موقف الموفق من أحمد بن طولون:

إن الحروب التي قادها الموفق ضد انتفاضة الزنج ويعقوب الصفار كلفت خزينة الدولة أموالاً طائلة . فلم يجد الموفق بداً من أن يطلب من ولاة الأقاليم أن يمدوه بالأموال لمساعدته في إتمام نصره على صاحب الزنج . فأرسل إلى أحمد بن طولون والي مصر يطلب منه مليوناً ومائتي ألف دينار لتغطية نفقات الحرب . ومع أن أحمد طولون أرسل المبلغ المطلوب إلا أن الموفق لم يقنع بالمبلغ المرسل ، وأرسل يطلب المزيد . والحقيقة أن الموفق كان يعمل على الإطاحة بابن طولون وعزله عن ولاية مصر فسعى لدى أخيه المعتمد وأضطره إلى إصدار الأمر بعزل ابن طولون عن ولاية الثغور الشامية . إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً فأعيدت ولاية الثغور إلى ابن طولون مرة أخرى ؛ لعدم قدرة الولاة الذين عينهم الموفق في المحافظة عليها. وقد أراد ابن طولون أن يرد على إهانة الموفق له فبدأ بمراسلة الخليفة المعتمد

١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣٩٠-٣٩١ .

يحرضه على التخلص من سيطرة أخيه الموفق واستبداده بالحكم ، وذلك بالهرب إلى مصر ووعده بحمايته ونصرته ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل لوصول أخبارها إلى مسامع الموفق .

وظل ابن طولون سيد الموقف في وادي النيل ، وصاحب الأمر والنهي واعترفت الخلافة بحكمه في مصر والشام هو وأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً بمقتضى معاهدة الصلح التي وقعت بين الطرفين سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م(١).

توفي الموفق سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م قبل وفاة أخيه المعتمد بسنة واحدة فبايع المعتمد أبا العباس ابن الموفق على ولاية العهد الثانية مكان أبيه ، إلا أن المعتمد اضطر أمام قوة شخصية العباس ومكانته بين الجند ، أن يخلع ابنه المفوض ، الذي لم يكن له أي دور يذكر في الأحداث الجسام التي شهدها عهد والده ، من ولاية العهد الأولى وبايع أبا العباس مكانه . ثم ما لبث أن توفي المعتمد بعد أشهر قليلة فجأة ، بعد أن حكم ثلاثة وعشرين عاماً(٢).

خلافة المعتضد بالله (أبي العباس أحمد بن الموفق)

٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م:

تولى أبو العباس المعتضد بالله الخلافة في اليوم الذي توفي فيه عمه المعتمد في ١٩ رجب سنة ٢٧٩هـ/ نوفمبر ٨٩٢م ، وكان قد تدرب على يد أبيه على فنون الحرب ، وأخذ عنه حنكته السياسية ودهاءه العسكري ، فاتصفت شخصيته بالحزم والشدة في معاملة الأعداء والخارجين على الخلافة. فتقلص في عهده نفوذ العسكريين ، وسكنت فتنتهم وشغبهم(٣).

---

١) الكندي ، الولاة ، ص٢٢٥-٢٢٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٤٩ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٤١٢-٤١٣ ؛ حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص٣٥٥ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٧-٢٣٠ ؛ ابن العمراني ، الأنباء ، ص١٣٨-١٣٩ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج١ ، ص٢٣٣ .

٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٧٣ .

ورث المعتضد عند توليه الخلافة خزينة خالية ، لكثرة الحروب التي شهدها عهد سلفه ، إلا أنه ورث جيشاً موحداً نسبياً خالياً من الانقسامات العنصرية . وكان على المعتضد أن يجد حلاً سريعاً لمشكلة الخزينة الخاوية فعين لذلك عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيراً ، وجعله مسؤولاً عن الإصلاح الاقتصادي والإداري ، وذلك لأمانته وإخلاصه وخبرته الطويلة في الشئون الإدارية والمالية واتصاله الوثيق بإدارة والده الموفق(١).

بادر الوزير على الفور إلى العمل على تحسين وضع الخزينة فقام بعدة إصلاحات منها:

- إصلاح التقويم المعروف (بالنيروز) وهو الموعد الذي كان يستوفي فيه الخراج وقت الحصاد طبقاً للسنة الشمسية الفارسية . ونتيجة للإهمال الذي لحق هذا التقويم من الناحية الحسابية تأخر موعد النيروز في أيام المعتضد ستين يوماً . وعليه فإن استيفاء الخراج كان يتم في شهر نيسان (إبريل) والزرع مازال أخضر ، فرأى الوزير عبيد الله بن سليمان أن يؤجل تحصيل الخراج إلى ٢١ حزيران (يونيو) ؛ ليتفق ذلك مع موعد نضج المحصول ، وأمر بتعميم ذلك على جميع عمال الخراج في الدولة ، طبقاً للسنة الشمسية الرومية حتى لا يتقدم موعد النيروز ، ولا يتأخر . وقد ساعد هذا الإصلاح المزارعين مساعدة كبيرة وتحسنت أحوالهم(٢).

- أبطل ديوان المواريث وأمر بأن يُورث ذوو الأرحام . وكان الخليفة المعتمد قد أنشأ هذا الديوان الذي اعتبر مسؤولاً عن مال من مات ، وليس له وارث يرثه بقرابة أو نكاح . فملكية هذه الأموال تنتقل إلى بيت المال وتصرف في مصالح المسلمين . ويبدو أن الذي حمل المعتمد على إنشاء

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٣٠ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٣٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٧٨ ؛ الخضري بك ، تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) (القاهرة: دار الفكر العربي ، د.ت) ، ص٣٢٣-٣٢٥ .

هذا الديوان هو حاجته إلى المال ، وظل هذا الديوان قائماً طيلة خلافته . فلما تولى المعتضد الخلافة أقنعه وزيره عبيد الله بن سليمان بإلغاء هذا الديوان ؛ لما في هذا القانون من ظلم للرعية لم يقره كتاب الله عز وجل، ولا جرت به سنة رسوله . فاستجاب المعتضد لطلـــب وزيره ، فأصدر في سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م منشوراً عممه على جميع الأطراف أمر فيه بأن يرد الفاضل من سهام المواريـــث إلى ذوي الأرحام ، وبإبطال ديوان المواريث[١]. فعد هذا العمل من إصلاحاته المهمة التي أكسبته محبة العام والخاص .

- تم تحديد أيام العمل للموظفين بخمسة أيام في الأسبوع . فمنح الموظفين يوم الجمعة والثلاثاء عطلة رسمية ، ولكن بغير أجر ، وذلك لتحقيق بعض الوفرة في النفقات[٢]. وقد عُرف عن المعتضد الاقتصاد في إنفاق الأموال فكان لا ينفق المال إلا في ما يلزم لهذا ، فقد ترك عند وفاته في بيت المال تسعة ملايين دينار ، وأربعين ألف درهم[٣].

- اعتماد نظام تلزيم الضرائب في المناطق المجاورة للعاصمة لضمان استقرار بيت المال . فقد عرض على أحمد بن محمد الطائي امتياز جمع الضرائب في منطقة السواد ، والطرق التجارية المؤدية إلى بغداد لقاء مبلغ من المال يؤديه سنوياً إلى خزينة الدولة قدرت بحوالي سبعة آلاف دينار يومياً[٤].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٤٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٨٤ ؛ ابن الوردي ، تاريخ الوردي ، ج١ ، ص٢٣٦ .

٢) الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ، ص٢٢ .

٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٢ .

٤) الصابي ، تحفة الأمراء ، ص١٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٧٠ .

الاضطرابات الداخلية وموقف المعتضد منها:

أتم المعتضد ما بدأه والده في تقوية كيان الدولة العباسية فعمل ما في وسعه للقضاء على الحركات الاستقلالية ، والحركات الثورية بالقوة حيناً ، وبالسياسة حيناً آخر .

ففي سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م قاد المعتضد جيشاً لقمع عصيان بني شيبان ، وقد نجح في إرهابهم فالتمسوا منه الصلح وبذلوا له الرهائن ، فأخذ منهم خمسمائة رجل وعاد إلى بغداد[1].

وفي السنة التالية عندما بلغ المعتضد بأن حمدان بن حمدون قد مال إلى هارون الشاري زعيم الخوارج في منطقة الجزيرة الفراتية ، وأخذ يدعو له واعتصم بقلعة ماردين . خرج إليه المعتضد على رأس جيش عظيم ، فلما علم حمدان بقدوم المعتضد هرب من القلعة ، تاركاً ابنه الحسين بها. فحاصر المعتضد القلعة إلى أن تمكن من فتحها ، وأخذ جميع ما فيها وأمر بهدمها . وأرسل قوة تطارد حمدان ، وبقي هو في الموصل حتى تمكن من القبض على حمدان بن حمدون في بداية سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م[2].

بعد ذلك لم يبقَ أمامه إلا القضاء على هارون الشاري الذي استفحل أمره ، ومن الطريف استعانة المعتضد بالحسين بن حمدان بن حمدون في القضاء على هارون الشاري . فاشترط عليه الحسين أنه إن ظفر بهارون وجاء به إلى الخليفة أن يطلق سراح والده الذي كان ما يزال محبوساً في سجن المعتضد فوافق على ذلك . فأخذ الحسين يتتبع هارون الشاري حتى استطاع القبض عليه ، وجاء به أسيراً إلى المعتضد . فسر المعتضد بذلك ، وأمر بفك قيد حمدان بن حمدون وخلع على الحسين ، وطوقه بطوق من ذهب[3].

---

١) لطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٣٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٤٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٣٧-٣٨ ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، ج٤ ، ص٧٨-٧٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٤٣-٤٤ ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، ج٤ ، ص٨٠-٨١ .

حركة القرامطة:

تعدُّ حركة القرامطة من أعنف الحركات والانتفاضات التي شهد بداياتها عهد المعتضد ، وهي إحدى الحركات المذهبية التي عُرفت بالباطنية ، لاعتقاد معتنقيها بأن لكل ظاهر باطناً ، ولأنهم فسروا القرآن الكريم وفق معان ظاهرية ، وأخرى باطنية مستترة[١]. استمدت جذورها من الحركة الإسماعلية التي انطلقت من مدينة سلمية بنواحي حماة على يد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، الذي أخذ واتباعه يدعون إلى اعتناق هذا المذهب سراً حتى اتسع وانتشر ، ثم تفرقت مع مرور الزمن إلى نحل وطوائف . وعندما كثر اتباع هذا المذهب واتسعت دائرته أعلنت الإسماعلية عن إمام لهم ، هو عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية .

وبهذا يمكن القول بأن طائفة الإسماعلية انقسمت إلى فرقتين:

الأولى: اتخذت من مدينة سلمية مركزاً لها ، ومنها كان الدعاة يوجهون إلى جميع الأقطار من قبل الأئمة المستورين بها ، ومنها ظهرت الدعوة الفاطمية .

الثانية: وتنسب إلى الفرقة التي تزعمها حمدان بن الأشعث المعروف (بقرمط) الذين عرفوا بالقرامطة وانتشروا في مناطق متفرقة في سواد الكوفة والعراق وبادية الشام والبحرين ، وكانت أكثر تطرفاً من الفرقة الأولى .

أما عن سبب تسميتهم بالقرامطة فقد اختلف المؤرخون والنسابون والجغرافيون واللغويون في أصل هذه الكلمة . وقيل إن هذا الاسم أطلق على زعيم هذه الحركة حمدان بن الأشعث فعرف باسم حمدان قرمط ؛ لأنه كان يقرمط في مشيته أي تتضارب خطواته[٢]. وقيل سمي بهذا الاسم لاحمرار لون

١) الهمذاني ، القاضي عبد الجبار ، تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق: سهيل زكار (دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص١٤٧ ؛ البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ، ط٥ (بيروت: دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ص٢٦٨-٢٦٩ .

٢) محمد بن مالك اليماني ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق: سهيل زكار (دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٢١٢ .

بشرته[١]. وذكر ابن منظور أن اسم القرامطة يطلق على جنس من الناس ، والقرامطة جمع واحدهم قرمطي[٢]. وقد ذكر الجغرافي المشهور المقدسي القرماطيين والنوبة بأنهم جماعة من السودان[٣]. كما فسر عددٌ من المستشرقين هذه الكلمة بجملة من التفسيرات المعقدة فرجح ماسينون أنها ترجع في أصولها إلى الكلمة الآرامية قُرماطا التي تعني كلمة (مدلس) باللغـــة العربية[٤]. في حين يرجح ايفانوف أن كلمة قرامطة ترجع في أصولها إلى (كرميثا) أو (كرموثا) وتعني في لغة وادي الرافدين: الفلاح أو القروي[٥].

بينما ربط المؤرخ الطبري اسم القرماطيين باسم النوبة في حولياته ، واستعمل هذا الاسم لأول مرة لوصف مجموعة أيدت ثورة الزنج[٦]. واستناداً إلى ما ذكره الطبري يرجح الدكتور محمد عبد الحي شعبان أن القرامطة هم من بقايا ثورة الزنج ، وأن أصلهم يرجع إلى أفريقيا وأنهم ينسبون إلى جرما[٧] المركز التجاري القديم الذي يقع على خط التجارة بين طرابلس وتشاد ، وأن سبب وجودهم في الخليج العربي وجنوب العراق يعـــود إلى اتســـاع طـــرق التجـــارة وازدهارها بين أفريقيا والبحر الأحمر والخليج العربي[٨]. وفي رأي أن القرامطة هـــم عرب يرجع نسبهم إلى بني قرمط من بني عقيل بن عامر بن صعصعة ، وذلـــك استنـــاداً إلـــى مـــا أشـــار إليـــه ابـــن القيـــسراني فـــي كتاب الأنســـاب

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٢٤ .

٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مج٧ (بيروت: دار صادر ، د.ت) ، ص٣٧٧ .

٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٩٣ .

٤) L. Massignon, karmatians, Encyclopaedia of Islam, (Leiden 1927 p 767.

٥) W. Ivanow, the Isma'ili Tnadition Concerning the Rise of the Fatimids, (oxford Univ. Press,1942 pp 68-69.

٦) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٤١٩ .

٧) جرما: اسم قصبة بناحية فزان في جنوبي أفريقية (تونس) ، افتتحها عقبة بن عامر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٢٩ .

٨) M. A. Shaban, Islamic History II, 102-103 .

المتفقة[1]. ويؤيده الدور الكبير الذي لعبه بنو عقيل وكثير من فروع عامر بن صعصعة في مساندة حركة القرامطة خاصة في البحرين ، كما أن معظم أتباع حمدان قرمط كانوا من القبائل العربية المختلفة التي كانت تسكن منطقة سواد الكوفة[2].

قامت حركة القرامطة بعد القضاء على حركة الزنج في جنوب العراق في نفس الظروف السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية التي قامت في ظلها حركة الزنج ، لذا وجدت حركة القرامطة الطريق ممهداً لطرح شعاراتها المزيفة الرامية إلى تحرير الناس من براثن الظلم وتحقيق مبدأ العدل والمساواة بين الناس في المال، والثروات الطبيعية ، وعدم جعلها في أيدي معينة تحرم العامة منها . فانجذب إليها الكثير من الناس خاصة الفلاحون ومجتمعات الطبقات الفقيرة[3].

وباستجابة فلاحي السواد والطبقات الفقيرة والأعراب الذين يتوقون للغنائم توطد أمر الحركة وبرز دور حمدان قرمط في تنفيذ مبادئها مستغلاً جميع الظروف المحيطة بها . حتى أن السلطة العباسية لم تتمكن من ضرب الحركة في أول أمرها خوفاً من هروب الفلاحين والعمال الذين ساندوها باعتبارهم مصدر الإنتاج الزراعي والصناعي . ونتيجة لذلك فرض عليهم أحمد بن محمد الطائي ملتزم الضرائب في منطقة السواد ضريبة جديدة ، قدرها دينار واحد على الرجل في السنة ، بعد أن علم بأمرهم ، وقد جمع

---

١) ابن القيسراني ، الأنساب المتفقة ، تحقيق: دي جونج (إبريل ١٨٦٥م) ص١٢٠ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب في أخبار حلب ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق: سهيل زكار (دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٢٧٧ .

٢) Faiza Akbar, The Qaramita, ph. D. theses, (Exeter univ, 1984) p.48.

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٢٧ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق: سهيل زكار (دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص ٢٥٩-٢٦٠ .

بفرضه تلك الضريبة أموالا طائلة[1].

وقد كان هذا العمل كافياً لإحداث ردة فعل عنيفة من قبل هذه الجماعات فقاموا في سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م بانتفاضة في جنبلا بين واسط والكوفة . فتخوف المعتضد من تحركهم عسكرياً ، فأمر أحمد بن محمد الطائي بمحاربتهم ففاجأهم بإرسال غلامه شبل على رأس حملة عسكرية استطاعت أن تهزمهم وتقبض على أحد رؤسائهم ، ويدعى (أبو الفوارس) ، وأرسله إلى الخليفة الذي أمر بقتله وصلبه في الجانب الشرقي من بغداد في محرم سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م[2].

بعد هذه المعركة هدأ نشاط القرامطة في سواد الكوفة ، واختفى زعيمها حمدان . وعندما رأى أحد اتباع حمدان ويدعى (زكرويه بن مهرويه) الفارسي الأصل ما جرى لأتباع هذه الدعوة على يد المعتضد نقل نشاطه إلى بلاد الشام وامتد إلى بادية السماوة . وأخذ يعمل على إغواء بعض القبائل العربية المحيطة بالكوفة مثل بني أسد وطئ وتميم ، ولما لم يستجب له أحد من هؤلاء ، بعث أبناءه إلى قبائل كلب التي كانت دعامة الحكم الأموي في السابق ، وكانوا يعملون في ذلك الوقت على حراسة القوافل التجارية بين الكوفة ودمشق عبر تدمر فانضموا إلى حركته . وهذا الطريق التجاري كان خاضعاً لسيطرة أحمد بن محمد الطائي ، ومن الجائز أن انضمام قبيلة كلب إلى هذه الحركة يعود إلى أن هؤلاء قد طولبوا بدفع ضريبة الدينار الواحد في السنة التي فرضها أحمد بن محمد الطائي . وبانضمام بني كلب وخاصة بني العليص منهم إلى هذه الحركة قوي أمرهم ، وبايعوا يحي بن زكرويه ولقبوه بالشيخ وعندما اشتد خطرهم أرسل إليهم المعتضد جيشاً لمحاربتهم والتقى

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٢٥ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق: سهيل زكار (دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٨٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ١٠٠ .

الجيشان في الرصافة ، فانهزم جيش الخلافة شر هزيمة وقتل قائده وقتل عدداً كبيراً من جيشه وأحرقوا مسجد الرصافة ، ثم تابعوا تقدمهم نحو دمشق . وعندما علم عامل دمشق (طغج بن جف) من قبل الطولونيين . بأمرهم تحرك نحوهم بقوة صغيرة ، ظناً منه أنهم مجرد عصابة من البدو فتمكنوا منه وهزموه هزيمة منكرة ، فهرب إلى دمشق وتحصن بها . وبذلك تمكن هؤلاء من بسط سيطرتهم على بادية الشام وعلى الطريق التجاري بين الكوفة ودمشق في نهاية عهد المعتضد وبداية عهد المكتفي(١).

ويرجع ظهور حركة القرامطة في البحرين إلى الحسن بن بهرام الملقب بأبي سعيد الجنابي سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م ، والمنسوب إلى جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس . وكان أبو سعيد يتاجر في الدقيق بالزارة ، وكان ضامناً للمكوس بالقطيف ببلاد البحرين(٢). وهو أول ضامن للمكوس أشار له التاريخ الإسلامي(٣). ويقال إنه تزوج من بني القصار الذين كانوا يدينون بمذهب القرامطة ، فاعتنق هذا المذهب وبدأ في ترويجه ونشره فالتفت حوله كثير من القبائل ، مثل قبائل بني عامر ، وبني عقيل ، وبني كلاب فتمكن من تنظيمهم في شكل جيش قوي استطاع به إنشاء قاعدة حربية كبيرة في البحرين شكلت تهديداً خطيراً على ميناء البصرة ، وعلى الخلافة العباسية(٤).

استطاع أبو سعيد بسط سيطرته الفعلية على هجر والإحساء والقطيف

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٩٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٩٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٧١ ؛ الهمذاني ، تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ، ص١٥٠ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق: سهيل زكار (دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٣٣٤ .

٣) كانت الجمارك آنذاك تعطي بالضمان ، وفق لائحة رسوم محددة باعتبار أن الموانئ هي المركز الرئيسي للاستيراد والتصدير ، فكانت جماركها ترسو على أحد أبنائها فتعطى له بالضمان مقابل مبلغ معين يدفعه للدولة كل عام .

٤) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص١٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٩٣ ؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٤٧ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص٣٣٤-٣٣٥ .

وسائر البحرين ، وأنشأ دولة مستقلة عاصمتها (المؤمنية) . ومن ثم قرر التوجه إلى البصرة لاجتياحها ، وما أن وصلت الأنباء لواليها أحمد بن محمد الواثقي حتى أسرع بطلب المدد من الخليفة المعتضد الذي سير إليه سميريات (نوعاً من السفن) ، فيها ٣٠٠ رجل ، وأمره ببناء سور حول البصرة من أموال الخراج[١].

وفي عام ٢٨٧هـ/٨٩١م عزل المعتضد العباس بن عمرو الغنوي الذي كان والياً من قبله على بلاد فارس ، وأقطعه اليمامة والبحرين بهدف القضاء على حركة أبي سعيد الجنابي . وقد قاد العباس حملة عسكرية مكونة من ٢٠٠٠ رجل ، والتقى مع جيش أبي سعيد بالبصرة واقتتل الجانبان قتالا شديداً وانتهت المعركة بهزيمة العباس الغنوي ، وقتل وأسر العديد من أفراد جيشه ، وكان الغنوي من ضمن الأسرى . وبعد أن بقى الغنوي عند أبي سعيد أياماً أطلقه مزوداً إياه برسالة إلى الخليفة المعتضد مضمونها : الكف عن مهاجمته وحفظ حرماته . أغضبت تلك الرسالة المعتضد غضباً شديداً وتوعد بأن يتوجه لمحاربة أبي سعيد بنفسه ، وأن يرسل له الحملة تلو الحملة حتى يقضي عليه إلا أنه مرض ومات دون أن يحقق ما كان يتمنى[٢].

وفاة المعتضد:

توفي الخليفة المعتضد بالله في ربيع الثاني من سنة ٢٨٩هـ/مارس ٩٠٢م، وكانت مدة خلافته ٩ سنين ، و٩ أشهر و٢٤ يوماً ، وعمره ٤٦ عاماً ودفن في دار عبد الله بن طاهر . وقد اختلف المؤرخون حول سبب وفاته فبعضهم يقول إن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم ، وذكر بعضهم أنه مات مسموماً، سمته إحدى جواريه في منديل أعطته ليتنشف به[٣].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٧٥ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص١٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٧٧-٧٩ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة، ص١٤-١٥.

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٨٦-٨٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ٢٧٣-٢٧٤ .

وكان الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب قد توفي قبله بعام واحد ، وعين مكانه ابنه القاسم بن عبيد الله وزيراً .

خلافة المكتفي بالله (علي بن المعتضد بن أبي أحمد المتوكل) ٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م:

بويع المكتفي بالخلافة في صبيحة وفاة والده المعتضد وبعهد منه وذلك في يوم ٢٣ ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ/مارس ٩٠٢م ، فأخذ له البيعة وزير والده القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب . وكان المكتفي بالرقة ، فلما وصل إليه خبر وفاة والده سار إلى بغداد بعد أن أخذ البيعة من جنده(١).

وكان أول عمل قام به المكتفي بعد توليه الخلافة أن خلع على الوزير القاسم وأبقاه في منصبه ، وبذلك سارت الأمور الإدارية والخطط العسكرية على ما كانت عليه في عهد والده إلا ما كان من أمر المطامير التي أمر المكتفي بهدمها بعد أسبوعين من توليه الخلافة ، والمطامير هي الأماكن التي اتخذها المعتضد لمعاقبة المجرمين وقتلهم وخاصة العسكريين فكان المعتضد إذا غضب على أحد منهم أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه(٢).

الأوضاع السياسية في عهد المكتفي:

القضاء على قرامطة بلاد الشام والدولة الطولونية:

بذل المكتفي جهداً كبيراً في القضاء على الفتن التي كانت قد بدأت في عهد أسلافه ، واستفحل أمرها في عهده كحركة قرامطة بلاد الشام التي مات المعتضد قبل أن يضع حلاً لها . وكان يحي بن زكرويه استغل موت المعتضد فبدأ بمهاجمة المدن والقرى الشامية ؛ مما أثار الهلع والقلق في بلاد الشام . فطلب عامل دمشق طغج بن جف النجدة من مصر ، فأرسل إليه الطولونيون

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص٨٨ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٥ .

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٠٠ .

جيشاً بقيادة بدر الكبير غلام أحمد بن طولون ، فاجتمع مع طغج على حرب يحي بن زكرويه . وفي المعركة قتل يحي فولى القرامطة عليهم أخاه الحسين بن زكرويه ، وتلقب بـ(صاحب الخال) ، وتسمى (بأمير المؤمنين) وفرض الجزية على أهالي دمشق . بعد ذلك وجه هجماته نحو الشمال فاحتل مدينة السلمية بعد أن هدمها ودمرها(١).

خشيت الحكومة في بغداد من مغبة سيطرة القرامطة على بلاد الشام ، وعلى الطرق التجارية . فخرج المكتفي بنفسه إلى الرقة لتوحيد الجهود في محاربة القرامطة ، وجهز جيشاً كبيراً بمساعدة وزيره القاسم بن عبيد الله ، وجعل على قيادته محمد بن سليمان الكاتب . واستطاع هذا الجيش بقليل من الجهد القضاء على جيش القرامطة في موقعة بالقرب من حماة فقتل عدداً كبيراً منهم ، وتفرق الباقون ، وألقى القبض على الحسين بن زكرويه بعد أن حاول الهرب متنكراً إلى البادية . فأرسل إلى الخليفة المكتفي بالرقة في محرم سنة ٢٩١هـ/نوفمبر ٩٠٣م فأمر المكتفي بقتله وقتل جميع الأسرى . وبذلك استعادت الحكومة المركزية سيطرتها على بلاد الشام مؤقتاً(٢).

والحقيقة أن اهتمام المؤسسة العسكرية وعلى رأسها الخليفة المكتفي بتجهيز مثل هذا الجيش الكبير – لم يكن الهدف منه بدون شك هو القضاء على قرامطة بلاد الشام فحسب ، وإنما الهدف كان أكبر من ذلك وهو القضاء نهائيا على نفوذ الدولة الطولونية في مصر وبلاد الشام . فبعد النصر الذي أحرزه جيش محمد بن سليمان الكاتب على قوات الحسين بن زكرويه ، وتفرق أنصاره في البادية صدرت الأوامر العسكرية إلى هذا الجيش بالتوجه إلى مصر ومهاجمة الطولونيين .

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ؛ ص٩٥-٩٦ ، ٩٩ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص١٨-١٩ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٠٣-١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٢٢-٢٤ ؛ المقريزي ، ، اتعاظ الحنفا ، ص٣٤٥-٣٤٨ .

استطاع محمد بن سليمان الكاتب من دخول الأراضي المصرية دون أن يجد أي صعوبة تذكر ، فلما أدرك الطولونيون عجزهم عن الوقوف في وجه قواته طلب آخر زعمائها شيبان بن أحمد بن طولون الأمان لنفسه ، وإخوته وجميع أهله. فدخل محمد بن سليمان الفسطاط في ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ/ يناير ٩٠٥م ، فأمر بإحراق القطائع واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض على جميع أفراد أسرتهم ، وكان عددهم نحو عشرين رجلاً فقيدهم وأرسلهم إلى بغداد(١). وبذلك سقطت الدولة الطولونية بعد حكم استمر لمدة ٣٨عاماً ، وعادت مصر إلى حظيرة الدولة العباسية .

وقد أسهم في هذا الانتصار السهل عاملان هما انضمام بدر الحمامي والي الشام من قبل الطولونيين - ورجاله إلى جانب قوات الحكومة المركزية ، واشتراك قوات طرسوس البحرية مع الجيش البري بالهجوم على الفسطاط(٢).

وبعد سقوط الطولونيين ظن قرامطة بلاد الشام ، الذين كانوا قد تفرقوا في البادية بعد مقتل زعيمهم الحسين بن زكرويه أن فرصة لم شملهم واستعادة قوتهم مرة أخرى قد حانت . فتحركـوا تحـت زعامـة زكـرويه الذي كـان مختبـأ في البـادية واستطاعـوا فيما بين سنتي ٢٩٣-٢٩٤هـ/٩٠٥-٩٠٦م أن يهاجموا القوافل التجارية وقوافل الحج يقتلون وينهبون ما بها من بضائع . فلما ازداد خطرهم استعان المكتفي بالحسين بن حمدان بعد أن أمده بجيش مـن بغداد . فالتقى الفريقـان على طريق مـكة ، وانتـهت المعركة بقتل عدد كبير من القرامطة وأسر زكرويـه الذي جـرح في المـعركة ومـات بعـد خـمسة أيـام(٣). وبذلك قُضـي على قرامـطة الشام ، كما قضي على قرامطة سواد الكوفـة فـي

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١١٨-١١٩ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج٣ ، ص٤٤٣-٤٤٤ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١١٩ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٢١-١٢٧ ، ١٣٠-١٣٤ ، ١٣٥ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٢٥-٣٥ .

عهد المعتضد ولم يبقَ على الساحة سوى قرامطة البحرين الذين أسسوا لهم دولة قوية في منطقة الإحساء استمرت ما يقرب من مائتي عام .

العلاقة مع البيزنطيين:

استغل البيزنطيون انهماك جيوش الخلافة بقتال القرامطة فأغاروا على مناطق الحدود الشامية في عام ٢٩١هـ/٩٠٤م ، وعاثوا فسادا في مدن الثغور ، فتصدى لهم المسلمون ، إذ خرج لهم جيش إسلامي من طرسوس وفتحوا أنطاليا ، وهي من أهم مدن البيزنطيين وثغورهم البحرية كما استولوا على ستين مركباً للبيزنطيين[١] ، إلا أن هذه المناوشات على الحدود لم تمنع الخليفة المكتفي والإمبراطور البيزنطي ليو السادس من إيجاد أفضل الفرص للتعايش السلمي في منطقة الحدود ، فتبودلت من أجل ذلك الهدايا بين الطرفين . وفي سنة ٢٩٢هـ/٩٠٦م حصل فداء بين المسلمين والبيزنطيين ، فكان جملة من افتدى من المسلمين نحو ١٢٠٠ أسير[٢]. وفي نفس العام عين المكتفي أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان أميراً على الموصل من أجل دعم الاستقرار في منطقة الحدود ، فبادر أبو الهيجاء إلى إخضاع البدو والأكراد ، وحمى المنطقة من غاراتهم[٣].

وفي نهاية عهد المكتفي وقبل وفاته تمت عملية الفداء الثانية سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م ، وكان عدد من افتدى به من المسلمين ما يقرب ثلاثة آلاف ما بين رجل وامرأة[٤].

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١١٦-١١٧ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٤٤٥.

٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٨٠ .

٣) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٣ ، ٤٤٤ . وكانت هذه بداية إمارة الحمدانيين بالموصل.

٤) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٣٨ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٨٠ .

وفاة المكتفي:

توفي المكتفي بالله شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، في ذي الحجة سنة ٢٩٥هـ/أغسطس ٩٠٨م فكانت مدة خلافته ست سنوات وستة أشهر ، و١٩ يوماً بعد أن بذل جهداً كبيراً في قمع الفتن والحركات في عهده[١]. فأقر سلطان الخلافة على بلاد الشام ومصر بعد أن قضى على الدولة الطولونية وحركات القرامطة في هاتين المنطقتين . وبلغ ما في خزينة الدولة في عهده أكثر من خمسة عشر مليون دينار[٢]. وكانت الخلافة حرية بأن تستمر في استرداد عافيتها ونشاطها ، وأن تسير في الخط الذي رسمه لها جده الموفق لو أن العمر استطال به .

مات المكتفي ولم يخلف أحدا من بعده ، ولما كان أبناؤه صغار السن وجد أصحاب النفوذ من الوزراء والقادة العسكريين الفرصة لعودة إمساكهم بمقاليد الأمور في الدولة ، وعملوا علي اختيار خلفاء ضعاف لاستمـــرار نفوذهم . فعارضوا ترشيح عبد الله بن المعتز لمنصب الخلافة لما لمسوه فيه من قدرة على تولي زمام الأمور ، واختاروا طفلاً صغيراً هو جعفر بن المعتضد – أخو المكتفي – وولوه الخلافة ولقبوه بالمقتدر[٣]. وقد توفي الوزير القاسم بن عبيد الله سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م قبل وفاة المكتفي ، وحل محله بناء على توصية منه (عباس بن الحسن) الذي تتلمذ على يده فكانت سياسته استمرارا لسياسة أستاذه[٤].

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٣٨ .

٢) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٣٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٨٠ .

٣) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٣٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٩٢ .

٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٨١ ؛ الذهبي ، العبر ، ج١ ، ص٤٢٠ .

خلافة المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد) ٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م:

بويع المقتدر بالله بالخلافة يوم الأحد ١٣ ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ/١٣أغسطس ٩٠٨م ، وكان طفلا لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره ، ولقب (بالمقتدر) ، وكان أصغر من تولى الخلافة: إذ لم يل الأمر قبله أصغر منه ، وقد لعب الوزير العباس بن الحسن دوراً مهماً في توليه الخلافة . بينما عارضه طائفة من الكتاب والقواد ، من بينهم محمد بن داوود بن الجراح ، والحسين بن حمدان ، والتفوا حول عبد الله بن المعتز ، وقاموا بانتفاضة ضد المقتدر أدت إلى قتل الوزير العباس بن الحسن ومبايعة عبد الله بن المعتز بالخلافة في ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٩٦هـ/ديسمبر ٩٠٨م . وكاد الأمر أن ينتهي بتنازل المقتدر عن الخلافة لولا قيام قادة الجيش ومنهم مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن ، وغريب الخال خال المقتدر بانقلاب عسكري ، وفي خلال ٢٤ ساعة أعادوا فيها المقتدر مرة أخرى إلى سدة الحكم ، وتم اعتقال عبد الله بن المعتز وقتله وقبض على كل من كان له يد في بيعة ابن المعتز[١]. وبذلك انتهت هذه الفتنة إلا أنها كانت مؤشراً على عودة ضعف الخلافة وانتكاستها .

ولم يكن المقتدر على مستوى الأحداث الشائكة التي تحيط به ، نظراً لصغر سنه فترك إدارة أمور الدولة في يد قادة الجيش والوزراء والكتاب ، وبقى هو مغلوباً على أمره طوال مدة خلافته . وتدخلت النساء في الحكم ، وخاصة والدته (شغب) ، وكانت تسمى (السيدة) ؛ لقوة نفوذها وتدخلها في شؤون الحكم ، حتى أصبح يتقرب إليها كل من يريد منصباً مرموقاً في مؤسسات الدولة . وبلغ بها الاستهتار أن عينت قهرمانتها على رأس ديوان المظالم . وبذلك تفشت الرشوة بشكل كبير ؛ حتى أصبحت سمة من سمات عهد المقتدر . وفي ذلك يقول ابن طباطبا ((واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٤٠-١٤١ ؛ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٤٢-٣٤٣ .

ذات تخليط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم ، وهو مشغول بلذاته ، فخربت الدنيا في أيامه ، وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قتل))[١].

وضع المؤسسات الحكومية في عهد المقتدر

الوزارة:

تمكن الوزراء والكتاب من أن يلعبوا دوراً أساسياً في توجيه سياسة الدولة في عهد المقتدر . وقد تولى في هذه الحقبة من الزمن اثنا عشر وزيراً فيهم من وزر المرتين والثلاث . وكان لبني الجراح وبني الفرات النصيب الأكبر في تولي هذا المنصب المهم والحساس . وقد كان لكل عائلة منها وجهة نظر خاصة به ، وخطاً سياسياً مغايراً للخط الآخر ، فلو تتبعنا سير الوزراء في هذه الفترة لوجدنا أغلب من تولى الوزارة كان يحمل اسم إحدى العائلتين ، وإن لم يكن كذلك كان من أنصارهما . وللوقوف على وضع الوزارة في عهد المقتدر لابد من تتبع سياسة كل من هاتين العائلتين:

أولاً آل الفرات: كان أول وزراء المقتدر بعد مقتل العباس بن الحسن هو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات ، الذي أصبح يتمتع بمنزلة عالية لديه ، ولدى أمه السيدة التي كانت تعترف بفضله على ولدها . ولم يكن ظهور آل الفرات لأول مرة في عهد المقتدر ، إنما تولى أبناء هذه العائلة أهم المناصب الحكومية منذ عهد المعتمد ، وبمرور الوقت تكونت لهم علاقات في جميع الأوساط ، ومن أهمهم فئة العسكريين وقادة الجند[٢]. إلا أن أهم ما يميز سياستهم هو أنهم كانوا معارضين لسياسة الإقطاع ، وعملوا على إبعاد الجيش

---

١) ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٦٢ .

٢) الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص١١ .

عن التدخل في الشئون المدنية وبخاصة مسألة الضرائب. إلا أنهم تهاونوا في معاقبة المرتشين وعدّوها حقيقة واقعة في ظل الفساد الإداري ، فتفشت بذلك الرشوة حتى أنه أسس لذلك ديواناً خاصاً به عرف بـــ (ديوان المرافق)[١].

وكان أول عمل قام به الوزير أبو الحسن علي بن الفرات هي عقوبة كل من خرج مع ابن المعتز . وعلى الرغم من محاسن ابن الفرات الكثيرة مثل إبطال بعض الضرائب الجائرة على المواطنين والعمل على إرضاء جميع الأطراف المتنازعة ، إلا أنه اصطدم مع بعض القادة العسكريين ومنهم سوسن الحاجب الذي أمر ابن الفرات بقتله عندما حاول التدخل في شؤون وزارته[٢]. وعندما حاول ابن الفرات منع الجيش من التدخل في سياسة الدولة وعمل على تقليص عدد الجند حتى يخفض من عبء الإنفاق عليهم من خزينة الحكومة المركزية ، قوبل ذلك العمل بالرفض الشديد من قبل قادة الجند ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم الذي أرغم الوزير على ترك منصبه . فنهبت داره وصودرت أمواله بعد أن قضى في وزارته هذه ثلاث سنوات وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً[٣].

تقلد الوزارة بعد ابن الفرات محمد بن عبد الله بن يحي بن خاقان في ذي الحجة سنة ٢٩٩هـ/أغسطس ٩١٢م . وعندما فشل هذا الوزير في دفع رواتب الجند ثاروا مطالبين بدفع استحقاقاتهم فعمت الفوضى . ولما لم يكن الوزير المسن على مستوى الأحداث فإنه عزل وجئ بشخص جدير بالثقة ينتسب إلى آل الجراح[٤].

---

١) الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص٢٩ .

٢) أحمد بن محمد بن مسكويه ، كتاب تجارب الأمم (القاهرة: طبع فرج الله زكي الكردي ، د.ت) ، ص ١٢ ؛ الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص٢٥ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٠ ؛ الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص٢٦-٢٧ .

٤) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٠، ٢١-٢٥ ؛ الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص٢٧ ، ١٩٦-٢٠٧.

ثانياً آل الجراح: تسلم علي بن عيسى بن الجراح الوزارة بعد قدومه من مكة في ١٠ محرم سنة ٣٠١هـ/١٠مايو ٩٢٢م ، وكان قد لجأ إليها مدة خمس سنوات خوفاً على نفسه . وتولى الوزارة بناء على تزكية من مؤنس الخادم الذي كان تربطه به علاقة ود وصداقة على الرغم من معارضة أم المقتدر وخاله ، اللذين كانا يرغبان في عودة آل الفرات إلى المنصب(١).

كان من أهم أهداف علي بن عيسى الاقتصادية هو تعديل ميزانية الدولة وذلك بتقليل النفقات التي تخرج من خزينة الدولة . فبدأ بتخفيض مرتبات الجند ، والتضييق على الأمراء وإحداث بعض التعديلات الضريبية ، فأعاد ضريبة الأرض في بعض مناطق فارس والعراق ، وبذلك استطاع أن يرفع من دخل الدولة(٢).

أما عن إصلاحاته المالية الأخرى التي انصبت في مصلحة المواطن فمنها: أنه تصدى للفساد الإداري ومنع الرشوة وألغى بعض الضرائب التي كانت تثقل كاهل الشعب ، وأسقط الضرائب المفروضة على تجارة مكة والموانئ الواقعة على الخليج وبعض ثغور الجزيرة . وأزال جباية الخمور بديار ربيعة ، وأشار على الخليفة بوقف المستغلات ببغداد والضياع الموروثة بالسواد ، وأنشأ لذلك ديوانا سماه ديوان البر(٣).

وعلى الرغم من كل ما أجراه علي بن عيسى من إصلاح فإنه لم يستمر في منصبه بسبب تدخل النساء فسقطت وزارته في يوم الاثنين ٨ ذي الحجة ٣٠٤هـ/يونيه ٩١٧م ، بعد أن استمرت ثلاث سنوات وعشرة أشهر

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج١٠ ، ص١٤٧ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٦-٢٧ ؛ غريب بن سعد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، منشور ضمن كتاب ذيول تاريخ الطبري ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف ، د.ت) ، ص٤٣ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٧-٢٨ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٧-٢٨ ؛ القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص٤٣ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٨٦ .

- Bowen, Harold, The Life and Time of Ali b. Isa, the good wazir. Cambridge 1928),P125

و ٢٨ يوماً . وفي نفس اليوم أطلق الوزير ابن الفرات من سجنه وأعيد إلى منصب الوزارة ، وذلك بإيعاز من والدة المقتدر التي تعهد لها الوزير بأن يحمل إليها في كل يوم مبلغ ٣٣٠ ديناراً وإلى ابني الخليفة ١٦٦ ديناراً(١). وحتى يوفي ابن الفرات بما تعهد به تساهل في أمر الرشوة ، وعدها أمراً عادياً ، لتفشيها في جميع أوساط الدوائر الحكومية ، وقرر أن يضع أصولاً لفرض الضريبـــة عليها ؛ لذلك أنشأ ديوان الرشوات . وأسرف في تبذير الأموال وزيادة الرواتب والمخصصات(٢) ، فأوجد بذلك أزمة مالية جديدة خاصة بعدما استنفذت ثورة ابن أبي الساج في أرمينيا وأذربيجان الكثير من الأموال . فعجز عن دفع مرتبات الجند فعملوا على إسقاط وزارته وعلى رأسهم مؤنس الخادم . وأبعد ابن الفرات عن الوزارة في ٢٧ جماد الأولى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م بعد أن مكث فيها سنة وخمسة أشهر و١٩ يوماً(٣).

أمر المقتدر بعد ذلك بإحضار حامد بن العباس الذي كان يشغل منصب ملتزم الضرائب لمنطقة واسط وضياعها وقلده الوزارة . إلا أن جهل حامد بن العباس بأمور الوزارة وعدم كفاءته استدعت إخراج علي بن عيسى بن الجراح من السجن والاستعانة به في تسيير دفة الحكم الذي ما لبث أن أصبح بعد وقت قصير هو المدبر الوحيد لشؤون الوزارة . ولما رأى حامد بن العباس أنه لا عمل له مع علي بن عيسى انفرد بأمور جباية الخراج والضياع الخاصة والعامة ، والمستحدثة، والعباسية ، والفراتية ، بالسواد والأهواز وأصبهان بمبلغ إجمالي قيمته ٥٤ مليون درهم رغم معارضة علي بن عيسى لما عرف عن حامد من جشع واستغلال(٤).

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٤١ ، ٤٢ ؛ الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص٢٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٥٤ .

Bowen, The Lif and Time of Ali b. Isa, P. 116-124, 125-135.

٢) الصابي ، تاريخ الوزراء ، ص٢٨-٢٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٥٤ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٥٦ .

٤) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٥٩-٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ .

وحتى يفي حامد بمبلغ الضمان الذي التزم به رفع أسعار الحبوب في بغداد بأن منع استيرادها من المقاطعات . وقد أدى ذلك إلى أزمة اقتصادية حقيقية تفجرت على إثرها انتفاضات في بغداد ليس بين السكان المدنيين فحسب بل في صفوف الجيش أيضا . ومع أنه تم احتواء هذه الانتفاضة أمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد ، كما أمر بأن يمنع عقد الضمان بعد ذلك عن رجال الجيش والسياسة[١].

بعد ذلك أسقطت وزارة حامد بن العباس وجهازه الوزاري بما فيه علي بن عيسى سنة ٣١١هـ/٩٢٣م ، وأطلق ابن الفرات من سجنه وعهدت إليه وزارته الثالثة . اتبع ابن الفرات في وزارته هذه سياسة القمع والشدة خاصة مع من كان مسؤولا عن إقصائه ومصادرته وإهانته في وزارته الثانية[٢]. واستخدم ابنه المحسن أسلوب القسوة والشدة مع خصومه ، فكثر لذلك أعداؤه والحاقدون عليه فارتجف لذلك العامة والجند خاصة بعد أن هاجم قرامطة البحرين الحجاج ونكلوا بهم. فتحرك مؤنس الخادم ومعه الجيش لإسقاط وزارة ابن الفرات وطالبوا بإعدامه ، فتم القبض عليه وقتل هو وابنه المحسن شر قتلة وانتهت بذلك وزارته الأخيرة بعد أن استمر فيها عشرة أشهر و١٨ يوماً[٣].

واحتل منصب الوزارة بعد ذلك عدد من الوزراء وهم:

١) عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحي بن خاقان .
٢) أبو العباس الخصيبي .
٣) أبو علي بن مقلة .
٤) سليمان بن الحسن .

---

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٧٢-٧٥ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٨٥ ، ٩١ ، ٩٣-٩٥ ، ١٠٢-١٠٤ ؛ القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص٩٧ ، ٩٩ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص١٢٦-١٢٧ ، ١٣٧-١٣٩ ؛ القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص١٠٤-١٠٥ .

٥) أبو القاسم الكلوذاني .
٦) الحسن بن القاسم .
٧) أبو الفتح الفضل بن جعفر[١] .

ولما لم يكن لهم نفس القدرة والكفاية التي تمتع بها أبناء الأسرتين آل الفرات وآل الجراح تدخل الجيش في أمور الدولة المدنية ، وأصبح مؤنس الخادم هو الرجل القوي النافذ السلطة في الدولة حتى أنه تمكن من عزل المقتدر ، وتولية أخيه القاهر . إلا أنه لم يمض على حكمه أيام حتى أعيد المقتدر مرة أخرى ، فتجددت له البيعة ثانية وعفا عن أخيه القاهر وذلك سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[٢].

عودة المقتدر إلى الخلافة ومقتله:

لم يمض وقت طويل على إعادة المقتدر إلى سدة الحكم حتى عاد النفور مرة أخرى بينه وبين مؤنس الخادم واستفحل الأمر بينهما إلى خروج مؤنس بجيشه إلى الموصل لاجئاً إلى الحمدانيين . ولكن عندما لم يقدم له الحمدانيون يد العون والمساعدة حاربهم وتغلب عليهم ، وعاد إلى بغداد لمحاربة الخليفة ، الذي وجد نفسه مضطرا إلى النزول إلى ميدان المعركة لقتاله . وأسفر القتال عن قتل المقتدر وقطع رأسه وترك جثته على قارعة الطريق . ودخل مؤنس إلى بغداد مظفراً وتمت مبايعة القاهر للمرة الثانية ، وذلك في شوال سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م[٣].

---

١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٣٠٤-٣٠٥ .
٢) القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص١٢١-١٢٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٠٠-٢٠٣ .
٣) القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص١٤٢-١٤٦ ، ١٤٨-١٥٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢١٦ ، ٢٢٠-٢٢٢ .

أهم الأحداث في عهد المقتدر:

ازدياد خطر قرامطة البحرين:

ازداد خطر قرامطة البحرين على الدولة العباسية في عهد المقتدر فعاثوا فسادا وتخريبا . فعندما تولى سليمان بن الحسن الجنابي المكنى بأبي طاهر مقاليد الحكم في البحرين أخذ في السعي نحو توسيع دائرة نفوذه . فكانت أول خطوة عملية قام بها هي مهاجمته لمدينة البصرة في سنة ٣١١هـ/٩٢٣م حيث وصلها ليلا في ألف وسبعمائة رجل . ولم يدرك والي البصرة في بداية الأمر أن القادمين هم قرامطة البحرين ، بل ظنهم مجرد أعراب قد تجمعوا للهجوم على المدينة بقصد السلب والنهب .

وعندما تمكن أبو طاهر من دخول المدينة قتل كثيرا من أهلها وصادر أمولها وسبى نساءها وأخذ ما يمكن أخذه من مال ومتاع ونساء وأطفال وعاد إلى هجر عاصمته[١]. وفي العام التالي عزم أبو طاهر على تعقب قوافل الحجاج فأوقع بقافلة منهم كان على رياستها أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان . فأعمل القرامطة سيوفهم في أفراد القافلة ، وتركوا الباقين ليموتوا جوعا وعطشا بعد أن أخذوا الجمال والأموال[٢].

استمر أبو طاهر حتى سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م بتعقب قوافل الحجيج والتجارة، وبسلب أموالها وقتل أفرادها في وحشية فظة . ثم قرر في نفس العام مهاجمة الكوفة فسار إليها على رأس جماعة من أصحابه فدخلوها ، وأنزلوا الهزيمة بقوات الخليفة وعلى رأسها يوسف ابن أبي الساج أعظم قواد الخلافة ، ثم اتجهوا إلى الأنبار ، ومنها إلى أرض الجزيرة وهم ينشرون القتل والخراب في كل مكان تصل إليه أقدامهم[٣].

---

١) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٧٥ .

٢) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٧٧ .

٣) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٤٥-٤٨ .

أما أبشع الأعمال التي ارتكبها في حق الإسلام والمسلمين التي هي بمثابة استهزاء واضح وتعد سافر فكانت على أشرف الأماكن المقدسة إذ غزا بجنده مكة المكرمة في سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م واستباح الحرم وقتل الحجاج في المسجد الحرام يوم التروية ، وقتل جماعة من أشراف أهلها ، وألقى بجثثهم في بئر زمزم . وخلع كسوة الكعبة ، وخلع الحجر السود من مكانه وأخذه معه إلى هجر[١].

ولم تفد كل المناوشات والتوسلات لاسترداد الحجر الأسود من أبي طاهر ، وظل قرابة اثنين وعشرين عاما لديهم قبل أن يعيدوه إلى مكانه في عام ٣٣٩هـ/٩٥٠م – أي بعد وفاة أبي طاهر بسبعة أعوام – وذلك تلبية لرغبة الخليفة الفاطمي وكسبا لوده ، ووضع مكانه في يوم النحر[٢].

العلاقة مع البيزنطيين:

استغل البيزنطيون حالة التوتر والفوضى خلال عهد المقتدر فشنوا حملة من الغارات على الثغور الإسلامية . ففي سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م أغاروا على الثغور الجزرية ، واقتحموا حصن منصور ، وسبوا من فيه دون أن يجدوا من يصدهم[٣].

وفي سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م وصل رسولان من قبل الإمبراطور البيزنطي إلى بلاط المقتدر يطلبان عقد الهدنة وفداء الأسرى فأجابهم المقتدر إلى طلبهم. وأرسل مؤنس الخادم ليحضر الفداء ، بعد أن زوده بمبلغ من المال قدر بنحو

---

١) المسعودي ، التنبيه ، ص٣٥٠-٣٥١ ؛ ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٢٥-٣٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

٢) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص٥٣-٥٤ ، ٥٦ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص ١٢٦-١٢٧ ، ٢٠١ .

٣) القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص٥٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٥٢ .

مائة وعشرين ألف دينار لفداء الأسرى[1].

وفي سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م أرسل الإمبراطور قسطنطين السابع كتاباً إلى أهل الثغور يطالبهم فيه بحمل الخراج إليه وإلا تعرضوا لهجوم لا قبل لهم به . فلما أبوا إجابة طلبه أرسل إليهم الحملات العسكرية التي عملت على تخريب كل ما مرت به ودخلوا ملطية سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م ، ودمروا ما بها من قلاع ونهبوها ، وسبوا كثيرا من أهلها دون أن يلقى أهلها أي مساعدة من بغداد[2].

وفي سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م قام الروم بمحاصرة مدينة (دبيل) في أرمينيا بالدبابات والمنجنيق ، فصمد أهلها حتى استدرجوا الروم إلى داخل المدينة فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وأخرجوهم من مدينتهم[3].

وفي سنة ٣١٩هـ/٩٣١م استرد المسلمون هيبتهم ، وذلك بالتوغل داخل الأراضي البيزنطية تحت زعامة والي الثغور ويدعى (ثمل) فوصلوا إلى عمورية ، وأنقرة واستطاع بذلك أن يعيد هيبة الدولة الإسلامية في قلوب البيزنطيين[4].

خلافة القاهر بالله (أبي منصور محمد بن المعتضد)
٣٢٠- ٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٤م:

بويع القاهر للمرة الثانية في اليوم الذي قتل فيه المقتدر في ٢٨ شوال ٣٢٠هـ/١ نوفمبر ٩٣٢م ولقب (بالقاهر بالله) . وقد وصفه المؤرخون بأنه شرير أهوج محبٌ لسفك الدماء ؛ لأنه عندما تسلم السلطة انغمس بمؤامرات

---

١) القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص٦٢ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٥٣-٥٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٥٩ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص١٤٦-١٤٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٨٢ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٨٩ .

٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢١٦-٢١٧ .

للفتك بخصومه . وبعد أقل من عام واحد على حكمه تمكن من القبض على قائده مؤنس الخادم ، وقتله قتلة مهينة[١].

وبدأ بمصادرة أمهات أولاد المقتدر وأبنائه وشغل نفسه بمصادرة أم المقتدر، وعذبها بمختلف أنواع العذاب ، وعلقها برجل واحدة منكسة الرأس حتى ماتت[٢]. وقد أثارت أفعال القاهر شغب الجند فتآمرت عليه جماعة الساجية والحجرية وعملوا على خلعه وهجموا على داره وقبضوا عليـــه وخلعوه ، بعد أن سملوا عينيه ، ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء . وبذلك انتهت مدة خلافته التي لم تستمر أكثر من ١٨ شهراً سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م وظل في سجنه حتى مات في خلافة الطائع لله سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م[٣].

---

١) القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص١٥٤ ؛ محمد عبد الملك الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، منشور ضمن ذيول تاريخ الطبري ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف ، د.ن) ، ص٢٧٣-٢٧٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٢٢ ، ٢٢٩ .

٢) القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص١٥٥ ؛ الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ص٢٧٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٢٢ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٨٦-٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

الفصل العاشر

نظام إمرة الأمراء
٣٢٤-٣٣٤هـ/٩٣٦-٩٤٥م

١- خلافة الراضي بالله (أبي العباس أحمد بن المقتدر)
٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م.

٢- خلافة المتقي بالله (إبراهيم بن المعتضد)
٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠-٩٤٤م.

٣- خلافة المستكفي بالله (عبد الله بن المكتفي)
٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٤-٩٤٥م.

خلافة الراضي بالله ٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد بويع بالخلافة بعد خلع القاهر في ٥ جماد الأولى سنة ٣٢٢هـ/٢٣ أبريل ٩٣٤م. وقد كان الراضي قليل الخبرة، إلا أنه بذل محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة ، مما فيها من التردي والاضطراب بسبب ضعف الوزراء وعجز القادة العسكريين . فجئ إلى الوزارة بجهاز جديد وعين على رأسه الوزير ابن مقلة يعاونه حاجبه محمد بن ياقوت[١]. إلا أن ابن مقلة لم يفلح في سياسته المالية ، ولم يستطع أن يقدم للجيش ما يجب من عطاءات في حين بلغ النزاع أشده بين الوزير وحاجبه[٢].

وبعد عام واحد في السلطة استطاع ابن مقلة أن يتخلص من معاونه وحاجبه محمد بن ياقوت ، ثم عزل جميع المجموعة التي كانت معه واستبدلها بابنه بصفته وزيراً ثانياً[٣].

إلا أن هذا العمل لم يرق للعسكريين الذين رأوا في ابن مقلة وابنه استبدادا وتسلطا على جميع شؤون الدولة بما فيها الجيش ، وحملوه مسؤولية تردي الأوضاع ، وقلة الموارد وقبضوا عليه وأزاحوه من منصبه . واختاروا للوزارة علياً بن عيسى بن الجراح وعرضوها عليه فامتنع لكبر سنه ، وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن بن عيسى فاستوزره الراضي ، وسلم إليه ابن مقلة لمصادرة أمواله[٤].

لم يستطـــع عبـــد الرحمن بن عيسى تصريف الأمور كما يجب على الرغم من مساعدة أخيه علي له[٥] ، وذلك بسبب انقطاع الموارد ، وشغب الجنـــد ،

---

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٢٩٢-٢٩٣ ، ٣٠٧ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٢٨٤-٢٨٦ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٣٠٦-٣١٠ ، ٣١٨-٣٢٠ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٢٨٦-٢٨٨ ، ٢٩١ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٣٢١ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٢٩٤ .

٤) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٣٣٣-٣٣٧ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٢٩٨-٢٩٩ .

٥) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٣٣٧-٣٣٨ .

وانفصال أطراف الدولة عن مركز الخلافة . فقد برزت الدولة الحمدانية في شمال العراق ، وسيطر البويهيون على فارس ، وتمكن البريديون من السيطرة على خوزستان والاستقلال بها والقرامطة في البحرين واليمامة لا يزالون يهاجمون قوافل الحجيج . لذلك لم يكن يصل إلى خزينة الدولة المركزية في بغداد من واردات وضرائب ومؤن هذه الأقاليم إلا النزر اليسير الذي لا تستطيع به مواجهة متطلباتها والصرف على قواتها ، فمن أجل ذلك لم تكن مهمة المؤسسات المدنية وعلى رأسها الوزارة سهلة فأخذوا يظهرون عدم قدرتهم على تصريف الأمور . عندها لم يكن أمام الخليفة الراضي أي خيار سوى أن يستدعي أحد القادة العسكريين لتولي إدارة الشؤون المدنية والعسكرية معاً .

فاستدعى الخليفة الراضي من أجل ذلك محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وسلمه مقاليد الأمور كلها ولقبه أمير الأمراء ؛ أي أنه ((قلده الإمارة ورئاسة الجيش ، وتدبير أعمال الخراج والضياع في جميع النواحي ، وفوض إليه تدبير جميع شؤون الدولة وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك))[1].

نظام إمرة الأمراء :

لم يكن نظام إمرة الأمراء نظاماً جديداً بين مؤسسات الدولة العباسية ، بل هو من الناحية العملية يعدّ تطورا لبعض الحالات التي جمع فيها لبعض من الشخصيات السياسية بين الاختصاصات المدنية والعسكرية وأطلق عليهم اسم (أصحاب السيف والقلم) فرمز بالسيف للاختصاص الحربي ، وبالقلم للاختصاص المدني . وقد أطلق هذا اللقب على بعض وزراء العصر العباسي الأول ، مثل الفضل بن سهل الذي لقب بذي الرئاستين أو صاحب السيف

---

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٣٥١-٣٥٢ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٠٣-٣٠٤ .

والقلم . ولكن ذلك لم يكن نظاما مقررا بل كان استثناء عارضاً يلجأ إليه الخليفة مؤقتاً ، ثم يعود إلى النظام الطبيعي ، وهو نظام الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية(١).

إلا أن منصب إمرة الأمراء في عهد الراضي الذي أنشئ بالتحديد في عام ٣٢٤هـ/٩٣٩م أصبح نظاماً مقرراً قائما بذاته يعهد إلى القائم بأمره السلطة الكاملة على جميع القوات العسكرية ، وعلى جميع المصالح الحكومية من دواوين وغيره بالإضافة إلى أن يكون مسؤولاً عن الشئون الضرائبية في العاصمة والولايات . لهذا عدّت سلطته أعلى من سلطة الوزير ، بل إنه أبطلها حيث لم يعد هناك حاجة إلى وجودها . كما أنه تمتع باختصاصات إضافية لم يتمتع بها صاحب منصب رفيع من قبل ، منها: أنه كان يخطب له على المنابر إلى جانب الخليفة ، كما كان ينقش اسمه على السكة إلى جانب تمتعه بكثير من مظاهر الحفاوة والتكريم . وبمعنى آخر نستطيع أن نقول إنه نقل سلطات الخليفة إلى قائد تتوفر فيه صفات الرياسة العسكرية(٢).

التنافس على منصب إمرة الأمراء:

وهكذا دخلت الدولة العباسية في عهد الخليفة الراضي مرحلة جديدة أطلق عليها عصر إمرة الأمراء ، وبما أن أمير الأمراء ابن رائق أصبح في هذه الفترة هو المتصرف في أمور الدولة وواراداتها وشؤونها الإدارية والعسكرية ، وكان طبيعياً أن يظهر له منافسون آخرون من الأمراء العسكريين .

كان ابن رائق زعيم كتلة الأتراك يعاونه في ذلك قائده ومساعده الأيمن بجكم التركي . بينما ظهر كورتكين الديلمي زعيم كتلة الديالمة – الذين أصبحوا يكونون قسما كبيرا من جيش الخلافة – منافسا لابن رائق وجماعته.

١) حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامي ، في العصر العباسي ، ص٣٦٨ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ص٣٥١ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٠٤ .

إلا أن أكبر منافس لابن رائق كان صاحب الأهواز أبا عبد الله البريدي الذي أصبح قوة نافذة في جنوب شرق العراق بعد أن تعاون مع البويهيين الذين وصلوا في هجرتهم من بلاد الديلم إلى منطقة فارس(١). وقد أرادوا من تعاونهم مع البريدي أن يثبتوا سيطرتهم على الأهواز أولا قبل دخولهم إلى بغداد وبسط سيطرتهم عليها . وعندما بسط البويهيون سيطرتهم على الأهواز طردوا منها البريدي الذي فر إلى البصرة واستولى عليها .

لم يتحرك ابن رائق أمام استيلاء البريدي على البصرة لاتساع شقة الخلاف بينه وبين قائده وساعده الأيمن بجكم وفقد كل منهما ثقته بالآخر . فتظاهر بجكم بالخروج من بغداد لمحاربة البريدي ، وعندما علم البريدي بذلك أظهر له المودة وتحالف معه ، واتفق الاثنان على محاربة ابن رائق(٢). فلم يلبث أن دخل بجكم بغداد وطرد منها سيده وآلت إليه إمرة الأمراء سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م ، وعين البريدي وزيرا له ثم تصاهرا بعد ذلك . واستمر بجكم في منصبه حتى عام ٣٢٩هـ/٩٤٠م وهو أمن من غدر وزيره البريدي الذي لم ينتقل إلى بغداد لتولي منصب الوزارة بل عين نائباً عنه(٣).

استمر الاستقرار في العراق في الفترة التي تولى فيها بجكم منصب إمرة الأمراء ، إلا أن نشب الخلاف بينه وبين البريدي . فخرج بجكم من بغداد لمحاربة البريدي ، ولكن ما لبث أن قتل وهو في طريقه إلى البصرة عندما كان يتصيد(٤).

انقسم جيش بجكم بعد مقتله إلى قسمين قسم التحق بالبريدي ، والقسم الآخر التحق بالحمدانيين بالموصل . فانتهز البريدي ذلك وتحرك مسرعا إلى بغداد واستولى على منصب إمرة الأمراء . في هذه الأثناء مات الخليفة

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢٥٦ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢٦٤-٢٦٥ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٦٦ ، ٢٧٠ .

٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٧٩ .

الراضي ، وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره بعد أن حكم مدة سبع سنوات تقريباً ، وذلك في شهر ربيع الأول عام ٣٢٩هـ/٩٤٠م(١).

خلافة المتقي بالله (إبراهيم بن المعتضد) ٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠-٩٤٤م:

بويع إبراهيم بن المعتضد بالخلافة بعد وفاة الراضي ولقب بالمتقي بالله. وكانت صلاحيات منصب إمرة الأمراء في يد البريدي ، إلا أن المتقي لم يقلده هذا المنصب رسمياً ، لأنه لم يكن الشخص المناسب لهذا المنصب في نظره ، بل اكتفي بتعيينه وزيراً فقط . ولكن في حقيقة الأمر أن البريدي كان في حكم أمير الأمراء ، لأنه جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش .

اضطر البريدي وجنده المكون في غالبيته من الأتراك إلى الانسحاب إلى البصرة لعدم ترحيب الخليفة به أولاً ، ولوقوف الجند الديالمة بزعامة كورتكين ضده في العاصمة ثانياً(٢). إلا أن كورتكين لم يكن بالزعيم القوي الذي ينقذ الخلافة من التردي الذي هوت فيه ، فأفسح ذلك المجال للجند الأتراك لاستدعاء زعيمهم ابن رائق ، الذي فر إلى بلاد الشام للعودة إلى بغداد، والاستيلاء على منصب إمرة الأمراء مرة أخرى ، ومن ثم عرض الصلح على البريدي وعينه وزيرا له . واتبع الزعيمان سياسة الاضطهاد ضد الجند الديلمي . وأصبح البريدي مشاركا في السلطان مع ابن رائق(٣).

إلا أن سياسة الوفاق هذه لم تستمر طويلاً ، إذ نشب الخلاف بين ابن رائق والبريدي فعزل ابن رائق البريدي عن الوزارة . فزحف البريدي إزاء هذا التصرف بجيشه من البصرة إلى بغداد ، ودخلها عنوة واستولى على منصب إمرة الأمراء بعد أن هرب ابن رائق ومعه الخليفة المتقي إلى الموصل

---

١) الهمذاني ، التكملة ، ص٣٢٣ ، ٣٢٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٧٦ ، ٢٧٩ .

٢) الهمذاني ، التكملة ، ص٣٢٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٨٠ .

٣) الهمذاني ، التكملة ، ص٣٢٩ ، ٣٣٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٨٠-٢٨١ ، ٢٨٣ .

والتجأ إلى الحمدانيين[١].

قدم الحمدانيون الدعم إلى الخليفة وذلك بإعادته إلى بغداد بعد أن مكث لديهم ثلاثة أشهر وعشرين يوما . وفي طريق عودتهم قتلوا ابن رائق أمير الأمراء حتى يخلوا لهم المنصب ، كما هرب البريدي من بغداد عندما علم بقدوم الحمدانيين .

كافأ المتقي الحسن بن عبد الله الحمداني بأن عينه أميرا للأمراء ، ولقبه (ناصر الدولة) ولقب أخاه علياً (سيف الدولة) . كما استوزر المتقي وزيراً جديداً ، هو أبو إسحاق القراريطي ، وعين توزون الديلمي صاحباً للشرطة[٢]. ومع ذلك لم يكن للوزير أمر مع ناصر الدولة الذي انفرد بتعيين العمال وضيق على الخليفة ، وانتزع ضياعه وضياع والدته ، وفرض على الناس التقشف . وذلك ضمن سلسلة الإجراءات التي اتبعها الحمدانيون بهدف الإصلاح . فكان من إصلاحاتهم الإيقاع باللصوص وقطاع الطرق ومنع الصيارفة من الربا وتهديدهم بإنزال العقاب إن لم يقلعوا عن فعل ذلك . كما أمر بضرب دنانير جديدة بعيار مناسب وبإسقاط أرزاق المولدين من المرتزقة حتى يؤمن الأموال للجند والمحاربين . وبذلك سيطر الحمدانيون على مقدرات الأمور في بغداد ، إلا أن الأحوال العامة لم تتحسن في بغداد بفعل استمرار النزاعات الداخلية[٣].

تأزمت علاقة الخليفة المتقي بناصر الدولة بعد أن قبض الأخير على الوزير القراريطي وكاتبه ، وصادر أموالهما دون موافقة الخليفة . كما أن انتزاع ناصر الدولة ضياع الخليفة وضياع والدته والتضييق عليه في النفقات زاد من الوحشة والنفور بينهما . فاضطر ناصر الدولة إلى ترك بغداد ، خاصة بعدما خسر أخوه سيف الدولة المعركة التي نشبت بينهم وبين توزون

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٢٥-٢٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٨٣-٢٨٤ .
٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٢٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٨٥ .
٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٣١ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٣٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٨٥ .

صاحب الشرطة ، فقرروا الرحيل إلى الموصل ليتفرغوا لواجبهم الثغري . عند ذلك عين المتقي توزون الديلمي أميرا للأمراء سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م(١).

أثبت توزون أنه رجل قوي فقد استطاع أن ينتزع المنصب من الحمدانيين في الشمال ، كما أنه استطاع أن يقف في وجه البريديين في الجنوب . كما وجد الجند الديالمة ضالتهم عنده فالتفوا حوله وناصروه ، إلا أنه ضيق على الخليفة المتقي ، ولم يدع له حرمة . فلجأ الخليفة إلى الحمدانيين مرة أخرى طالباً مساعدتهم ، ولكنهم لم يساعدوه هذه المرة فاستنجد بالإخشيد صاحب مصر ، والتقى به في الرقة ودعاه إلى مصر . خشي توزون من تقربه من الإخشيديين فتحايل عليه وأظهر له الطاعة حتى يعود إلى بغداد وعقد صلحا معه . ولكن ما لبث أن عاد المتقي إلى بغداد حتى أوعز توزون إلى جنده الديالمة بالقبض على الخليفة وسمل عينيه وحبسه وبقي في سجنه مدة خمسة وعشريين عاما حتى مات في عام ٣٥٧هـ/٩٦٨م . ويقال إن السبب في قبض توزون على الخليفة هو أنه علم أن المتقي أتصل سرا بالبويهيين الذين كانوا قد وصلوا إلى واسط ودعاهم إلى القدوم إلى بغداد ، فاغضب ذلك العمل توزون وأمر بخلعه وسمل عينيه(٢).

بايع توزون بعد ذلك عبد الله بن المكتفي ، ولقبه (المستكفي بالله) في صفر سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م . ووقع الخليفة تحت سيطرته ، وأصبح توزون هو صاحب الأمر والمدبر له إلا أنه لم ينعم بهذا المنصب طويلاً ، إذ لم يلبث أن توفي في محرم سنة ٣٣٤هـ/إبريل ٩٤٥م في داره ببغداد . فكانت مدة إمارته سنتين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً ، فخلفه كاتبه ابن شيرزاد(٣).

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٩٠-٢٩١ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٤٩ ، ٦٧-٧٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٠١ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٨١-٨٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٠١ ، ٣١٣-٣١٤ .

وفي عهد ابن شيرذاد كانت قوات البويهيين تتوغل داخل العراق بهدف الاستيلاء على بغداد . وبعد وقت قصير تمكن أحمد بن بويه من دخول بغداد والاستيلاء على مقاليد الأمور ، وألغى منصب إمرة الأمراء . وبدخول البويهيين غلى بغداد يبدأ عصر جديد هو العصـــر البويهي الذي استمر من ٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م أي أكثر من مائة وثلاثة عشر عاماً خضعت الدولة العباسية خلالها للبويهيين الديالمة خضوعاً تاماً[١].

وهكذا أثبت نظام إمرة الأمراء الذي استمر لمدة عشر سنوات عدم جدواه ، وعدم كفاءته ، وأن التدابير البائسة التي أدخلها الراضي لم تنقذ الخلافة من أزمتها، بل زادتها تعقيداً وغموضاً .

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣١٤ .

الفصل الحادي عشر

العصر البويهي

٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م

١- خلافة المطيع لله (الفضل بن المقتدر)

٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٥-٩٧٤م

٢- خلافة الطائع لله (عبد الكريم بن المطيع)

٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٤-٩٩١م

٣- خلافة القادر بالله (أحمد بن إسحاق بن المقتدر)

٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣١م

٤- خلافة القائم بأمر الله (عبد الله بن القادر)

٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م

الوضع السياسي في المشرق الإسلامي قبل ظهور البويهيين:

حين سقطت الدولة الطاهرية في خراسان سنة ٢٥٩هـ ـ٨٧٢م آل أمر المشرق إلى الدولة السامانية ، التي جاءت في أعقاب الدولة الصفارية وقضت عليها.

وقامت الدولة السامانية في المنطقة التي تسمى (بلاد ما وراء النهر) ، وكانت مهمتها في بداية الأمر ثغرية ، تحمي هذا الإقليم المهم من ناحية الشرق ، ولكنها ما لبثت أن مدت نفوذها إلى المنطقة الفارسية ، واصطدمت بالدولة الصفارية وقضت عليها . فبسط السامانيون بذلك سلطانهم على خراسان ، كما ضموا إلى ممتلكاتهم طبرستان ، والري ، والجبل ، وبلاد سجستان . فوقع على عاتقهم بحكم موقعهم مسؤولية الحفاظ على ممتلكات المسلمين من ناحية الشرق .

وكان الحد الفاصل بين الإقليم الذي تديره الخلافة العباسية مباشرة وبين الإقليم الذي يديره آل سامان مباشرة هو الإقليم الذي يمر عبر المنحدرات الغربية لجبال زغروس باتجاه الساحل الشرقي للخليج العربي .

ولم يكن هناك تمثيل عسكري قوي للطرفين في هذا الفاصل ؛ ممّا أتاح للديالمة الظهور على هيئة إمارات محلية . وقد انتشر الدين الإسلامي بينهم على المذهب الشيعي الزيدي على يد أحد أئمة الشيعة الحسن بن زيد حينما سيطر على السلطة في طبرستان، والري، وجرجان، في عهد الخليفة المستعين. ولم يزل الحسن مدبراً أمرهم حتى مات سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م ، ثم تولى أخوه محمد بن زيد، وكانت مدة حكمه مضطربة حتى تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من فتح بلاد طبرستان ، وانتزاعها من يد محمد بن زيد وقتله سنة٢٨٧هـ/٩٠٠م ولم يكتف إسماعيل بن أحمد بطرد العلويين من طبرستان ، وإنما ضم المنطقة إلى سلطته المباشرة مع الاحتفاظ بسلطة الخليفة الشرعية

بذكر اسمه في الخطبة(١).

وبعد وفاة إسماعيل بن أحمد تولى مقاليد الأمور في الدولة السامانية المترامية الأطراف ابنه أحمد سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م . وفي عهده تعرضت الدولة إلى مخاطر جسيمة من الداخل والخارج(٢). وفي سنة ٣٠١هـ/٩١٣م استطاع إمام أخر من أئمة الشيعة هو الحسن بن علي الملقب (بالأطروش) من الدخول إلى بلاد الديلم ، ودعا أهلها إلى الإسلام فأسلم عدد كبيرٌ منهم والتفوا حوله ، واستولوا على طبرستان بعد أن طردوا والي السامانيين منها(٣). وكان من أعظم قواده (ليلى بن النعمان) ، و(ماكان بن كالي) وهما اللذان عاوناه على الاستيلاء على طبرستان .

قتل الأطروش عند دخوله آمل على يد السامانيين سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٦م بعد أن قسم البلاد بين ولديه ، وجعل الحسن بن القاسم وهو المعروف (بالداعي الصغير معاوناً ومساعداً لهما(٤). وكان ضمن من دخل في خدمة الحسن بن القاسم أبناء أبي شجاع بويه بن فناخسرو.

تمكن الحسن بن القاسم بمساعدة القائدين الديلميين ، ليلى بن النعمان وماكان بن كالي من انتزاع نيسابور ، والري ، وزنجان ، وأبهر ، وقم من يد السامانيين وعمل على استتباب الأمن بها . وفي أثناء المعارك قتل ليلى بن النعمان وبقى ماكان بن كالي الذي استطاع بمساعدة أبناء بويه استرداد جرجان من السامانيين، وأقام بها ليحكمها بعد أن التف حوله كثير من الديالمة . كان لماكان بن كالي صديق من قادة الديالمة يدعى أسفار بن شيرويه ، عرف بسوء الخلق وشدة الطموح ففصله ماكان عن جيشه . فاستطاع (أسفار بن شيرويه)

---

١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج٩ ، ص٦٦٦ ، ج١٠ ، ص٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٥٥ ، ص٩٦-٩٧ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١١٧-١١٨ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٤٦ .

٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٥٧ .

بمساعدة قائد ديلمي آخر يدعى (مرداويج بن زيار) من الاستيلاء على طبرستان ، ومحاربة الحسن بن القاسم العلوي بالقرب من مدينة سارية فقتل الحسن سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م ، وضعف كذلك أمر قائده ماكان بن كالي بانضمام كثير من جنده الديالمة إلى أسفار[١].

بعد أن بلغ أسفار هذه المكانة بين الديالمة رغب في اتخاذ لقب السلطان وأن يضع التاج على رأسه ، إلا أنه قتل في العام نفسه ٣١٦هـ/ ٩٢٨م على يد أكبر قواده مرداويج بن زيار ، واستولى على جميع سلطاته بعد أن أخضع رؤساء الديلم له . تابع مرداويج بعد ذلك تقدمه حتى أصبهان وهمذان واستولى عليهما وأجبر الخليفة على الاعتراف بحكمه ، الذي امتد من غربي إيران حتى الأهواز ، مقابل ٢٠٠ ألف درهم يدفعها كل عام[٢].

ولما ضعف أمر ماكان بن كالي تفرق عنه كثير من جنده ، ومن بينهم أبناء بويه ولجأوا إلى مرداويج .

ظهور بني بويه وقيام دولتهم:

تنتسب هذه الأسرة إلى رجل فقير من عامة الناس من منطقة بلاد الديلم يدعى (أبو شجاع بويه بن فناخسرو) ، كان يعمل بصيد السمك ، ويتعيش منه في قرية كياكس بناحية بحر قزوين . ويرجع بعض المؤرخين نسبهم إلى آل ساسان ملوك الفرس القدماء ، ويبدو أن هذه النسبة الملكية افتعلت بعد سيطرتهم على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي ، وانتقال الملك إليهم لرفع مكانتهم[٣]. التحق أبناء بويه الثلاثة (علي ، والحسن ، وأحمد) بخدمة القائد ماكان بن كالي الديلمي، واشتركوا معه في فتح طبرستان سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٦٧ ، ١٩٥-١٩٧ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٤-٢١٥ .

٣) ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٧٧ ؛ الكروي ، البويهيون والخلافة العباسية ، ط٢ (الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٧م) ، ص٨٢ .

ولما ضعف أمر ماكان بن كالي على أثر هزيمته أمام مرداويج بن زيار وعجز عن ضمان أرزاق جنده تفرق كثير من أفراد جيشه ، ومن بينهم أنباء بويه الذين طلبوا منه السماح لهم بالانتقال إلى خدمة مرداويج ، وقالوا له: ((إن الأصلح لك مفارقتنا لتخف عنك مؤنتنا ، فإذا تمكنت عاودناك))(١).

رحب مرداويج ببني بويه ومنح الأخ الأكبر (عليّاً) حكم إقليم الكرج بين همذان وأصفهان سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م ، واستعان بالأخوين الآخرين في أعمال أخرى . وكان عليٌّ ذا طموح فلم يقتصر على هذه الولاية فمد سلطانه إلى أصفهان سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م .

أثار ذلك العمل مخاوف مرداويج ، وأنفذ إليه جيشاً بقيادة أخيه وشمكير للقضاء عليه . عندما علم عليّ بقدوم ذلك الجيش رحل من أصفهان بعد أن جبى خراجها شهرين ، حتى لا يصطدم بجيوش مرداويج ، وسار إلى أرجان واستولى عليها بدون قتال في ذي الحجة من العام نفسه .

بقي عليّ في أرجان لإراحة جنده ولجباية ضرائبها ، فاستخرج منها خراجاً بلغ نحو مليوني درهم ، ثم تركها بعد مدة خوفاً من اجتماع جيوش مرداويج وأخيه وشمكير على حربه ، واتجه إلى اصطخر واستولى عليها بعد أن هرب منها واليها . ومن هناك بدأ يستعد للزحف على شيراز هدفه الأخير ، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد معركة طاحنة انتصر فيها على جيوش الخلافة بقيادة واليها ابن ياقوت(٢).

استقر عليّ بن بويه في شيراز واتخذها قاعدة لحكمه وانصرف لتدعيم نفوذه وتنظيم أموره المالية بعد أن استولى على ذخائر ياقوت وابنه . ثم بدأ يتطلع إلى أن ينال من الخلافة اعترافا بشرعية حكمه ، فكتب إلى الخليفة الراضي ووزيره علي بن مقلة يلتمس التفويض بالحكم على جميع المناطق التي صارت بيده في بلاد فارس وبلاد الجبل ، وتعهد مقابل ذلك بدفع ثمانية

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٥ ، ص٢٧٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٣٠-٢٣١ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٥ ، ص٢٩٦-٢٩٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل، ج٦ ، ص٢٣٢-٢٣٣ ، ٢٣٤.

ملايين درهم سنوياً إلى دار الخلافة . وافق الخليفة على طلبه وأرسل إليه الخلعة والمنشور ، وأوصى الرسول بأن لا يسلمهما إلى ابن بويه إلا بعد أن يتسلم المبلغ المتفق عليه . غير أن عليّاً بن بويه ماطل في دفع الأموال بعد أن تسلم الخلعة والمنشور ، وأبقى الرسول لديه في شيراز حتى توفي . وبذلك لم يسلم عليّ ، شيئاً مما تعهد بدفعه واستبد بالأمر(١).

تطلع البويهيون بعد هذه الانتصارات التي حققوها إلى الاستيلاء على منطقة الأهواز لموقعها الاستراتيجي الذي يصل بلاد فارس بالعراق . إلا أن هذه الانتصارات أثارت مخاوف الزياريين فأسرع مرداويج بإرسال حملة إلى الأهواز تمكنت من الاستيلاء عليها قبل وصول البويهيين إليها .

لما علم علي بن بويه باستيلاء الزياريين علي الأهواز رأى أن من مصلحته استخدام أسلوب السياسة مع مرداويج ، وعدم التورط معه في حرب جديدة فعرض عليه الصلح . واتفقا على أن يدخل علي بن بويه في طاعته ، وأن يذكر اسم مرداويج في الخطبة وأرسل إليه أخاه حسن رهينة مصداقا لحسن نيته . غير أن هذا الاتفاق لم يدم طويلا لمقتل مرداويج على يد جنوده في شهر ربيع الأول ٣٢٣هـ/٩٣٤م في أصفهان(٢).

جاء مقتل مرداويج فرصة سانحة للبويهيين لتحقيق أهدافهم التوسعية خاصة أن كثيراً من جند مرداويج كانوا قد لجأوا بعد مقتله إلى عليّ بن بويه في شيراز . فدخل على إثر ذلك أحمد بن بويه إلى الأهواز واحتلها بعد مقاومة شديدة من أهلها سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م . وبذلك أصبح البويهيون على مقربة من العراق ويترقبون الفرصة المناسبة للدخول إليها(٣).

---

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٥ ، ص٢٩٩ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص٢٧٨ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٣٨-٢٣٩ ، ٢٤٤ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٦٣ .

مكن تنازع العسكريين على منصب إمرة الأمراء ، وعجزهم عن دفع أرزاق الجنود وإقرار الأمن في البلاد البويهيون من أن يكونوا سادة الموقف في جنوب العراق . إذ زحف أحمد بن بويه ، الذي كان مسؤولاً عن ولايتي كرمان ، والأهواز بجنوده نحو بغداد ، ودخلها في ١١ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م بعد وفاة توزون .

استقبل الخليفة المستكفي وأمير الأمراء ابن شيرذاد أحمد بن بويه استقبالا حافلاً ، وأعلماه سرورهما بقدومه . ثم تقدم أحمد بن بويه ووقف بين يدي الخليفة ، وأخذت عليه البيعة للمستكفي ، فخلع عليه الخليفة وقلده منصب إمرة الأمراء ومنحه لقب معز الدولة ، كما منح أخاه عليا لقب عماد الدولة، وأخاه الحسن لقب ركن الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم(١). إلا أنه سرعان ما استبد معز الدولة بالسلطة دون الخليفة وحجر على أملاكه وذخائره ، وخصص له راتباً شهريا يعيش منه . بعد ذلك قبض عليه واعتقله بعد اثني عشر يوماً فقط من دخوله بغداد ، وأمر بنهب داره حتى لم يبق فيها شيئاً . ثم أمره بخلع نفسه ، وأحضر ابن عمه أبا القاسم الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع لله . وظل المستكفي معتقلاً في دار السلطنة بعد أن سملت عيناه حتى وفاته في ربيع الأول سنة ٣٣٨هـ/سبتمبر ٩٤٩م ، وكانت مدة خلافته سنة وأربعة أشهر(٢).

خلافة المطيع (الفضل بن المقتدر) ٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٦-٩٧٤م:

لما ولي المطيع الخلافة استأثر معز الدولة البويهي بالسلطة دونه وتركزت دفة الأمور جميعها في يده .وبدأ يتدخل في خصوصيات الخليفة حتى

---

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص٨٤-٨٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣١٤ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص٨٦ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٥٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣١٥ .

أنه سلبه حق تعيين الوزراء والكتاب ، ولم يكتف بذلك بل منع الخليفة من تعيين وزير له واتخذ الوزراء لنفسه . ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه له الأمير البويهي ، وكان قد خصص له ألفي درهم كل يوم لنفقته[١].

كان بنو بويه يدينون بالمذهب الشيعي منذ فترة دخول الحسن الأطروش بلاد الديلم . والشيعة يؤمنون بأحقية آل البيت في تولي خلافة المسلمين ، فهم يرون أن العباسيين اغتصبوها منهم ، وعلى أنصار الإمام إعادتها لهم ؛ لذلك طمع معز الدولة أن يكون هو الذي يعيد الخلافة إلى الأئمة الشيعة ، وهداه تفكيره إلى محاولة نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي . وقد شجعه على ذلك وجود الخلافة الفاطمية العلوية في مصر في ذلك الوقت . إلا أنه عدل عن رغبته هذه بناء على تحذير مستشاريه وخواصه الذين حذروه من سخط جمهور العامة من أهل السنة وعلمائها ، الذين دانوا بالطاعة للدولة العباسية[٢].

ولما كان وجود منصب أمير المؤمنين العباسي لا يضر بأهداف البويهيين السياسية فإنهم سمحوا باستمرارية هذا المنصب بعد أن سلبوا صاحبه جميع الصلاحيات الزمنية التي كان يتمتع بها . وأضفوا على أنفسهم بجانب لقب الملك ألقاباً أخرى لا نهاية لها من ألقاب الشرف .

وقد كانت لسياسة البويهيين الواقعية – التي لا تتعارض مع مبدأ التعايش السلمي مع المذاهب الأخرى ، وجعل إمرة الأمراء وراثية في الأسرة البويهية ؛ إذ لم تترك للقادة العسكريين فرصة مواتية للتنافس – أثرها الإيجابي في استقرار الخلافة العباسية ، وبقاء الخلفاء العباسيين في مناصبهم فترات طويلة دون عزل أو خلع ، وهذا ما لم تشهده الفترة التي سبقت عصرهم.

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص٨٧ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٥٥ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣١٥ .

أهم الأحداث السياسية في عهد المطيع لله:

التنافس بين الحمدانيين والبويهيين عل منصب إمرة الأمراء:

تعرض معز الدولة منذ السنة الأولى لتوليه مقاليد الأمور في بغداد لمنافسة الحمدانيين الذين أزعجتهم قوة البويهيين الديالمة في بغداد فعملوا على استرداد نفوذهم مرة أخرى على منصب إمرة الأمراء . وقد واتتهم الفرصة عندما التجأ إليهم الجند الأتراك ، الذين فروا من بغداد على إثر دخول معز الدولة وجنده الديالمة إليها ، وأخذوا يشعلون نار الفتنة للانتقام من البويهيين ، واسترداد حقهم المسلوب .

جهز ناصر الدولة جيشاً كبيراً لقتال معز الدولة وسار إلى بغداد ونزل في الجانب الشرقي منها فخرج إليه معز الدولة على رأس جيش كبير ، وأخذ معه الخليفة المطيع ونزل في الجانب الغربي من بغداد فنشبت بين الطرفين معارك طاحنة ، وانتهز ابن شيرزاد الذي كان قد انضم إلى جيش ناصر الدولة فرصة خلو بغداد من الجند فدخلها بفرقة من عساكره ، واستولى عليها باسم ناصر الدولة . ثم سار إليها ناصر الدولة ودخلها من الجانب الشرقي في العاشر من شهر رمضان . ولما علم معز الدولة بنبأ دخول ناصر الدولة إلى بغداد رحل إليها ومعه الخليفة ، ودارت بين الطرفين معركة كان النصر فيها للحمدانيين في الجولة الأولى لولا استخدام جند معز الدولة المكر والخديعة فتمكنوا من إنزال الهزيمة بجيش ناصر الدولة ، ونهبوا معسكره ونهبوا بغداد وما قدروا عليه من أموال التجار ، وقتلوا كل من اتهموه فاضطر ناصر الدولة إلى طلب الصلح على مال يؤديه عمّا تحت يده من البلاد ؛ من تكريت إلى الشمال منها بالإضافة إلى مصر والشام ، فقبل معز الدولة ذلك ورجع ناصر الدولة إلى الموصل في المحرم من سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م[١].

---

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص٨٩-٩٤ .

إلا أن الصلح لم يستمر طويلا بين الطرفين فسار معز الدولة بجيوشه سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م إلى الموصل للقضاء على قوة ناصر الدولة ، والاستيلاء على الموصل بحجة تأخير إرسال المال المقرر إلى بغداد . فرحل ناصر الدولة عن الموصل إلى نصيبين عندما سمع بقدوم معز الدولة إليها ، فدخلها معز الدولة واستعمل أسلوب الشدة والقسوة مع أهلها وأخذ أموالهم . وكان في نية معز الدولة الاستيلاء على جميع المناطق التابعة لناصر الدولة ، والقضاء على سلطة الحمدانيين في شمال العراق نهائيا . غير أنه وهو في أوج انتصاراته وصلته أنباء هجوم الجيوش السامانية على ممتلكات أخيه ركن الدولة ، فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة حتى يتفرغ لمساعدة أخيه في رد هجمات السامانين عن مملكته . انتهز ناصر الدولة فرصة انشغال البويهيين بمحاربة السامانيين فأرسل ابنه على رأس جيش للاستيلاء على بغداد ولكنه مني بالفشل(١).

استاء معز الدولة من تصرفات ناصر الدولة وعدم وفائه بالعهود فصمم على إعطائه درسا بطرده من شمال العراق . فسار على رأس جيش كبير سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م إلى الموصل ، فكاد أن يصل إلى مبتغاه لولا تدخل أخيه سيف الدولة صاحب حلب الذي ضمن ممتلكات أخيه ناصر الدولة بمبلغ مليوني وتسعمائة ألف درهم فقبله معز الدولة(٢).

سقوط إمارة البريديين في جنوب العراق :

أراد معز الدولة أثناء حروبه مع ناصر الدولة في شمال العراق ، أن يأمن جانب البريديين في الجنوب فعقد في سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م صلحاً مع أبي القاسم البريدي ، الذي خلف أباه في زعامة البريديين في البصرة والأهواز . فضمن أبو القاسم بناء عليه مدينة واسط وأعمالها منه على مبلغ مليون

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص١١٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٢٢٩ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٥٣-٣٥٤ .

وستمائة ألف درهم[1]. إلا أن هذا الصلح لم يستمر ، ففي السنة نفسها انتفض أبو القاسم البريدي بالبصرة على البويهيين فأرسل إليه معز الدولة عدة حملات كانت أخرها سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م عندما خرج بنفسه على رأس الجيش مصطحبا معه الخليفة المطيع لله . فلما وصل بالقرب من البصرة لجأ إليه جيش البريدي بأسره طالباً منه الأمان . فاضطر أبو القاسم إلى الهرب إلى (هجر) عاصمة القرامطة ودخل معز الدولة ومن معه البصرة وقبض على جميع قواد البريدي فيها ، واستخرج أمواله وودائعه ، وقبض على خزائنه ، وبذلك أسقط معز الدولة إمارة البريديين إلى الأبد[2].

ظهور إمارة عمران بن شاهين في البطائح:

بعد سقوط إمارة البريديين في جنوب العراق ، ظهر على مسرح الأحداث رجل مغامر يدعى (عمران بن شاهين) في منطقة البطائح . والبطائح هي المنطقة الواقعة جنوبي العراق حيث الأهوار والمستنقعات التي تغذيها مياه نهري دجلة والفرات وتوابعهما . وتقع تقريباً بين واسط شمالا والبصرة جنوباً، ولذلك تسمى أحيانا ببطائح البصرة أو بطائح واسط ، نسبة إلى هاتين المدينتين المتجاورتين[3].

استطاع عمران بن شاهين بما يمتلكه من شخصية قوية ومواهب قيادية أن يجمع حوله الأنصار من سكان البطائح من صيادي السمك وقطاع الطرق، وجماعات من القبائل العربية المستقرة هناك ، مشكـلا بهـم قوة مسلحـة أطلـق

---

١) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص٨٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٢١ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص١١٢ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٦٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٢٥ .

٣) سهراب ، كتاب عجائب الأقاليم السبعة (فينا: مطبعة أدولف هولز هوزن ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م) ، ص١٣٥ .

على أفرادها اسم عياريين ،وشطار ،وعصابات ،وقطاع طرق ، ولصوص ، وانضم إليهم كل من له مصلحة في دعمهم ، وعندما قوي أمرهم أخذوا يقطعون الطريق على من يسلك البطائح . وكان ذلك قبيل دخول البويهيين إلى المسرح السياسي مباشرة وتوليهم مقاليد الأمور في بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م.

لم تورد المصادر التاريخية التي بين أيدينا معلومات عن الصدر الأول من حياة عمران بن شاهين أو عن أسرته ، أي قبل أن يقف على رأس أهل البطائح ويصبح زعيمهم . وكل ما ذكر عنه أنه عربي من قبيلة سليم ، نشأ في سواد العراق ، وبالتحديد في مدينة الجامدة التي تقع على الطريق بين البصرة وواسط . وكان جابياً فجمع أموال الخراج وهرب إلى البطائح فأقام بين أهلها بين القصب والأجام متحصناً بها ، واقتصر طعامه على ما يتصيده من السمك وطيور الماء وكذلك الأرز . وهناك حاول أن يستميل إليه أهل البطائح فالتفت حوله جماعة من اللصوص ، ونفر من صيادي السمك[١].

عندما اشتهر أمر عمران بن شاهين وأتباعه بما كانوا يقومون به من أعمال التلصص وقطع طريق عابري السبيل والتجار ممن كانوا يجتازون طرق البطائح ، عزمت الحكومة المركزية في بغداد على القبض على عمران بن شاهين والقضاء على حركته في مهدها . وعندما توجس عمران بن شاهين خيفة من القبض عليه ، لجأ إلى أبي القاسم البريدي الذي عينه مسؤولا عن الجامدة والأهوار (وهي من نواحي منطقة البطائح) . وقد استطاع من خلال تقلده أمور هذه المنطقة أن ينظم أتباعه في قوة عسكرية ، تمكن بها من فرض سيطرته فيما بعد على المنطقة كلها[٢].

---

١) مجهول ، العيون والحدائق ، تحقيق: عمر السعيدي ج٤ ، القسم الثاني ، ص٤٦١ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص١١٩ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٣٦٩.

٢) مجهول ، العيون والحدائق ، ص٤٦١ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص١١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٣١ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٥٢٥ .

بعد سقوط إمارة البريديين عمل عمران بن شاهين على تحصين منطقته فاتخذ المعاقل على التلال في البطائح تحسبا لأي عدوان خارجي من قبل البويهيين . واستمر في قطع طريق عابري السبيل والتجار ممن كانوا يجتازون طرق البطائح . فأصبح بذلك خطراً يهدد أمن وسلامة طرق المواصلات النهرية والبرية في جنوبي العراق .

لم يقف معز الدولة مكتوف الأيدي أمام هذا التحدي فأرسل عدة حملات عسكرية لمحاربة عمران بن شاهين سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م ، وسنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م ، ولم تفت هذه الحملات في عضد عمران بن شاهين ، بل زادته منعة وقوة خاصة بعد الهزيمة الفادحة التي مني بها وزير معز الدولة – محمد المهلبي – من العام نفسه[١].

أدرك معز الدولة بعد هزيمة جيش المهلبي أنه أمام خصم عنيد فعقد مع عمران بن شاهين صلحاً سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م وافق فيها على جميع شروطه والاعتراف به أميراً على منطقة البطائح[٢].

توفي معز الدولة سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م بعد حكم دام أكثر من ٢١ عاماً أميراً على بغداد لم يستطع خلالها أن يخضع عمران بن شاهين ، وبعد وفاته خلفه ابنه (بختيار) الذي تلقب بعز الدولة[٣]. وعلى الرغم من أن (بختيار) بدأ عهده بمصالحة عمران بن شاهين ، إلا أن الضائقة المالية التي كانت تمر بها خزينة الدولة المركزية وشغب الجند من أتراك ، وديلم ومطالبتهم بدفع مرتباتهم دفع بختيار إلى محاربة عمران بن شاهين ؛ طمعاً في الثروات التي كان يمتلكها . إلا أن حملات بختيار باءت بالفشل ؛ لأن الحرب مع عمران بن

١) مجهول ، العيون والحدائق ، ج٤ ، ص٤٦١-٤٦٢ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص١٢٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٣٢ ، ٣٣٦ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص١٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣٣٦-٣٣٧ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص٥٢١ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٢٣٢ .

شاهين كانت أكثر كلفة من الأموال والضرائب التي كان سيحصـــل عليهـــا منه[1]. فبادر إلى طلب الصلح وعاد إلى بغداد مهزوماً .

تغير موقف عمران بن شاهين – فيما بعد – تجاه بختيار وبادر بتقديم المساعدات له ، وذلك عند ظهور عضد الدولة بن ركن الدولة ذي الشخصية القوية على مسرح الأحداث السياسية في العراق . فقد ورث عضد الدولة حكم جنوب بلاد فارس (سجستان ، ومكران وكرمان) بعد وفاة عمه الأكبر عماد الدولة سنة ٣٣٨هـــ/٩٥٠م . وسيطر على جميع ممتلكات أبيه ركن الدولة شمال بلاد فارس (بلاد الجبل ، والري ، وطبرستان) سنة ٣٦٦هـــ/٩٧٦م[2]. وكانت غاية عضد الدولة بعد أن سيطر على جميع ممتلكات البويهيين في المشرق ، أن يوسع دائرة نفوذه لتشمل العراق بأكمله بما فيه بغداد العاصمة . فسار على رأس جيش كبير سنة ٣٦٦هـــ/٩٧٦م يريد بغداد . عند ذلك استعد بختيار لملاقاته وجهز جيشا قاده بنفسه وخرج من بغداد متجها إلى واسط . ومنها انحدر إلى البطائح طالباً المساعدة من عمران بن شاهين فاستقبله عمران استقبالا حافلا وأكرمه أجل إكرام ، وإثباتا للمودة وحسن النية تصاهـــر البيتان[3].

ولاشك أن موقف عمران بن شاهين واتخاذه جانب بختيار ومؤازرته له يدل على ذكائه وبعد نظره . فقد كان مدركا خطورة الوضع بالنسبة لمصيره ومصير أتباعه سكان البطائح إنْ تسلم عضد الدولة القوي أمر العراق ، فقرر استخدام جميع قدراته المالية والعسكرية لمواجهة هذا العدو .

غير أن هذه العلاقات الطيبة بين عمران بن شاهين ، وبختيار لم تستمر طويلاً ، فقد انتهت بدخول عضـــد الدولة بغـــداد في سنة ٣٦٧هـــ/٩٧٧م وتسلمه

---

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٢٨٤ ، ٢٩٥-٢٩٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٣٩ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص١٢١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٨٠ .

٣) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٣٦٦ ؛ الهمذاني ، التكملة ، ص٤٥٢ .

مقاليد الأمور بها وقبضه على بختيار ووزيره ابن مقلة وقتلهما[١].

وبعد سنتين من تولي عضد الدولة مقاليد الأمور في بغداد توفي عمران بن شاهين في المحرم سنة ٣٦٩هـ/يوليو ٩٧٩م بعد حكم دام ما يقارب الأربعين عاماً تمتعت منطقة البطائح خلالها (بالاستقلالية والمنعة)[٢].

لم يكن للخليفة المطيع أثر يذكر أثناء هذه الأحداث التي عصفت بالبلاد . وقد مرض بالفالج فأشار عليه قادة الجند أن يعتزل ويبايع ولده الطائع بالخلافة . فخلع نفسه من الخلافة في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ/أغطس ٩٧٣م ؛ أي قبل دخول عضد الدولة بغداد بأربع سنوات تقريباً[٣].

خلافة الطائع لله (أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع)

٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٤-٩٩١م:

لم تكن خلافة الطائع التي استمرت ١٨عشر عاما تقريبا بأحسن حالا من خلافة أبيه . وقد تعاقب في عهده على السلطة في بغداد خمسة من الأمراء البويهيين وهم: عز الدولة بختيار ، وعضد الدولة ، وثلاثة من أبناء عضد الدولة وهم صمصام الدولة ، وشرف الدولة ، وبهاء الدولة .

وقد شهد عصره الصراع الدامي بين عز الدولة بختيار وابن عمه عضد الدولة على النفوذ وتولي السلطة في بغداد ، التي كان النصر فيها من نصيب عضد الدولة واندحار بختيار وقتله . فأصبحت بذلك رئاسة البيت البويهي لعضد الدولة ، واستقرت في بغداد . وحقق ما كان عمه عماد الدولة يصبو إليه من تحقيق الوحدة والازدهار للدولة البويهية[٤].

---

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٣٣٧-٣٨١ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب ، ج٦ ، ص٣٩٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٩٩ ؛ كذلك أنظر مقالة للكاتبة بعنوان ، البطائح تحت نفوذ عمران بن شاهين ، <u>مجلة جامعة الملك سعود</u> ، الآداب (١) ، مج٧ ، الرياض (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

٣) الهمذاني ، التكملة ، ص٤٣٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٥٣ .

٤) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٣٨٠- ٣٨٦ ؛ ابن الأثير ، ج٧ ، ص٩٢ .

استحدث عضد الدولة في حاضرة الخلافة العباسية (بغداد) المراسيم المملوكية التي كان يتبعها في شيراز ، فضرب الطبول أمام داره ثلاث مرات كما استحدث أمورا لم تكن موجودة من قبل ، فشارك الخلفاء في شارات الخلافة فذكر اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد من الأمراء[١]. ولم يكتف بلقب واحد ، وإنما طلب من الخليفة أن يمنحه لقبا جديدا هو (تاج الملة) فكان أول من تلقب بلقبين من الأمراء . وحرص على نقش اسمه وألقابه على العملة جنباً إلى جنب مع اسم الخليفة . كما تزوج من ابنة الخليفة الطائع تمهيدا لنقل الخلافة إلى آل بويه إذا أنجب منها .

أهم الأحداث السياسية في عهد الخليفة الطائع:

القضاء على الدولة الحمدانية بالموصل:

عندما بسط عضد الدولة نفوذه على أغلب مدن العراق فكر في الاستيلاء على الموصل ، والإطاحة بالدولة الحمدانية التي أنهكتها الخلافات الأسرية ، بين أبناء ناصر الدولة وكذلك للانتقام من أبي تغلب ابن ناصر الدولة ، الذي خرج مع بختيار بجيش كبير لحربه والاستيلاء على بغداد . ولما أنزل عضد الدولة الهزيمة بهما ، وتمكن من القبض على بختيار وقتـله تعقب أبا تغلب الذي هرب إلى الموصل ، وتحصن بأحد قلاعها بعد أن أخلاها من جميع المؤن والذخيرة ، فوصل عضد الدولة إلى الموصل ودخلها . حاول أبو تغلب الحمداني الاتصال بعضد الدولة ، وأبدى رغبته بالصلح ، غير أن عضد الدولة رفض ذلك العرض ؛ لأنه كان عازماً على تحطيم قوة الحمدانيين والتخلص منهم ، ومن مواقفهم المتذبذبة ، فواصل الاستيلاء على مدن وقلاع الجزيرة .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٩٠-٩١ .

عندما ضاقت السبل بأبي تغلب لجأ إلى إمبراطور الروم لعله يجد منه المساعدة . ولما يئس من مساعدة الروم له ارتحل إلى دمشق واتصل بالفاطميين في مصر ، على أمل أن يوليه الخليفة الفاطمي العزيز بالله ولاية دمشق . إلا أن الخليفة الفاطمي ماطله وطلب منه الحضور إلى مصر . ولما لم يحقق أبو تغلب ما كان يصبو إليه من ولاية دمشق تخلى عنه معظم جيشه وأصحابه فرحل إلى الرملة، وحاول الاستيلاء عليها بمساعدة حلفائه من بني عقيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك وقبض عليه من قبل والي الرملة وقتل وحمل جثمانه إلى مصر[١]. وذكر ابن مسكويه بأن الشيوخ من العرب قطعوا يديه ورجليه ثم صلبت جثته ، وأحرقت وكانت وفاته سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م[٢].

وتعدّ وفاة أبي تغلب نهاية لحكم الحمدانيين في إقليم الجزيرة والموصل وقد تفرق أفراد أسرته ، ودخل بعضهم في طاعة بني بويه ، فيما دخل بعضهم في طاعة الفاطميين . وبسقوط الدولة الحمدانية اتسعت أملاك عضد الدولة وبسط نفوذه على كل من العراق ، والجزيرة ، والأهواز ، وفارس ، والجبال ، والري، ثم دخلت في حوزته جرجان بعد أن انتزعها من صاحبها قابوس بن وشمكير سنة ٣٧١هـ/٩٨١م[٣].

ويعدُّ عضد الدولة أقوى شخصية حاكمة في الدولة البويهية ، فقد بلغت الدولة البويهية في عهده أوج عظمتها ؛ لأنه استطاع أن يجمع السلطة كلها في يده ، فلم يشاركه أحد في السلطان بعد أن سلخ من إخوته وأبناء عمومته أملاكهم ، ونجح في توحيد فارس والعراق تحت نفوذه . وكان أول من خوطب بالملك من الأمراء البويهيين ، واستقرت الأمور في العراق في عهده ،

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٩٢-٩٣ ؛ علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق: عصام هزايمة وآخرون ، ج١ (إربد: مؤسسة حمادة ودار الكندي ، ١٩٩٩م) ، ص٨٧ ، ٨٨ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٤٠٣ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٠٨ .

وسلمت من الفتن والاضطرابات . وأجرى كثيراً من الإصلاحات منها:

- إعادة ما تهدم من أسواق بغداد وعمائرها ، ومساجدها ، وإقامة الميادين والمنتزهات(١).

- الاهتمام بمشاريع الزراعة والري وإنشاء السدود ، وأنفق على هذه المشاريع الأموال الكثيرة .

- أبطل بعض الضرائب الجائرة التي كانت تفرض على الفلاحين لزيادة الدخل دون الأخذ بعين الاعتبار مصالح المزارعين . وعندما وجد أن المزارعين لا يستطيعون تأدية ما عليهم من ضرائب في الأوقات المحددة لتأديتها - لأن جبي المحصول كان يأتي بعد موعد الجباية في النوروز - أخرها إلى ما بعد ظهور المحصول ، وأسماه (النوروز العضدي) .

- اهتم بالأعمال العمرانية فأقام العديد من القصور في بغداد وشيراز وجعل فيها خزائن كتب هائلة مفتوحة للعلماء . وأقام في بغداد البيمارستان العضدي لعلاج المرض ، وتدريس العلوم الطبية(٢).

إلا أن ازدهار الدولة واستقرارها في عهد عضد الدولة لم يستمر طويلاً فقد توفي بعد دخوله بغداد بخمس سنوات في الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م . فآل الأمر إلى أولاده الثلاثة من بعده وهم: صمصام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة(٣). فقد أقام صمصام الدولة في بغداد خلفا لأبيه وخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السبعة ، والعمة السوداء ، وألبسه التاج وعقد له لواءين ، وقرئ عهد تقليده وظل صمصام الدولة في بغداد حتى غلبه عليها أخوه شرف الدولة ، وأرسله إلى شيراز ، واعتقله هناك ، ونشبت بذلك الحروب بين الأخوة الثلاث فاتسعت هوة الخلاف بينهم حتى سنة

---

١) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٤٠٤-٤٠٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٠٠ .

٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٦ ، ص٤٠٤-٤٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١١٤-١١٥ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١١٣ .

٣٨٩هـ/٩٩٩م عندما انفرد بهاء الدولة بالسلطة بعد اغتيال أخيه صمصام الدولة في شيراز وموت أخيه شرف الدولة[١].

بعد ذلك أراد بهاء الدولة أن ينهض بالدولة ، وأن يعوض ما خربته الحرب. وأن يستميل قلوب الجند عن طريق منحهم الأموال فطمع في أموال الخليفة الطائع ، وحسن له وزيره القبض عليه ، ومصادرة أمواله فقبض عليه وخلعه ونهبت داره وذلك سنة ٣٨١هـ/٩٩١م بعد أن حكم مدة ١٧ عاماً وثمانية أشهر . وأتى بأحمد بن إسحاق بن المقتدر ، وبويع بالخلافة ، ولقب (بالقادر بالله)[٢].

خلافة القادر بالله (أحمد بن إسحاق بن المقتدر)

٣٨١-٤٢٢هـ/٩٧٤-١٠٣١م:

بويع القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بالخلافة في ١٢رمضان سنة ٣٨١هـ/٩٧٤م ، وكان مستتراً عند صاحب البطيحة خوفاً من الطائع لخلاف وقع بينهما[٣]. وعندما قبض بهاء الدولة على الخليفة الطائع استقدم أحمد بن إسحاق من البطيحة وبايعه بالخلافة ولقبه بالقادر بالله .

وفي عهد القادر الطويل تولى السلطنة من الأمراء البويهيين بالعراق أربعة وهم: بهاء الدولة الذي توفي سنة ٤٠٣هـ/٩٨٩م ، وثلاثة من أبنائه وهم: سلطان الدولة أبو شجاع ، ومشرف الدولة أبو عليّ ، وجلال الدولة أبو طاهر . وشهدت الدولة في عهدهم اضطراباً شديداً وصراعاً بين الأخوة على الملك واستعرت الفتنة بين الجند من ديلم وأتراك ، وبدأ الانقسام والاضمحلال واضحاً في البيت البويهي بدءاً من سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وأصبحت الغلبة للجند التركي . وأصبحوا هم القلة المسيطرة على الدولة ينصبون من يشاءون

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٩٢ ، ١٩٨ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٤٧-١٤٨ .

ويخلعون من يشاءون من الأمراء البويهيين . ثم لم تلبث هده الخلافات أن انتقلت عدواها إلى الطوائف الأخرى كالسنة والشيعة ، فقامت الحروب بينهما في شوارع بغداد ، ولا سيما في الأحياء الخاصة بالشيعة كحي الكرخ في غرب مدينة بغداد(١) .

وحاول الخليفة القادر منذ أن تولى الحكم أن يستغل ضعف وانقسام البيت البويهي على نفسه لصالح الخلافة العباسية ، ومناوئة النفوذ الشيعي فأصدر مرسوماً سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م بوقف النواح والبكاء في بغداد يوم عاشوراء(٢) ، كما رفض تعيين رجل شيعي اختاره البويهيون لشغل منصب قاضي القضاة في بغداد(٣). كما استطاع إخماد الفتنة التي قام بها الشيعة عندما طالبوا بإقامة الدعوة للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وصاروا ينادونه: يــا حاكم ، يا منصور ، فحاربهم القادر بفرقة من حرسه الخاص وأخمد ثورتهم .

أهم الأحداث السياسية في عهد القادر بالله:

ظهور الأمارة العقيلية في الموصل:

يرجع نسب الأسرة العقيلية التي حكمت الموصل من سنة ٣٨٠هـ إلى ٤٨٩هـ/٩٩٠م إلى١٠٩٦م إلى المقلد الأكبر بن جعفر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

كان العقيليون أتباعاً للحمدانيين يعيشون تحت ظل إمارتهم يدفعون لهم الضرائب و الأتاوات ويخرجون معهم في حروبهم . وقــد جاءتــهم الفرصة السانحة للحلول محلهم على إمارة الموصل ، عندما استعان بهم الحمدانيون لمساعدتهم لصد هجوم الأكــراد على يد قائدهم باذ الكردي على الموصــل سنــة

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٥٨ ، ٣٥٥-٣٥٦ .

٢) الذهبي ، العبر في أخبار من غبر ، ج٢ ، ص١٦٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣٢٢.

٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣٣٣ .

٣٧٩هـ/٩٨٩م في مقابل إقطاعهم بعض أراضيها ، مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين ، وبلد[١].

وما لبث أن طمع العقيليون بزعامة رئيسهم أبي الزواد محمد بن المسيب في باقي أملاك الحمدانيين الذين انهزموا على يد الأكراد سنة ٣٨٠هـ /٩٩٠م فسار إلى الموصل ، واستولى عليها وسيطر على جميع أعمالها .

وفي محاولة لإضفاء الشرعية على إمارته أرسل أبو الزواد إلى بهاء الدولة البويهي يطلب منه اعترافاً رسمياً به . وافق بهاء الدولة على ذلك وأرسل نائباً عنه إلى الموصل ، إلا أن النفوذ الفعلي كان لأبي الزواد[٢]. لكن أبا الزواد لم يتمتع طويلاً بحكم الموصل فقد عزله البويهيون ٣٨٣هـ/٩٩٣م وعادت المدينة إلى حكم البويهيين حتى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م عندما تمكن المقلد بن المسيب أخو أبو الزواد من استعادتها ، وإقامة الإمارة العقيلية التي استمرت حتى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م[٣].

وقد شهد عهد ابنه قراوش بن المقلد تطورات على الساحة السياسية بين العباسيين والبويهيين من جهة ، وبين الفاطميين والعقيليين من جهة أخرى . فقد استغل الفاطميون الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي تعرضت لها العراق فسعوا إلى اجتذاب المزيد من الأنصار للخلافة الفاطمية عن طريق إغداق الأموال والهبات على الأمراء فنجحوا في استمالة العقيليين في الموصل . فدخل قراوش بن المقلد في طاعة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وأقام الخطبة باسمه سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م . كما أمر قراوش عماله في المناطق المسيطر عليها في الأنبار ، والمدائن ، والكوفة بإعلان الخطبة للفاطميين[٤].

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٤٢-١٤٣ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج٤ ، ص٣٢٦-٣٢٧ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٤٥ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج٤ ، ص٣٢٧ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٨١ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج٤ ، ص٣٢٧ .

٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٢٥٣-٢٥٤ .

لم يكن انتصار الفاطميين على العباسيين في عقر دارهم بالأمر الهين فأرسل الخليفة القادر بالله إلى بهاء الدولة البويهي طالبا إليه إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه . فسير بهاء الدولة جيشا لمحاربة قراوش ، الذي تهيب من مواجهة البويهيين ، فأرسل يعتذر إلى الخليفة العباسي وقطع الخطبة الفاطمية وأعاد الخطبة العباسية(١).

ظهور الإمارة المروانية في ديار بكر:

قامت الإمارة المروانية في نفس العام الذي قامت فيه الإمارة العقيلية بالموصل ، وذلك بعد مقتل باذ الكردي وصلبه على يد الحمدانيين على أبواب الموصل سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م فهرب ابن أخته ويدعى (أبو علي الحسن بن مروان) إلى حصن كيفا وتزوج بزوجة باذ ، ومن ثم أخذ يعمل في السيطرة على حصون ميافارقين مؤسساً بذلك دولة بني مروان في ديار بكر ، وهي نفس السنة التي قامت فيها الإمارة العقيلية . ولتوثيق صلته بالحمدانين في حلب ، تزوج أبو علي الحسن بن مروان من ست الناس بنت سيف الدولة ، واستطاع في وقت قصير أن يضبط أمور ديار بكر ، ويحسن إلى أهلها فعم بذلك الاستقرار في المنطقة ، إلا أن أبا عليٍّ لم ينعم طويلاً بالحكم فقتل سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ، وخلفه أخواه من بعده ممهد الدولة منصور بن مروان الذي قتل سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م ، ومن بعده نصر الدولة أحمد بن مروان الذي حكم طويلاً وأحسن السيرة ، وكانت الثغور في أيامه آمنة ، وكان محباً للعلم قصده العلماء من كافة الأقطار ، وبقي كذلك حتى توفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ، وخلفه من بعده أبناؤه وسقطت الدولة على يد السلاجقة عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م(٢).

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٢٥٤ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص١٤٣-١٤٤ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج٤ ، ص٣٢٤-٣٢٥ .

وهكذا فقد شهدت الفترة الطويلة لحكم الخليفة القادر بالله التي استمرت ما يقرب من ٤١ عاماً أحداثاً عظيمة من قيام دول ، وإمارات داخل الخلافة العباسية وسقوط أخرى . إلا أنها كانت تخطب جميعها باسمه على منابرها حتى توفي سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م عن عمر يناهز الستة والثمانين عاماً ، وخلفه من بعده ابنه أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله .

خلافة القائم بأمر الله (أبي جعفر عبد الله ابن القادر) ٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م:

بويع أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م ولقب بالقائم بأمر الله[١]. وقد تعاقب على السلطة البويهية في عهده ثلاثة من الأمراء البويهيين ، وهم: جلال الدولة بن بهاء الدولة ، الذي امتد سلطانه من خلافة القادر بالله ، ومحي الدين كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة ، والملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن محي الدين المرزبان ، وهو آخر ملوك الأسرة البويهية ، الذي دخل في عهده السلاجقة العراق سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وقضوا على حكمهم .

وصلت الدولة العباسية في عهد الخليفة القائم إلى أقصى درجات الضعف والوهن ، وقد شهد عصره الكثير من الفتن والاضطرابات داخل بغداد بين مختلف عناصر الجند من ديلم ، وأتراك ، وعرب ، ووصلت المنازعات المذهبية على أشدها بين الشيعة والسنة ، هذا بالإضافة إلى المنازعات والانقسامات الأسرية داخل البيت البويهي[٢].

قضى جلال الدولة جل عهده في منازعات حادة بينه وبين جنده وبينه وبين ابن أخيه أبي كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة . وبلغ الأمر في سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م أن ثار الجند ببغداد على جلال الدولة ، وأجبروه على

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٣٥٤ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٢٤٧ .
٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٣٥٥-٣٥٦ .

الخروج من بغداد بالقوة بعدما رموه بالحجارة فخرج هارباً منها[١]. إلا أنه عاد إليها ثانية بعدما توسط الخليفة القائم بينه وبين الجند الأتراك وأعاده إلى منصبه .

كما عمل الخليفة إلى إصلاح الأمور بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار فتم الصلح بينهما عام ٤٢٨هـ/١٠٣٦م ، وتوثيقاً لهذا الصلح تم زواج أبي منصور بن أبي كاليجار من ابنة جلال الدولة .

بناء على هذه المصالحة استقرت الأمور في العراق وتوحد الملك البويهي من جديد لجلال الدولة ، واستعاد البيت البويهي حيويته . وقد شجع ذلك جلال الدولة على أن يطلب من الخليفة القائم أن يلقبه بلقب شاهنشاه أي (ملك الملوك) ، وهو لقب لم يعط لأحد من قبل لما فيه من حرمانية . فامتنع الخليفة في بـادئ الأمر ، ولكن ما لبث أن أجابه إلى ذلك بعد أن استفتى الفقهاء في جواز منحه هذا اللقب فأجازه أربعة منهم ، واعترض عليه قاضي واحد . وما من شك بأن ذلك تم تحت الضغوط التي مارسها عليهم جلال الدولة فخطب له بذلك[٢].

توفي جلال الدولة سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م بعد حكم ضعيف استمر سبعة عشر عاما فخلفه ابنه الأكبر أبو منصور فيروز ، ولقب بالملك العزيز غير أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطته طويلاً ، فقد استطاع ابن عمه أبي كاليجار الذي كان مقيما في شيراز من دخول بغداد سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م بعد أن استمال إليه جند العزيز ، وكبار قواده فتخلوا عنه ، واضطر إلى الهرب . فتولى أبو كاليجار السلطة وأقيمت له الخطبة في بغداد[٣].

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٠ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٣-١٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٤٠ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٣٧ ، ٤٠ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٢٧٠ ، ٢٧٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٥١ ، ٥٢ .

ظل أبو كاليجار في السلطة خمس سنوات ، تمكن خلالها من السيطرة على الأمور في العراق وفارس ، وقضى على بعض حركات الثوار في أصبهان وكرمان . كما عمد إلى أسلوب السياسة مع السلاجقة فعقد صلحاً معهم سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م ، على أمل التخفيف من خطرهم على ممتلكات البويهيين بعد استيلائهم على خراسان والري . وأكد ذلك الصلح بالمصاهرة السياسية فتزوج طغرل بك السلجوقي بابنة أبي كاليجار ، وتزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار بابنة أخ طغرل بك (داود) في نفس العام[١].

أهم الأحداث السياسية في عهد القائم بأمر الله:

زوال الدولة البويهية وسيطرة السلاجقة على بغداد:

في عهد القائم بأمر الله أخذ البويهيون يتقربون من الفاطميين الشيعة في مصر . وكان نفوذ الفاطميين قد نشط في بلاد العراق في عهد كل من الخليفة القادر وابنه القائم نتيجة لنشاط دعاة الفاطميين ، وعلى رأسهم هبة الله الشيرازي ، التي لقيت الدعم والتأييد من أبي كاليجار البويهي حتى أنه هدد الخليفة القائم بإعلان دولة الفاطميين في بغداد . فلم يجد الخليفة القائم بدا للوقوف في وجه الفاطميين غير التشهير بصحة نسبهم إلى البيت العلوي ، بقصد تنفير الناس عنهم كما فعل والده القادر من قبل ، وأصدر مرسوماً بذلك من ديوان الخلافة أشهد عليه كبار الشيعة في بغداد سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م[٢].

عندما توفي أبو كاليجار خلفه ابنه أبو نصر خسرو فيروز ، ولقب بالملك الرحيم . وفي هذه الأثناء كان الخطر السلجوقي قد تفاقم ، وبدأ يهدد سلطان بني بويه في العراق بعد استيلائهم على ممتلكات البويهيين في فارس .

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٤٤ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص٥٦ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٦٤ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص٦٣ .

قضى الملك الرحيم جل عهده في منازعات بينه وبين جنده ، وبين إخوته وأقاربه الذين تطلعوا إلى بعض مدن العراق وفارس ، هذا بالإضافة إلى الخلاف الذي كان قائماً بينه وبين البساسيري قائد جند الأتراك .

كان البساسيري من مماليك بهاء الدولة ، ثم أخذ يتنقل في وظائف الدولة إلى أن تم تعيينه من قبل الخليفة القائم قائدا لحرسه وقربه إليه حتى صار لا يقطع أمراً إلا بعد استشارته . وقد أثار ازدياد نفوذ البساسيري حقد الوزير أبي القاسم بن المسلمة ، فأخذ يكيد له ويفسد بينه وبين الخليفة القائم حتى غضب عليه الخليفة ، واضطر البساسيري إلى الهرب من بغداد ، والإقامة في مدينة الرحبة شمالاً على نهر الفرات[١].

ومن هناك راسل البساسيري الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وعمل على كسب تأييده ، فأمده الخليفة الفاطمي بالمال والذخيرة والسلاح ، وأخذ في استمالة بعض زعماء العرب مثل قريش بن بدران العقيلي صاحب الموصل وأعلنها ثورة على الخلافة العباسية .

أمام هذا التحدي لم يجد الخليفة غير الاستعانة بالسلاجقة لحماية الخلافة من التحالف البويهي الفاطمي الشيعي ، ومن استبداد البساسيري . فشجعت دعوة الخليفة هذه السلاجقة الذين كانوا يتحينون الفرصة السانحة للدخول إلى بغداد . فسار السلاجقة تحت زعامة طغرل بك في المحرم سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م الذي أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة . وبذلك دخل العراق عن طريق حلوان ودخل بغداد في الخامس والعشرين من رمضان من العام نفسه وخطب له على منابرها . واستقر الرأي بين الخليفة والملك الرحيم على التعاون مع طغرل بك ، وأمر الخليفة بأن يذكر اسم طغرل بك في الخطبة قبل اسم الملك الرحيم ، ولقبه بـ (السلطان ركن الدولة أبي طالب طغرل بك يمين أمير المؤمنين)[٢].

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٧٠-٧٢ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص٧١ .

إلا أنه بعد فترة وجيزة أمر طغرل بك بالقبض على الملك الرحيم ونفاه إلى الري ، بحجة تحريضه العامة ببغداد على مهاجمة العسكر السلجوقي ، وأسقط اسمه من الخطبة أخر رمضان من العام نفسه . وبذلك قُضي على الدولة البويهية لتحل محلها الدولة السلجوقية .

الفصل الثاني عشر

العصر السلجوقي

٤٤٧هـ-٥٥٥هـ/١٠٥٥-١١٦٠م

- خلافة القائم بأمر الله (استمرار من العصر الذي قبله).
- خلافة المقتدي بأمر الله (عبد الله بن محمد بن القائم)
٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٥-١٠٩٤م.
- خلافة المستظهر بالله (أحمد بن المقتدي بالله)
٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م.
- خلافة المسترشد بالله (الفضل بن المستظهر)
٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م.
- خلافة الراشد بالله (أبي جعفر المنصور بن المسترشد)
٥٢٩-٥٣٠هـ/١١٣٤-١١٣٦م.
- خلافة المقتفي لأمر الله (محمد بن المستظهر)
٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م.

قيام دولة السلاجقة:

السلاجقة هم من عشائر الغز التركية سكنوا بلاد التركستان في أواسط آسيا ، وعاشوا حياة عشائرية قبلية تحت حكم ملك الترك . وقد عرف هذا الفرع من عشائر الغز باسم (السلاجقة) ، نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق الذي نزح مع عشيرته بسبب الظروف الاقتصادية السيئة والحروب الدائرة بين القبائل والعشائر المختلفة إلى بلاد ما وراء النهر ، واستقروا على شواطئ نهر سيحون ، وقد سكنوا موضعاً يقال له (نور بخارا) بالقرب من مدينة بخارى . ونتيجة لمجاورتهم للسامانيين ، والغزنويين ، والخانيين ، اعتنقوا الإسلام على المذهب السني(١). وقد أتاح لهم إسلامهم حرية التنقل بين بخارى وسمرقند في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . ودخلوا في طاعة السامانيين وتعاونوا معهم في حماية الثغور الشرقية من هجمات الأتراك الوثنيين . وبعد سقوط الدولة السامانية وتوزع ممتلكاتها بين الغزنويين والخانيين اصطدم السلاجقة بالغزنويين ، وبعد سلسلة من الحروب تمكن السلاجقة بزعامة طغرل بك حفيد سلجوق بن دقاق من الاستيلاء على نيسابور سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، وجلس على عرش مسعود الغزنوي(٢).

تمكن طغرل بك بعد ذلك من تأسيس دولة السلاجقة في خراسان بعد انتصاره على الغزنويين في معركة دندانقان الحاسمة سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م . وفي العام التالي اعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بشرعية حكمه على المناطق التي استولى عليها ، واتخذ من مدينة (الري) عاصمة له . ثم واصل في سياسته التوسعية فاستولى على جرجان ، وطبرستان ، وخوارزم ، واستولى في عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م على أصفهان واتخذها عاصمة له ، ومن هناك واصل تقدمه في إقليم أذربيجان وأحكم السيطرة عليها . ثم توجه نحو

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٢٢ ؛ الفتح بن علي بن محمد البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ط٣ (بيروت: دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٧ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٢٣-٢٥ ؛ البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٨-٩ .

أرمينيا قاصداً ملاذكرد إلا أنه فشل في الاستيلاء عليها لحصانتها ورجع إلى الري. وأقام طغرل بك في الري حتى عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م مواصلاً استكمال تنظيم جيوشه مترقباً الفرصة السانحة لدخول بغداد . وجاءته الفرصة عندما استنجد به الخليفة القائم طالبا العون ، ضد تسلط قائد الجند التركي البساسيري الذي تحالف مع الفاطميين ضد الخلافة العباسية(١).

سار طغرل بك إلى بغداد ودخلها في المحرم عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وبعد أيام قبض على الملك الرحيم ونفاه إلى الري ، وتم القضاء على الدولة البويهية . وبذلك خلى الجو لطغرل بك ، وأقام في بغداد مدة ثلاثة عشر شهراً عمل خلالها على استقرار نفوذ السلاجقة في العراق . كما توج انتصاراته تلك بتوثيق أواصر العلاقات السلجوقية العباسية ، وذلك بتزويج ابنة أخيه داود – خديجة خاتون أرسلان – من الخليفة القائم(٢).

فتنة البساسيري:

لم ينعم طغرل بك كثيرا بالانتصارات التي حققها إذ ما لبث أن قام البساسيري من مقره في الرحبة بحملة عسكرية على الموصل بهدف الاستيلاء عليها فدخلها في شوال سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م ، بعد أن أوقع هزيمة ساحقة بالقوات السلجوقية بالقرب من سنجار ، وأعلن فيها الخطبة للخليفة الفاطمي(٣).

إزاء ذلك التصرف عين الخليفة طغرل بك والياً على الموصل وبلاد الجزيرة ، وطلب منه المسير إلى الموصل لإخماد فتنة البساسيري . فسار

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٣٠ ، ٣٤-٣٥ ، ٥٤ ، ٦٧ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٧٠-٧٢ ، ٧٤ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص١٢ ؛ أبو الفرج جمال الدين ابن العبري ، تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية: إسحاق أرملة (بيروت: دار المشرق ش م م ، ١٩٨٦م) ، ص٩٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٢٨٩ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٧٧ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص١٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٠١-١٠٣ .

طغرل بك إلى الموصل ، وتمكن من طرد البساسيري منها سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وبسط نفوذه على ديار بكر ، وعين أخاه إبراهيم ينال والياً عليها وعاد إلى بغداد . فاستقبل بكثير من الحفاوة والترحيب ، وزاد الخليفة في ألقابه بأن أطلق عليه لقب (ملك المشرق والمغرب)(١).

وما كاد طغرل بك يعود إلى بغداد حتى واجهته مشكلة جديدة هددت وحدة البيت السلجوقي تمثلت في عصيان أخيه إبراهيم ينال ، الذي استماله الفاطميون وأغروه بالسلطنة . فاضطر طغرل بك إلى الخروج إلى بلاد الجبل وتعقب أثر أخيه ، وأوقع به هزيمة ساحقة بالقرب من الري ، وأمر بقتله في جماد الآخرة سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م حتى يستريح من شره ويتفرغ للعدو الأشد خطورة البساسيري(٢).

وقد أغرى خروج طغرل بك من بغداد البساسيري فسار إليها ودخلها دون مقاومة تذكر بمساعدة شيعة الكرخ ، في يوم الأحد ٨ ذي الحجة سنة ٤٥٠هـ/١٥٠٨م ، حاملاً الرايات الفاطمية التي تحمل شعار (الإمام المستنصر بالله أبي تميم أمير المؤمنين) . ثم ما لبث أن قبض على الوزير أبي القاسم بن المسلمة الذي كان قد تآمر ضده من قبل ، فقيده وحمله على جمل وطيف به في شوارع بغداد وخلفه من يصفعه ، فعمت الفوضى بغداد ونهبت العامة قصر الخليفة . وكان يرافق البساسيري عند دخوله بغداد قريش بن بدران أمير بني عقيل مع مائتي فارس . فلجأ الخليفة إلى قريش بن بدران طالباً منه الأمان ، فأمنه وبعث به مع ابن عمه الأمير مهارش بن المجلي إلى (حديثة عانة) مع أهله وحريمه ، ولكن بعد أن انتزع منه البساسيري اعترافاً خطياً بأنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود أولاد فاطمة الزهراء .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٧٧-٧٨ ، ٨٠ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص١٤-١٧ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٠١-١٠٣ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٨٢ ، ٨٥ .

وبذلك قطعت الخطبة للعباسيين في بغداد وغيرها من المدن العراقية ، مثل واسط والبصرة ، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابرها لمدة عام كامل . وكتب البساسيري إلى الخليفة المستنصر يبشره بذلك ، فسر المستنصر وأمر بإقامة الزينات والأفراح في القاهرة تعبيراً عن فرحته بالانتصارات التي أحرزها على الخلافة العباسية(١).

أخذ الخليفة القائم من ملجئه في (حديثة عانة) يستنجد بالسلطان طغرل بك ويستغيث به . وما أن فرغ طغرل بك من إخماد فتنة أخيه إبراهيم ينال ، وقتله حتى عاد مسرعا إلى العراق لإعادة الأمور إلى نصابها ، وإعادة الخليفة القائم إلى بغداد . وعندما علم البساسيري بقدوم طغرلبك إلى العراق رأى نفسه في موقف ضعيف لا يستطيع فيها الصمود أمام قوات السلاجقة ، خاصة و أن الخلافة الفاطمية تهاونت في مساعدته ، ولم تمده بالعون الكافي ؛ نظراً للظروف الاقتصادية القاسية التي كانت تمر بها مصر في ذلك الوقت ، ولعدم ثقتها به على ما يبدو . فهرب البساسيري وأعوانه إلى الكوفة ، ومنها كان عازما على الهرب إلى بلاد الشام . وكان طغرل بك قد طلب من قريش بن بدران قبل وصوله إلى بغداد إحضار الخليفة القائم إليها فأجابه إلى ذلك . ثم أرسل طغرل بك ألفي جندي وراء البساسيري تمكنوا من القبض عليه في طرق الكوفة وقتله مع كثير من أعوانه، وغنمت أمواله ، وحمل رأسه إلى بغداد في ذي الحجة سنة ٤٥١هـ/مارس ١٠٦٠م(٢).

توج طغرل بك هذا النصر بالزواج من ابنة الخليفة القائم سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م إلا أنه لم يهنأ بهذا الزواج طويلاً ، إذ مرض ، وتوفي في

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٨٣-٨٤ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص١٧-١٨ ، ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٠٣-١٠٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٧٦-٧٨ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٨٥-٨٧ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص١٨-٢٠ .

رمضان سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، وكان يبلغ من العمر سبعين عاماً[١].

تولية ألب أرسلان السلطنة السلجوقية:

تولى الحكم بعد وفاة طغرل بك ابن أخيه ألب أرسلان بن جغري بك ، لأن طغرل بك لم يكن له ولد يرث عرش السلطنة . وخطب له ببغداد في شهر ربيع الآخر من سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، ولقب بالسلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ألب أرسلان[٢].

وقد حرص ألب أرسلان بعد توليه الحكم على الحفاظ على أراضي الدولة السلجوقية وتوسيع رقعتها ، وبناء دولة مترامية الأطراف من أهم أهدافها: القضاء على النفوذ الفاطمي الشيعي ، والجهاد ضد الروم ، وقد ساعده على إنجاز سياسته التوسعية هذه وزيره نظام الملك صاحب الشخصية الفذة . فقام بتجهيز جيشٍ سير قسماً منه نحو بلاد الشام ، وقسماً نحو أرمينيا وأسيا الصغرى من أملاك الدولة البيزنطية . وقرر أن يبدأ بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته ، فاتجه صوب الغرب ، وتمكن من فتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة من بلاد الروم[٣]. وقد أثار ذلك مخاوف البيزنطيين ، فهاجم الإمبراطور رومانوس الأطراف الشمالية من بلاد الشام واستولى على منبج . وانتصر على أمير حلب محمود بن مرداس الذي كان يدين بالولاء للدولة الفاطميه ثم عاد إلى القسطنطينية . فاغتنم ألب أرسلان حالة الضعف التي كانت تمر بها بلاد الشام فشرع بالتحرك نحو حلب وشمال الشام والاستيلاء عليها قبل التوجه شمالاً إلى الأراضي البيزنطية . فلما علم محمود

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٩٢-٩٣ ، ٩٤ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص٢٠-٢١ ، ٢٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٨٦-٨٨ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٩٥ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص٣٥ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٩٨-٩٩ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

بن مرداس بقدوم السلاجقة ، وكان يدرك بأنه لا طاقة له لمواجهتهم جمع أهل حلب واستشارهم في تقديم فروض الطاعة لهم ، وإقامة الخطبة للعباسيين وحذف اسم الفاطميين منها . فأجابه المشايخ إلى ذلك ولبسوا السواد وكان ذلك في عام ٤٦٣هـ/١٩٧٠م[١].

كما استطاعت جيوش ألب أرسلان بقيادة الأمير اتز بن أوق الخوارزمي في السنة نفسها من دخول مدينة الرملة بفلسطين ، ثم سار نحو بيت المقدس وانتزعها من يد الفاطميين . ثم تقدم اتز نحو دمشق وحاصرها مدة من الزمن إلا أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها . وبذلك نجح السلاجقة في تأمين ظهرهم من الخطر الفاطمي قبل التوجه لمحاربة البيزنطيين[٢].

معركة منزيكرت:

أدرك رومانوس ما كان يخطط له ألب أرسلان من حيث الزحف نحو الأراضي البيزنطية فاتخذ جانب المبادرة بالهجوم ، واستعد للقاء السلاجقة استعداداً كبيراً ، ونجح في جمع جيش عظيم مكون من عناصر مختلفة من المرتزقة من الغز ، والفرنجة ، وقوات من الأقاليم الأوروبية التابعة للإمبراطورية مثل مقدونيا وبلغاريا ، وغيرها قدرت في المصادر الإسلامية بحوالي مائتي ألف مقاتل[٣]. وبعد أن أتم استعداداته سار بجيشه حتى وصل إلى مدينة خلاط وعسكر في نواحيها . وقد وصلت هذه الأنباء إلى السلطان ألب ارسلان الذي كان في أذربيجان في خمسة عشر ألف فارس فقط ، قادماً إليها من شمال بلاد الشام بعد أن استولى على حلب ، أما باقي جيشه فكان بعيداً عنه .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٠٧-١٠٩ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٣١٣ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١١٠ ، ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٠٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٣١٥ .

٣) ذكر ابن الأثير في الكامل والذهبي في العبر بأن عدد جند الروم بلغ مائتي ألف جندي ، بينما قدره البنداري في تاريخ آل سلجوق بثلثمائة ألف ويزيدون .

تقدم ألب أرسلان من فوره لوقف زحف العدو ، ولكنه هاله ضخامة جيش العدو ، وأحس أنه أمام خطر داهم . فأرسل إلى الإمبراطور يطلب المهادنة كسباً للوقت حتى يتيسر له جمع باقي قواته لبعد المسافة بينه وبينهم ، ولكن الإمبراطور أصر على مواصلة الزحف قائلا (لا هدنة إلا في الري) لذلك لم يكن أمام السلطان سوى مواجهة العدو . فدعى جنوده للاستماتة في القتال وجعلها جهاداً في سبيل الله . محتسباً ذلك عند الله . واتفق السلاجقة على خوض المعركة الفاصلة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر والناس يدعون للمجاهدين بالنصر . وصلى بالناس وخطب فيهم قائلاً: من أراد الانصراف فلينصرف ما هاهنا سلطان يأمر وينهي ، وإني أقاتل محتسباً صابراً فإن سلمت فنعمة من الله ، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي .

التقى الجيشان بالقرب من منزيكرت في مكان يقال له (الرهوة) وهي صحراء تقع بين منزكرت وخلاط ، وذلك بعد صلاة الجمعة في ٧ ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ/١٩ أغسطس ١٠٧١م . وكانت حماسة الجند السلجوقي شديدة واشتبكوا مع جند رومانوس في معركة حامية أسفرت عن سقوط العديد من قتلى الروم حتى امتلأت الأرض بجثثهم ، ووقع الإمبراطور نفسه أسيراً بعد أن قاتل ببسالة في أرض المعركة . وحين عرف السلاجقة شخصيته اقتادوه إلى خيمة السلطان ألب أرسلان الذي أطلق سراحه بعدما تعهد له:

- بدفع فدية كبيرة من المال مقدارها مليون ونصف مليون دينار عن نفسه .
- أن يدفع البيزنطيون للسلاجقة جزية سنوية كل عام مقدارها ٣٦٠ ألف دينار .
- أن يطلق الإمبراطور من لديه من أسرى المسلمين في بلاده .
- أن يرسل الجيوش البيزنطية للانخراط في خدمة جيوش المسلمين متى اقتضت الضرورة .

- أن تعقد الهدنة بينهما خمسين عاماً .

وقد عامل السلطان الإمبراطور رومانوس معاملة حسنة وأكرمه أشد إكرام بعد عقد الهدنة ، وأرسل له عشرة آلاف دينار يتجهز بها . وشيعه عند رحيله وعانقه عند وداعه ورفض أن يترجل له الإمبراطور عند وداعه(١).

وهكذا كانت معركة مانزيكرت ، وما ترتب عليها من نتائج بتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين ، هي السبب المباشر لقيام الحروب الصليبية فيما بعد سنة ٤٩١هـ/١٠٩٦م . كما تعدُّ بداية تتريك أسيا الصغرى الذي قامت فيها الخلافة العثمانية المقبلة .

لم يطل العهد بالسلطان ألب أرسلان بعد إحرازه هذا النصر الحاسم على البيزنطيين ، إذ أنه قتل بعد سنتين على إثر ضربة تلقاها في خاصرته بخنجر على يد أحد الثائرين عليه في ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م فتولى عرش السلطنة من بعده ابنه وولي عهده ملكشاه(٢).

وفي ١٣ شعبان ٤٦٧هـ/أبريل ١٠٧٥م توفي الخليفة القائم وخلفه من بعده حفيده عبد الله بن محمد بن القائم ، ولقب (بالمقتدي بأمر الله)(٣).

خلافة المقتدي بأمر الله (عبد الله بن محمد بن القائم)
٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٥-١٠٩٤م:

في عهده تربع على عرش السلطنة السلجوقية ملكشاه بن ألب أرسلان الذي سار على نهج والده في محاربة الفاطميين الشيعة ، واستعادة بلاد الشام منهم ، وعلى بسط نفوذ السلاجقة على الأراضي غير الإسلامية الخاضعة للروم البيزنطيين .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٠٩-١١٠ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص٤٠-٤٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١١٠-١١١ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١١٢-١١٣ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص٤٧-٤٨ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٢٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١١٠ .

ولتحقيق ذلك فأنه وجه قائده اتز الخوارزمي إلى دمشق لانتزاعها من يد الفاطميين فاستطاع بعد حصار شديد من الاستيلاء عليها وأعيدت الخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م كما استولى على مدن أخرى في بلاد الشام . فأسند ملكشاه ملك هذه المناطق التي تم الاستيلاء عليها في بلاد الشام إلى أخيه تتش ، وفوض إليه مهمة التوسع والفتح في أرجائها . فتمكن تتش من الاستيلاء على حلب ، وبذلك دخلت معظم بلاد الشام في حوزته ، وعليه قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام[١].

كما عين ملكشاه ، سليمان بن قتلمش بن إسرائيل ، وهو من أبناء عمومته والياً على أسيا الصغرى ، ليحافظ على ممتلكات السلاجقة الذين تدفقوا إليها بأعداد كبيرة بعد موقعة مانزكرت ، ومنحه الحق في التوسع واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أقاليمها . فاستطاع سليمان بن قتلمش من ترسيخ نفوذ السلاجقة في أسيا الصغرى مكوناً بذلك نواة لدولة سلاجقة الروم أطول الدويلات السلجوقية عمراً ، التي ظلت تحكم هذه البلاد إلى عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م .

إلا أن سياسة التوسع التي انتهجها ملك شاه كانت من عوامل بذر الفتنة والشقاق بين أفراد البيت السلجوقي . فبدأ النزاع بين سليمان بن قتلمش وتتش نتيجة لتجاور ممتلكاتهما ، ومحاولة كل منهما الاستيلاء على أجزاء من الأقاليم الخاضعة لنفوذ الآخر ، وانتهت بمقتل سليمان في صفر عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م[٢].

وعند وصول هذه الأنباء إلى ملكشاه توجه بنفسه من قاعدته في أصفهان إلى بلاد الشام لفض المنازعات بين أفراد أسرته وللاطمئنان ، على سير الأمور فيها . فأقر حكم تتش على بلاد الشام كما أقر حكم أبناء سليمان بن قتلمش على بلاد الروم .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص٣٢٣ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٤٠ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١١٨-١١٩ .

بعد ذلك توجه ملكشاه إلى بغداد ودخلها في ذي الحجة من نفس العام وكان هذا أول قدوم له إلى بغداد فخلع عليه الخليفة الخلع السلطانية ، وفوض إليه أمر البلاد . وفي العام التالي تزوج الخليفة المقتدي بأمر الله بابنة ملكشاه وعاد بعدها ملكشاه إلى أصفهان . فتوطدت بذلك العلاقات بين السلطان ملكشاه والخلافة العباسية وازداد نفوذ السلاجقة استقراراً[١]. فوصل نفوذ السلاجقة في عهده من حدود الصين والهند شرقاً إلى آسيا الصغرى وسواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً ، فشمل إيران وبلاد ما وراء النهر والعراق والشام ، وأصبحت الدولة السلجوقية تحتل مكان الصدارة في العالم الإسلامي .

كما شهد عصر ملكشاه نهضة علمية وأدبية واسعة ، وحفل بلاطه بكبار العلماء والمفكرين أمثال الوزير نظام الملك صاحب كتاب سياسة نامة (الذي يبحث في نظم الحكم وكيفية إدارة البلاد ، وكسب رضا المحكومين) ومشيد المدارس النظامية التي في بغداد ونيسابور وطوس وهراة وأصفهان[٢]. والشاعر الفلكي عمر الخيام صاحب الرباعيات المعروفة الذي اشترك في وضع التقويم الجلالي نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه وذلك لتثبيت تاريخ النوروز (رأس السنة الفارسية) في موعد محدد كل سنة بحيث يتناسب مع ميعاد جمع الخراج ونضج المحصول[٣].

إلا أنه في أواخر عهد ملكشاه تأزمت العلاقات بينه وبين الخليفة المقتدي ، وتعرض الخليفة خلالها لكثير من الامتهان ، حتى تجرأ بعض نواب السلطان في بغداد على مشاركة الخليفة في بعض مظاهر سيادته الدينية مثل ضرب الطبول على أبواب قصورهم رغماً عن الخليفة . كما عزم ملكشاه

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٤٣-١٤٥ .

٢) عبد المنعم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ط٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠م) ، ص٧٩ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ١٢١ ؛ أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي (بيروت: دار النهضة العربية ، د.ت) ، ص١٩٠ .

نفسه على طرد الخليفة من بغداد ، ونقل العاصمة الخلافية إلى أصفهان وذلك بسبب امتناع الخليفة من تعيين ابنه من ابنة السلطان ولياً لعهده ، إلا أن القدر لم يهمله ووافاه الأجل قبل أن يتمكن من فعل ذلك[١].

موت ملكشاه وانقسام البيت السلجوقي:

مات ملكشاه في عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م بعد وفاة وزيره نظام الملك بشهر واحد ، وعدّ وفاة هذين الرجلين في وقت واحد من أهم الأحداث الصعبة التي وقعت في تاريخ السلاجقة . فتعرضت دولة السلاجقة العظام للانقسام والتصدع ، والتناحر على السلطة ، وتفجر الصراع بين أفراد البيت السلجوقي فتولى بركياروق ابن ملكشاه السلطنة فاندلع النزاع بينه ، وبين أخيه محمود الذي كانت تقف وراءه أمه تركان خاتون ، ثم لم يلبث أن تعدى النزاع الأخوة حتى شمل الأعمام والأخوال وتعداها إلى الوزراء . وقد انعكس ذلك على أوضاع الخلافة العباسية التي حاول خلفاؤها التصرف حيال ذلك الانشقاق حسب ما تمليه مصالحهم[٢].

تفكك وانهيار دولة السلاجقة:

وقف الخليفة المستظهر بالله الذي تولى الخلافة بعد وفاة والده المقتدي بالله في المحرم سنة ٤٨٧هـ/يناير ١٠٩٤م موقف المتفرج من هذه النزاعات حيناً ، والمتأرجح في مواقفه بين مراكز القوى أحيانا أخرى والاعتراف بأكثر من سلطان في وقت واحد[٣].

١) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٢٠ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٦١، ١٦٣-١٦٥ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٢١ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٧٠-١٧٢ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص١٢١-١٢٢ .

وبعد وفاة الخليفة المستظهر بالله في ربيع الأخر سنة ٥١٢هـ/١١١٨م تولى بعده ابنه أبو منصور الفضل ولقب بالمسترشد بالله . وقد شهد عهده الذي استمر ٢٤ عاماً خلافاً حاداً على السلطنة بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين عمه السلطان سنجر بن ملكشاه ، كان النصر فيها حليف سنجر .

كما شهد صراعاً حاداً بين السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه وبين أخيه محمود وبين السلطان مسعود ، وأخيه طغرل حول اعتلاء عرش السلطنة في العراق . فانتهز المسترشد النزاع الحاصل بين أفراد البيت السلجوقي ، وعمل على استعادة ما كان للخلافة من سلطات ، فأمر بحذف اسم السلطان مسعود من الخطبة وخرج لقتاله عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، إلا أنه هزم وذهب ضحية محاولته . وأصبح مسعود بعد مقتل الخليفة حاكم العراق دون منازع[١].

حاول الخليفة الراشد الذي خلف والده واستمر حكمه من ٥٢٩ إلى ٥٣٠هـ/١١٣٤ إلى ١١٣٥م ، أن يثأر لأبيه فتآمر مع عماد الدين زنكي حاكم الموصل وبعض أمراء وحكام الأقاليم المجاورة على خلع مسعود وتولية ابنه داود بدلاً منه . فأسرع مسعود عندما علم بذلك إلى بغداد وحاصرها حصاراً شديداً ما يقرب الشهرين . فتفرق أنصار الخليفة فاضطر هو نفسه إلى الفرار من بغداد بصحبة عماد الدين زنكي إلى الموصل . فدخل مسعود بغداد وعزل الخليفة المسترشد وعين مكانه عمه محمد بن المستظهر ولقب بالمقتفي لأمر الله في ٨ ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ/ سبتمبر ١١٣٦م[٢].

وقد شجعت الهزيمة التي مني بها سنجر سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م أمام القراخطائين ، وتجدد الخلافات الأسرية بين السلاجقة ، الخليفة المقتفي بالله بأن يقوي مركز الخلافة من الناحية العسكرية . فأمر العامة بجمع السلاح

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٢٨١ ، ٢٨٦-٢٨٨ ، ٢٩١-٢٩٢ ، ٣٣٩-٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧-٣٤٨ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٣٥٢-٣٥٤ .

وحفر الخنادق حول بغداد وإصلاح أسوارها[١]. وعندما توفي السلطان مسعود عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م حارب الخليفة شحنة بغداد واستولى على ممتلكاته ، واستعاد منه الحلة ، والكوفة ، وواسط ، وعزل موظفي السلطـــان مسعـــود ،
وعين موظفين آخرين أكثر ثقة بدلاً منهم . وحاول ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض للاستفادة من موت السلطان مسعود ، وتفكك البيت السلجوقي في العراق[٢].

وقد شهد عهد الخليفة المقتفي تفكك وانهيار دولة السلاجقة في المشرق التي عجزت عن الوقوف أمام هجمات الغز ، حتى سقطت أخيراً بوفاة آخر سلاطينها العظام سنجر دون عقب سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م[٣]. في حين زالت دولة سلاجقة العراق ٥٩٠هـ/١١٩٤م بمقتل السلطان طغرل الثالث على يد علاء الدين تكش خوارزم شاه ؛ لتشهد بذلك الخلافة العباسية فصلاً آخر من فصولها وهي الفترة الأخيرة من حكمها بظهور دول الأتابكيات والشاهات[٤].

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢-٤ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣١-٣٢ ، ٤٢ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٥٥ .

٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢٣٠ .

الفصل الثالث عشر

نهاية الخلافة العباسية

من ٥٥٥-٦٥٦هـ/١١٦٠-١٢٥٨م

- خلافة المستنجد بالله (يوسف بن المقتفي)

٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م.

- خلافة المستضيئ بالله (الحسن بن المستنجد)

٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م.

- خلافة الناصر لدين الله (أحمد بن المستضيء)

٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م.

- خلافة الظاهر بالله (محمد بن الناصر)

٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م.

- خلافة المستنصر بالله (أبي جعفر المنصور بن الظاهر)

٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م.

- خلافة المستعصم بالله (عبد الله بن المستنصر)

٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م.

أهم الأحداث التي حدثت في هذه الفترة:

ظهور الدول الأتابكية والشاهات الخوارزمية:

نتيجة لضعف السلاجقة برزت في أواخر عهدهم ظاهرة قيام دول منفصلة عنهم ، عرفت بالدول الأتابكية وهي ذات أصول تركية .

والأتابكة كلمة مشتقة من أتابك ، وهو اصطلاح تركي مركب من كلمتين وهي (أتا) ، ومعناها: أب ، و(بك) ومعناها: السيد ، فهي تعني بذلك الوالد السيد . وكان هذا اللقب لقباً تشريفياً يطلق على من يتولى تربية أولاد السلاطين السلاجقة ، إذ كانت العادة عند آل سلجوق أنه إذا امتاز أحد قوادهم وثقوا به ووكلوا إليه تربية أبنائهم ، وأطلقوا عليه هذا اللقب ، واستحق به أعلى درجات التكريم والتشريف[١].

وأول من تلقب به الوزير نظام الملك ، حين فوض إليه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان تدبير المملكة في سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م[٢]. وكان من مظاهر الحكم السلجوقي اعتمادهم على شراء المماليك الترك ، وإخضاعهم لنظام قاس في تربيتهم . وإدخالهم في خدمة القصور السلطانية وتربية أبنائهم . وقد ترقى بعض من هؤلاء في أعلى المناصب الإدارية والعسكرية والقيادية ، ولقبوا باللقب التشريفي (أتابك) ، وكان المقربون منهم يُمنحون إقطاعات زراعية لاستثمارها بدلاً من المرتبات الثابتة ، مع بقائهم في خدمة السلطان عسكرياً والتعهد بحفظ الأمن والاستقرار في مقاطعته ، وكان أول من أشاع هذا النظام الوزير (نظام الملك) . وقد أصبحت بذلك الأراضي التي يحكمها السلاجقة مقسمة إلى إقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلطان (الأتابكة) ، ثم ما لبث أن اتخذ هؤلاء الأتابكة لأنفسهم جيوشا من المماليك ووصلوا إلى درجة الملك

---

١) محمد الخضري بك ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، ص٤٥٠ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١١٥ .

في بعض الأقاليم الإسلامية ، وأورثوها أبناءهم وأُطلق على هؤلاء (الأسر الأتابكية) ، أو (الدول الأتابكية)(١).

وبعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وما ترتب على ذلك من تفكك الدولة السلجوقية استغل كل أتابك الوضع القائم وعمل على توسيع منطقة نفوذه على حساب الآخرين ، وضمها إلى مقاطعته . وهكذا تفككت الدولة السلجوقية بين الأتابكيات ، ولم يبق منها غير سلاجقة الروم التي أطاح بها العثمانيون في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي .

ومن أشهر الأتابكيات في العصر السلجوقي:

- أتابكة بني أرتق ، نسبة إلى أرتق التركماني الذين حكموا حصن (كيفا) ٤٨٥-٦٢٩هـ/١١٠١-١٢٢١م .
- أتابكة ماردين ٥٠٢-٨١١هـ/ ١١٠٨-١٤٠٨م .
- أتابكة الشام ٤٩٧-٥٤٩هـ/١١٠٣-١١٥٤م .
- أتابكة الموصل التي تأسست على يد زعيمها عماد الدين زنكي ٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦١م ، وقد انتهت على يد المغول .
- أتابكة الجزيرة ٥٧٦-٦٤٨هـ/١١٨٠م ١٢٥٠م .
- أتابكة أذربيجان ٥٣٦-٦٢٢هـ/١١٤١-١٢٢٥م ، وقد انتهت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم .
- أتابكية فارس (الدولة السلغرية) ٥٤٣-٦٨٦هـ/١١٤٨-١٢٨٧م ، وكانت نهايتها على يد المغول .

---

١) رشيد عبد الله الجميلي ، دراسات في تاريخ الخلافة العباسية (الرباط: مكتبة المعارف ، ١٩٨٤م) ، ص٣١٤ .

وقامت إلى جانب الأتابكيات دول أخرى ، مثل: الشاهات نتيجة تولية السلاطين السلاجقة نواباً لهم في الأقاليم التي كانت تحت حكمهم ، فاستأثر هؤلاء النواب بحكم هذه الأقاليم وأورثوها أبناءهم . وقد تلقبوا بالشاهات . ومن أشهر هؤلاء الشاهات: شاهات خوارزم ، وشاهات أرمينيا[١].

عندما جاء الخليفة المستنجد بالله إلى سدة الحكم بعد وفاة والده المقتفي بالله سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م كان نفوذ السلاجقة في العراق قد ضعف تماماً وغدت الكلمة للخليفة العباسي ، وأصبح يحكم مستقلا عن سيطرة السلاجقة . فقام ببعض الإصلاحات الداخلية ، فأزال المكوس الجائرة ، وحل المقاطعات وأعادها إلى الخراج[٢].

خلافة المستضيئ بالله (الحسن بن المستنجد) ٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م:

تابع الخليفة المستضيئ بالله الذي تولى الخلافة سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م سياسة والده الإصلاحية ، وسار على نهجه في مقاومة السلطة السلجوقية ، وقد برز في عهده وعهد والده من قبل شخصية أتابك أران وأذربيجان شمس الدين إيلدكز ٥٣١-٥٦٨هـ/١١٣٦-١١٧٢م ، الذي قضى وقتاً طويلاً في محاربة الأمراء مستخدماً السلطان أرسلان شاه بن طغرل الثاني - الذي نصبه سلطانا بعد أن تزوج بأمه - أداة لتحقيق أطماعه متلاعباً بسلطة أسياده السلاطين السلاجقة ، الذين أصبحوا مجرد سلاطين صوريين . فأصبحت شخصيته أكبر شخصية ليست في أران وأذربيجان وحدها ، وإنما تعدتها إلى الجزيرة والموصل وجميع بلاد الجبل والري . فكانت الخطبة تقرأ في جميع

---

١) سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية ، ص٢٤٧ .

٢) علي بن منصور ظافر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، ج٢ ، ص٤٥٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٦٨-٦٩ .

المنابر باسم السلطان أرسلان بن طغرل الثاني ، ويدعى للأتابك شمس الدين إيلدكز [1].

وبعد وفاة شمس الدين إيلدكز سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م خلفه ابنه محمد البهلون وجمع في يده جميع المهام ، التي كانت تحت يد والده . وبعد سنتين من وفاة ايلدكز توفي السلطان أرسلان ، فقام أتابكة محمد البهلوان بتتويج ابنه طغرل الثالث بن أرسلان الذي لم يتجاوز السابعة من عمره سلطاناً صورياً على الممتلكات السلجوقية ٥٧٠هـ/١١٧٤م . وقد ساعد صغر سن السلطان القاصر محمد البهلوان ، من إحكام سيطرته على جميع مقدرات السلاجقة في العراق وكردستان . وقد ذهب أكثر من ذلك إذ أراد أن يفرض سلطاته ونفوذه على الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، الذي خلف أباه المستضيء في ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ/مارس ١١٨٠م[2].

خلافة الناصر لدين الله (أحمد بن المستضيء) ٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م:

عرف عن الخليفة الناصر لدين الله طموحه السياسي وقدرته الإدارية والعسكرية ، فعمل على توسيع رقعة ممتلكاته دونما تدخل من قبل السلاجقة . فكان لابد من أن يصطدم مع شخصية الأتابك القوي قتلغ اينانج بن محمد البهلوان ، الذي أراد فرض سيطرته عل،ى مقدرات الخلافة . من أجل ذلك بذل قصارى جهده في أن يشيع بين الناس – وعلى نطاق واسع في العالم الإسلامي – بأن سلطات الخليفة تنحصر في الشؤون الدينية والأعمال الروحية فقط ، وأن يترك غيرها من الأعمال المتعلقة بالأمور الدنيوية لذوي السلطة

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٧٢-٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٩ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧١-٢٧٤ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص١١٩ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ؛ البنداري ، تاريخ آل سلجوق ، ص٢٧٥ .

من السلاطين . إلا أن هذا الأمر لم يقدر له أن يرى النور ، لأن المنية وافته سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م قبل أن يتمكن من تنفيذ ذلك[١].

انتهز الخليفة الناصر فرصة انشغال السلاجقة ، وأتابكتهم بصراعاتهم الداخلية فعمل على توسيع رقعة ممتلكاته ، فاستولى على المناطق المجاورة لبغداد مثل دقوقا وتكريت . كما استطاع جيش الخلافة من اقتطاع مقاطعة خوزستان بعد موت أتابكها ابن شملة سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م ، وضمها إلى حوزة الخلافة[٢].

وقد شهد عهد الخليفة الناصر أيضا صراعات داخلية على السلطة بين شاهات خوارزم بعد وفاة أيل أرسلان خوارزم شاه ، وذلك بين أبنائه علاء الدين تكش وسلطان شاه . وقد خرج علاء الدين تكش منتصراً من هــذه الصراعات ، وتمكن من الاستقلال بالحكم ، كما عمل على ضم أكبر قدر ممكن من أراضي السلاجقة إلى مملكة الخوارزميين . وعلى يديه تم القضاء نهائياً على دولة السلاجقة سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، وجلس على عرش السلاجقة في همذان . وتنفيذا لسياسة التوســع - التي انتهجها علاء الدين تكش - سار بجيشه إلى بلاد الجبل وضمها إلى ممتلكاته[٣]. وقد أدى استياء الخليفة العباسي الناصر لدين الله من تصرفات الخوارزميين إلى رفضه منحهم السلطة الزمنية في بغداد ، كما كانت عليه في عهد السلاجقة من قبل[٤]. وهكذا ورثت الدول الأتابكية وشاهات خوارزم أملاك السلاجقة ؛ مما مهد السبيل إلى استرداد الخلفاء العباسيين استقلالهم . كما أتاح الإنقسام الذي شهدته البلاد الإسلامية في أقاليم ما وراء النهر ، وفارس للمغول اجتياح الأراضي الإسلامية .

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١-٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦٠ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ٢٠٥ ، ٢٣١ .

٣) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩ ، ص٢٣٠ .

٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٣١٣ .

ظهور المغول:

ظهر المغول كقوة عالمية على مسرح الأحداث السياسية في مستهل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عندما بدأوا يتدفقون من موطنهم الأصلي في هضبة منغوليا على حدود العالم الإسلامي . ولم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحل ، وقد تفرع من هذه القبائل شعبة عرفت في التاريخ باسم (التتر) . غير أن النزاع على النفوذ والسلطة جر التتر والمغول إلى حروب كثيرة بينهما ، وتمكن التتر من بسط سيطرتهم على المغول وعلى أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية . ولهذا أصبحوا يتمتعون بشهرة واحترام نتيجة قوتهم وجبروتهم ، حتى أصبح يطلق على جميع القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها اسم (التتر) ؛ إلا أنه بظهور (تيموجين) الملقب (بجنكيزخان) على مسرح السياسة الدولية تلاشى التتر على يديه ، بعد أن هزمهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم واسترق أطفالهم ، واستأصل شأفتهم ، وأصدر أمراً قاطعاً بألا يترك واحداً منهم على قيد الحياة . وبذلك تفرد المغول بحكم البلاد ، وأسسوا خلال فترة وجيزة من الزمن إمبراطورية مترامية الأطراف من المحيط الهادي شرقاً ، إلى أوربا غرباً ، ومن سيبيريا وبحر البلطيق شمالا إلى الهلال الخصيب وبادية الشام جنوباً(١).

ظروف توسع المغول باتجاه العالم الإسلامي:

عندما سيطر الخوارزميون على جميع ممتلكات السلاجقة في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران طمع زعماؤها بالهيمنة على العالم الإسلامي ، بما فيه بغداد ، وانتزاع السلطة من يد الخليفة الناصر لدين الله . ومن أجل تنفيذ ذلك قام علاء الدين محمد الذي خلف أباه علاء الدين تكش خلال سنوات

١) السيد الباز العريني ، المغول (بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٨١م) ص٢٨-٣٤ ؛ سعد بن محمد حذيفة الغامدي ، سقوط الدولة العباسية ، ط٢ (الرياض: د.ن ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ص٥٣-٥٤ .

حكمه بحملات كثيرة ضد أعدائه في الشرق والغرب . ولعل أشد هذه الحملات تأثيراً هي حروبه المتكررة ضد (الخطا) التي أدت إلى زوال مملكتهم ، فارتكب بذلك خطأً فادحاً ؛ إذ أصبح وجهاً لوجه أمام المغول بعد أن كان (الخطا) يشكلون سداً منيعاً بينهم وبين بلاد المسلمين(١).

أزعجت سياسة علاء الدين محمد التوسعية ، جنكيزخان فأراد أن يضع حدا لأطماعه ، خاصة وأنه كان - عن طريق جواسيسه - على اطلاع واسع بما كان يجري داخل أراضي السلطان الخوارزمي ، وبقوته المتدنية . وقد كان هؤلاء الجواسيس يترددون داخل الأراضي الخوارزمية على هيئة تجار ، وذلك بموجب المعاهدة التجارية التي عقدها جنكيزخان مع شاه خوارزم(٢).

وعلى الرغم من أن جنكيزخان كانت له أطماع توسعية تجاه الأراضي الإسلامية ، إلا أن السبب المباشر لغزوه للدولة الخوارزمية يعود - على حسب رأي جمهرة المؤرخين المسلمين - إلى قتل الخوارزميين بعضاً من تجار المغول كانوا قد قدموا إلى مدينة (أوترار) وهي من ثغور بلاد خوارزم الواقفة على نهر سيحون ، بحجة أنهم جواسيس يعملون لمصلحة جنكيزخان . والرواية حسب ما جاءت في المصادر الاسلامية: أنه في سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م وصل إلى بلدة أوترار ٤٠٠ تاجر من تجار المغول لشراء بعض الثياب للجنود المتجهين إلى تركستان . وعلى ما يبدو كان بين هؤلاء التجار جواسيس يعملون لصالح جنكيزخان الذين أخذوا ينشرون الرعب بين الناس بأن المغول سائرون إليهم لغزوهم واحتلال أراضيهم . وكان التجار يحملون معهم أموالاً عظيمة ، فطمع فيهم والي أوترار ، وأراد أخذ أموالهم فأرسل إلى السلطان علاء الدين محمد يخبره أن جواسيس جنكيز خان قدموا

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٢٩٤-٢٩٥ ، ٣٣١ ؛ رشيد عبد الله الجميلي ، دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ، ص٢٥٤ .

٢) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٣٩- ٢٤٠ ؛ محمد التونجي ، بلاد الشام إبان الغزو المغولي (بيروت: دار الفكر ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص٣٢-٣٣ .

إلى المدينة في زي التجار ، فأمره علاء الدين بقتلهم جميعاً ، واستصفاء أموالهم فتم للوالي ما أراد بقتلهم(١).

عندما علم جنكيزخان بما حل بالتجار المغول على يد والي اوترار أرسل إلى السلطان علاء الدين يطالبه بتسليم الوالي ، وإلا سوف يهاجمه بجنود لا قبل له بهم . فما كان من السلطان علاء الدين إلا أن أمر بقتل الرسول وحلق لحى أعضاء الوفد الآخرين ، وردهم إلى جنكيز خان . ثم ما لبث أن جمع جنده وسار بادئاً بالعدوان حتى وصل إلى تخوم تركستان فلم يلق إلا بعضاً من المتخلفين من النساء والأطفال فغنم منهم وعاد إلى بلاده(٢).

لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن تحديات السلطان علاء الدين محمد فجهز جيشاً بلغ عدده عشرين ألفاً ، وعبر نهر سيحون واحتل مدينة بخارى وسمرقند ، بعد أن أعمل فيها السلب والنهب والقتل . وإزاء هذا الاجتياح المغولي اضطر علاء الدين محمد – الذي لم يتمكن من مواجهة جيوش المغول – من الهرب إلى مازندران والمغول في أثره ، ومن هناك ركب البحر ولجأ إلى إحدى جزر بحر قزوين ، حيث أدركته الوفاة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م بعد أن عهد بالحكم إلى ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي(٣).

أظهر جلال الدين منكبرتي كفاءة عالية في الدفاع عن الدولة الخوارزمية في هذه الفترة الحرجة ، فاستطاع أن يجمع قوات أبيه تحت قيادته وأن يحرز نصراً ساحقاً على قوة مغولية في منطقة غزنة . وإزاء نشوة الانتصار هذه أرسل جلال الدين رسالة إلى خنكيزخان يتحدى فيها قوته التي لا تقهر ويدعوه إلى مقابلته في أي مكان يشاء لخوض معركة فاصلة بينهما .

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٣٠-٣٣١ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ٢٤٠ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص١٦٥ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٣١ .

٣) ابن كثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٣٢-٣٣٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٦٤ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص١٧٥ .

ورداً على هذا التحدي جهز جنكيزخان جيشاً كبيراً جعله تحت قيادة بعض أبنائه التقت مع جلال الدين في مدينة كابل استطاع خلالها جلال الدين أن يحرز نصراً ساحقــاً على القوات المغولية كانت بمثابة أول ضربة موجعة تلقتها القوات المغولية . وما أن سمع سكان المدن الرئيسة في خراسان مثل تاهرت ومرو حتى ثاروا ضد الحاميات العسكرية المغولية ، في تلك المدن وخرجوا عن طاعتهم .

وما أن علم جنكيز خان بمـــا حل بقواته على يد جلال الدين شاه جن جنونه ، وأعد جيشاً كبيراً خرج على قيادته بنفسه ، وسار باتجاه مدينة غزنة لتأديب خصمه العنيد . فلما سمع جلال الدين بأنباء هذه الحملة هرب من مدينة غزنة بقوة قليلة باتجاه نهر السند ، يريد أن يعبر النهر حتى يحتمي مـــن المغول . فتعقب جنكيزخان بمعظم جيشه أثر جلال الدين حتى استطاع أن يلحق به قبل أن يعبر النهر ، وخاض معه معركة غير متكافئة ، إلا أن جلال الدين استطاع أن يقذف بنفسه ، وهو على ظهر جواد سريع في نهر السند ، ويصل إلى الشط الآخر من النهر سابحاً وتوغل داخل الأراضي الهندية(١).

لم يكن أمام جنكيزخان بعد ذلك سوى الرجوع إلى خراسان وتأديب أهالي مرو وهرات ، الذين خرجوا عن طاعة المغول ، وفتح تلك المدن مرة أخرى . فعاد إليها ودمرها ، وأباد أهلها إبادة تامة انتقاماً منهم(٢). ثم عاد إلى منغوليا بعد أن ثبت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر ، وخراسان بشكل نهائي سنة ٦١٩هــ/١٢٢٢م .

وفي عام ٦٢٤هــ/ ١٢٢٧م توفي جنكيزخان بعد أن قسم مملكته إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم: جوتشي ، وجغتاي ، وتولي ، وآكتاي وتوج آكتاي الذي لقب قاآن خلفاً لأبيه على العرش المغولي بصورة رسمية(٣).

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٤٣-٣٤٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٦٥-٢٦٦ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٤٣ .

٣) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٧٢ .

أما جلال الدين فإنه عندما سمع بعودة جنكيزخان إلى منغوليا وإعلان أخيه الأصغر غياث الدين نفسه حاكماً ، على ممتلكات الدولة الخوارزمية في غرب إيران والعراق قرر مغادرة بلاد الهند ، والسير إلى العراق . وفي طريقه باغت أخاه ، وهو في الري واستطاع أن يخضعه لنفوذه ، ثم ما لبث أن ضم إليه أذربيجان بعد أن استسلمت له مدينة تبريز ، بعد حصار دام خمسة أيام سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، وبذلك أصبح جلال الدين حاكماً لأراضى شاسعة تضم أقاليم كرمان ، وفارس ، وبلاد الجبل ، وأذربيجان ، ثم تطلع إلى أملاك الدولة الأيوبية فاستولى على مدينة خلاط ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، الأمر الذي أثار مخاوف السلطة المغولية ، والخلافة العباسية في بغداد وجلب له عداء جيرانه من الحكام المسلمين الآخرين(١).

عدَّ الخليفة الناصر لدين الله توسعات جلال الدين داخل ممتلكاته ما هي إلا تحدٍ سافر لسلطاته ، فناصبه العداء خاصة أن جلال الدين يعدُّ سليل الأسرة الخوارزمية الذين هم أعداؤه السابقون . فأرسل له جيشاً قوامه عشرون ألفاً لطرده من أراضي الخلافة . ولم يكتف بذلك بل أرسل يطلب العون العسكري من حاكم أربل ليشارك جيش الخلافة في محاربة جلال الدين . إلا أن الناصر لدين الله توفي في أواخر رمضان سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، دون أن يحقق أي نصر تجاه توسعات جلال الدولة ، وبويع ابنه الظاهر بأمر الله الذي لم تطل مدة خلافته أكثر من تسعة أشهر فتوفي في رجب سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م(٢).

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٥٣ ، ٣٥٥-٣٥٦ ، ٣٥٨-٣٥٩ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٦٠-٣٦١ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٧٠ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص١٨٥ .

خلافة المستنصر بالله (أبي جعفر المنصور بن الظاهر)

٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م:

وبعد وفاة الظاهر بأمر الله تولى الخلافة من بعده ابنه أبو جعفر المنصور ، وتلقب (بالمستنصر بالله) ، وفي عهده ظهر المغول من جديد على مسرح أحداث المنطقة يهددونها بالدمار الشامل(١).

بعد وفاة جنكيزخان ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م وتقسيم بلاده بين أبنائه الأربعة كانت بلاد خراسان وما وراء النهر من نصيب ابنه (تولي خان) الذي سيكون على يد نسله سقوط الخلافة العباسية في بغداد . ويمتد سلطان المغول إلى الجزيرة والشام وبلاد الروم .

وقد أثارت توسعات جلال الدين منكبرتي في غرب حدود الإمبراطورية المغولية مخاوف تولي خان ، فأرسل حملة عسكرية تتألف من ثلاثين ألف رجل للقضاء نهائيا على جلال الدين والدولة الخوارزمية . فلما علم جلال الدين بأنباء هذه الحملة ، وأن الهدف منها هو القضاء عليه ، وعلى أسرته أرسل يستنجد بأعدائه السابقين: الأيوبيين ، وسلاجقة الروم ، والخليفة المستنصر . إلا أنهم لم يستجيبوا لندائه ولم يجد له نصيراً ولم يكن بوسعه مواجهة المغول وحده خاصة بعد أن هجره جنده ، وتفرقوا عنه فلاذ بالهرب إلى أذربيجان ، ومنها إلى آمد في إقليم الجزيرة ، تتعقبه الجيوش المغولية لاصطياده . انتهى المطاف بجلال الدين إلى قرية من قرى ميافارقين ، واحتمى بجبال كردستان ، ولقي مصرعه على يد الأكراد سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م . فسقطت بذلك الدولة الخوارزمية بعد حكم دام مائة وثمانية وثلاثين عاماً(٢). وبسقوط الدولة الخوارزمية بسط المغول سيطرتهم على جميع ممتلكاتهم حتى الحدود العراقية ، وأصبح العراق مفتوحا أمامهم ينتظر النكبة التي ستحل به .

---

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٦٨-٣٦٩ ، ٣٨٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٧١ .

٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٨٣-٣٨٤ ، ٣٨٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٧٧ .

خلافة المستعصم بالله (عبد الله بن المستنصر

٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م:

بعد سقوط الدولة الخوارزمية وجه المغول ضرباتهم ضد أراضي غرب أسيا وشرق أوربا ، واستطاع منكو خان الذي خلف أباه تولي على زعامة أسرته من إخضاع دولتي الآس والبلغار سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م[١] ، وفي عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م استطاعت القوات المغولية إخضاع مملكة هنغاريا ، إذ مني ملكها بهزيمة ساحقة ، لاذ على إثرها بالفرار . ولم ينقذ الأقطار الأوروبية الأخرى من غزو المغول الكاسح سوى موت آكتاي قاآن المفاجئ سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م فاضطرت القوات المغولية من إيقاف العمليات الحربية والعودة إلى منغوليا لاختيار خلف للزعيم المتوفي ، فتم اختيار كويوك خان بن آكتاي خلفاً لأبيه ٦٤٤هـ/١٢٤٦م . إلا أن كويوك خان لم ينعم بالحكم طويلاً ؛ إذ وفاه الأجل بعد عام تقريباً من توليه الحكم في أوائل سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وتوج منكو خان ابن تولي الأكبر ملكاً على المغول[٢].

وفي هذه الأثناء كان الخليفة العباسي المستنصر بالله قد توفي ، وخلفه ابنه المستعصم بالله على عرش الخلافة العباسية سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م[٣] ، وقد عرف هذا الخليفة – الذي في عهده كان سقوط الأسرة العباسية نهائياً – بعدم جديته في إدارة شؤون بلاده فقد وصف : بأنه كان خليفة ضعيفاً لين الجانب ، قليل الخبرة بأمور الحكم فلم يتخذ تدابير جدية لمواجهة الحملات المغولية التي كانت تشنها على أراضيه القوات المغولية المرابطة في غرب

---

١) سعد الغامدي ، سقوط الدولة العباسية ، ص١٥٢ .

٢) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ٢٩٠-٢٩١ .سعد الغامدي ، سقوط الخلافة العباسية ، ص ١٥٤-١٦٠ ؛

٣) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٨٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص٢٣٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥٩ .

إيران التي لم تنقطع خلال فترة حكمه ، وحكم والده من قبل . هذا بالإضافة إلى وقوفه عاجزاً أمام الخلافات الطائفية ، والصراعات المذهبية التي وصلت إلى ذروتها في عصره ، واستفحل أمرها بين سكان بغداد على جميع المستويات. فانقسم كبار موظفي الدولة وتبعهم في ذلك العامة إلى طائفة سنية يتزعمها مجاهد الدين أيبك (الدوادار الصغير) ، وطائفة شيعية يتزعمها الوزير مؤيد الدين بن العلقمي . وقد كان لهذا النزاع والتنافس بين الطائفتين أسوء الأثر في اضطراب الأمور ، وتقويض سلطة الخلافة والقضاء عليها نهائياً[١].

كان من ضمن سياسة منكو خان الذي توج ملكاً على العرش المغولي سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م أن عهد إلى أخيه الأصغر هولاكو بالتوسع غرباً من إيران باتجاه الأراضي العراقية , وكان سير الخطة أن يقوم هولاكو بتدمير قلاع الإسماعيلية الحصينة في إيران أولاً , ومن ثم الزحف باتجاه الأكراد في الجبال والقضاء عليهم ، ومن ثم الاتجاه إلى العراق في محاولة لإرغام خليفة بغداد سلمياً للدخول في طاعة المغول . وفي حالة رفض الخليفة تقديم فروض الطاعة لهم ، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يقف عائقا أمام مخططاته التوسعية باتجاه الأراضي المصرية .

وفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م سارت الحملة باتجاه الغرب بعد أن تم إعدادها بأفضل ما يمكن تجهيزه من سلاح ، وعدة ، وعتاد وآلات المنجنيق ، والآلات القاذفة للنفط ، والمؤن والغذاء . واشترك فيها رجالات من جميع الأسر المغولية العريقة . كما صدرت الأوامر الخانية لجميع الحكام والسلاطين الخاضعين للسلطة المغولية من سلاجقة الروم وأتابكة الموصل وفارس بالمساهمة في تقديم العون والمساعدة اللازمة لهذه الحملة العسكرية العملاقة .

وما أن عبرت الحملة نهر جيحون نحو الأراضي الإيرانية حتى قام المغول

١) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٨٨-٢٨٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٦٤ .

بمهاجمة حصون الإسماعيلية ، في منطقة كوهستان ، التي كانت بمثابة عصابات إرهابية تهدد أمن وسلامة السلطات المغولية داخل منطقة إيران ، ولقد لقي المغول صعوبة بالغة في اقتحام القلاع الإسماعيلية الحصينة وفقدوا كثيرا من النفس والنفيس ، حتى تمكنوا من إقرار الإسماعيلية بالاستسلام لهم في ذي القعدة سنة ٦٥٤هـ/٢٠ نوفمبر ١٢٥٦م(١).

استغرقت حملة هولاكو أربع سنوات تقريباً داخل الأراضي الإيرانية قبل الاتجاه غرباً نحو الأراضي العراقية . ويذكر المؤرخون أن الوزير ابن العلقمي الذي كان يتزعم الفرقة الشيعية في الصراع الطائفي المذهبي الذي شهدته بغداد في الآونة الأخيرة هو الذي راسل هولاكو وأطمعه في الاستيلاء على العراق انتقاماً لما أصاب الشيعة على يد جند الخليفة المماليك السنة أثناء هجومهم على منطقة الكرخ سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م التي راح ضحيتها كثير من الشيعة منهم أقارب الوزير نفسه(٢). إلا أن الواقع الذي يفرض نفسه هو أن هذه المراسلات ؛ وإن كانت صحيحة إلا أنها لم تكن السبب الذي قام من أجله المغول بالهجوم على بغداد ؛ لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة المغول التوسعية .

سقوط الخلافة العباسية:

لما فرغ هولاكو من القضاء على الإسماعيلية أرسل إلى الخليفة المستعصم رسالة مملوءة بعبارات التهديد ، والوعيد ، والمفاخرة بقوة المغول التي لا تقهر طالبا بأن تكون له السلطة الزمنية في بغداد كما كانت لأمراء الديلم والسلاجقة من قبل ، وإن لم يذعن لتلك المطالب فليس غير الحرب .

١) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٢٩٦-٢٩٨ ، ٣٠٠-٣٠٢ ؛ محمد التونجي ، بلاد الشام إبان الغزو المغولي ، ص٦٥-٦٦ .

٢) الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص٢٧٤ ، ٢٧٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٩٦ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٤٧-٤٨ .

رفض الخليفة – بإيعاز من الدوادار الصغير – طلب هولاكو منكراً عليه لهجة التهديد ، والغطرسة ، والكبرياء التي اتسمت بها رسالته . وقد تضمنت رسالة الخليفة الكثير من عبارات التهديد الجوفاء ، داعياً هولاكو إلـــى العودة إلى خراسان ، بينما تعرض رسل المغول إلى كثير من الأذى من قبل العامة في بغداد .

استبد بهولاكو الغضب عندما وصلت إليه رسالة الخليفة ، وعلم بما لحق برسله من أذى ، فأعلن عزمه على الزحف إلى بغداد . عندها أدرك الخليفة بأنه تسرع في الرد ، فأشار إليه وزيره ابن العلقمي بأن يبعث له بالهدايا والتحف مع الاعتذار له لما بدر من العامة تجاه رسلــــه ، وأن يمنحـــه السلطة الزمنية في بغداد كما كانت للسلاجقة من قبل . إلا أن مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير رفض هذا الرأي ، وأصر على المقاومة فما كان من الخليفة إلا أن أذعن لهذا الرأي . وهكذا لم يبق سوى خيار الحرب بين الطرفين(١).

أمام ذلك التعنت سارت جحافل المغول باتجاه بغداد في منتصف محرم سنة ٦٥٦هـــ/يناير ١٢٥٨م من جميع الجهات ، واحتشدت جميعها في ضاحية بشرق بغداد وعلى رأسها هولاكو وضربت حصاراً مركزاً عليها . فلم يستطع الجيش الخلافي من رد الهجوم المغولي أو الصمود ، وحاول عدد كبير من رجال الحامية الفرار فأطبق عليهم المغول ، وأبادوهم عن بكرة أبيهم . عندما رأى الخليفة حرج موقفه أراد إغراء هولاكو بالأموال والهدايا حتى يعود من حيث أتى . إلا أن هولاكـــو رفض ذلـــك وطـــلب مـــن الخليفـــة إرســـال القائدين المســـؤوليـــن عـــن الدفـــاع عـــن بغـــداد ، سليمـــان شاه والدوادار الصغير وأتباعهما بحجة نفيـــهم إلى بـــلاد الشـــام ، فلما خرجـــوا إليـــه أمر بقتلهم جميعاً . عندهـــا رأى

---

١) الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص٢٧٤ ، ٢٧٧-٢٧٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٠٠ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥٠ .

الخليفة أنه لا مفر من الاستسلام خاصة بعدما أفرغت بغداد من مقاتليها[١].

ففي يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦هـ/فبراير ١٢٥٨م خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه ، وعاصمته إلى المغول دون قيد أو شرط . عندئذ اقتحم جند المغول بغداد ، وأعملوا سيوفهم في رقاب الناس ، وعاثوا فيها فساداً من نهب وسلب ، وتدمير ، للمساجد والقصور ، بحثاً عن الذهب والتحف النادرة وأتلفوا مكتبة بغداد وما تحتويه من الكتب القيمة والنادرة ، وقتلوا أئمة المساجد ورجال الدين حتى بلغ عدد ضحاياهم ثمانمائة ألف من السكان ، ثم نودي بالأمان . وبعد ذلك أمر هولاكو بأن تجمع كل الغنائم التي نهبت من بغداد والدفائن والكنوز التي وجدت في خزائن المستعصم في مكان واحد .

ثم ما لبث أن أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بعد أن وعـده بالأمان ، ولم يكتف بقتل الخليفة ، بل قتل معه ابنه أحمد ، وعبد الرحمن ، وأسر بناته الثلاث فاطمة ، وخديجة ، ومريم[٢].

وبسقوط بغداد في أيدي المغول ومقتل الخليفة المستعصم سقطت الخلافة العباسية ، وأفل نجمها بعد أن حكمت مدة ٥٢٤ عاماً . ولم يستطع هولاكو البقاء في بغداد لجوها الملوث بالجثث المتعفنة فرحل عنها في نفس العام ، بعد أن أوكل أمرها إلى الأمير عليّ بهادر ، كما أبقى في بلاد الشام قوة عسكرية تحت قيادة كتبغا ، لبسط سيطرة المغول عليها ، وعلى مصر ليتم بذلك خطة المغول التوسعية التي وضعها خان المغول الأعظم منكو[٣].

وفي سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م تابع المغول تقدمهم نحو بلاد الشام فاستولوا على حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ثم تابعوا زحفهم إلى نابلس وغزة[٤].

---

١) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٣٠٧-٣٠٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٠٠-٢٠١ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥١ .

٢) ابن كثير ، البداية ، ج١٣ ، ص٢٠١-٢٠٣ ؛ سعد الغامدي ، سقوط الخلافة ، ص٢٣٩-٢٤٠ .

٣) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٣١٣ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٣ ، ص٢٠٣ .

٤) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٣١٤-٣١٦ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص٢٨٨ .

ولم يوقف الزحف المغولي باتجاه الأراضي المصرية سوى وقوف المماليك صفاً واحداً وراء حاكمها المظفر قطز سلطان المماليك ، الذي أنزل بهم ضربة قاسمة في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م فكانت أول معركة خسرها المغول منذ بداية حركتهم التوسعية . وقد شجع ذلك النصر المماليك لمطاردة المغول وإخراجهم من بلاد الشام ، والانسحاب إلى العراق[١]. وبعد خمس سنوات على هزيمة المغول في عين جالوت مات هولاكو في سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م ، وتولى الحكم من بعده ابنه أباقا الذي اعتنق الإسلام فيما بعد[٢].

١) ابن كثير ، البداية ، ج١٣ ، ص٢٢٠-٢٢١ .

٢) ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص٣٢٣-٣٢٤ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٣ ، ٣٢٤ .

الخـــاتـــمـــة

كان لسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية في خراسان أثر بالغ الأهمية في معرفة الدور الذي لعبه هذا الإقليم في حركة الدعوة العباسية ، مكنها من إقامة دولة جديدة تحمل اسم (الخلافة العباسية) على أراضيه .

فسقوط خراسان في أيدي العباسيين كأول أقطار الدولة الأموية لا يدل على قوة العباسيين وضعف صفوف الأمويين بخراسان بقدر ما يدل على هشاشة الأوضاع الاجتماعية ، والاقتصادية في هذا الإقليم والناتجة عن سياسة الأمويين المضطربة والمجحفة ، التي تمثلت في طبيعة نظام حكمها الإداري والمالي للمشرق بوجه عام ، ولإقليم خراسان بوجه خاص . مما جعل هذه المنطقة مركزاً لظهور الشغب والتناحر القبلي إضافة إلى استمرارية تفجر الثورات منها التي كانت تقابل بسياسة القمع دوماً ، بدلاً من البحث عن مسبباتها ، ومحاولة علاجها . ومن هنا استغل التنظيم السياسي الجديد للدعوة العباسية ، مواطن الضعف في الحكم الخراساني ، محاولاً استمالة الأهالي للدعوة ، والتغلغل إلى صفوف الحركات المناهضة للسياسة الأموية والخارجة عليها .

وبذلك ارتبطت الخلافة العباسية بإقليم خراسان ، التي كانت منطلق دعوة العباسيين ، وعليها قام أول انقلاب عسكري لهم ، ودارت على أرضها أولى المعارك الأموية العباسية .

وكان للعنصر الفارسي دورٌ بارزٌ في مساندة الدعوة العباسية في طور نشأتها في خراسان ، وبه أصبح هذا الإقليم محوراً مهماً لاستقرار الدولة العباسية ، فأي اضطراب يحدث فيه ينعكس سلباً على سياسة الدولة العباسية واستقرارها .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكننا أن ندرك بوضوح من خلال ما قدمناه في هذا المؤلف أصالة الثورة العباسية ، من حيث كونها عباسية في قياداتها ومبادئها وعقيدتها منذ نعومة أظافرها ؛ أي منذ أن كانت الدعوة في مراحلها السرية .

وبعد قيام الدولة العباسية كان أبو جعفر المنصور رجل العصر المطلوب لملئ المركز القيادي . فهو بحق يعدُّ المؤسس الحقيقي لدولة الخلافة العباسية ، إذ استطاع بدهائه السياسي أن يقضى على المعارضين والخارجين على حكمه من داخل الأسرة العباسية وخارجها . وحافظ في الوقت نفسه على حدودها من الخارج.

وقـــد تمكن من أتى من الخلفاء من بعد أبي جعفر المنصور أمثـــال المهدي ، وهارون الرشيد من إرساء دعائم نظام الحكم ، وقاموا بحملة من الإصلاحات الإدارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، لتحقيق العدالة والمساواة بين الجميع والتفاهم مع الفئات المعارضة للسياسة العباسية ، فازدهرت نتيجة لذلك الحياة الإدارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، ونمت المؤسسات الإدارية ، وبدأ منصب الوزير تتضح معالمه ، وتتسع صلاحيات شاغليه ، فقد منح الوزراء سلطات واسعة واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً .

كما انشغل العباسيون بقضية ولاية العهد وعملوا جاهدين على حصرها في أعقابهم ، وخير مثل على ذلك هو تولية هارون الرشيد أبناءه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن ولاية العهد من بعده . إلا أن ذلك لم يصب في صالح الخلافة ، وإنما أدى إلى التنافس بين الأخوة إلى جر البلاد إلى كارثة حقيقية وحرب أهلية عمت جميع أنحاء الدولة ، واشترك فيها كل من له مصلحة وعلى رأسهم فئة الأبناء أحفاد الخراسانيين الأوائل الذين كانوا يتمتعون بامتيازات ومكانة خاصة في الدولة ويرفضون أي تغيير يمس هذه المكانة.

وما أن تولى المعتصم الخلافة حتى انخرط عنصر جديد من المشرق وبكثرة في جيش الحكومة المركزية وبواسطتهم حقق المعتصم جميع الانتصارات التي تمت في عهده . وقد ظهر تململ شديد بين باقي فئات الجيش وخاصة فئة الأبناء والعباسية الذين وقفوا معارضين لسياساته ومخططاته نحو الاستكثار من المشارقة الجدد ، وعملوا على مضايقة هذه القوات فاضطر المعتصم إلى الابتعاد عن مدينة السلام واتخاذ سامراء معسكراً لجنده وعاصمة له .

إن الانقلاب الذي أحدثه المعتصم بتجنيده قوات جديدة من المشرق أورث العهود التي تلته حالة من الفوضى العسكرية ، تميزت بقتال مرير مؤسف بين القوات المسلحة في بغداد وسامراء والقوات نفسها في كل من هاتين العاصمتين العباسيتين وظهر على مسرح الأحداث العديد من القواد العسكريين من هؤلاء المشارقة الذين كان لهم دور بارز في هذا الصـــراع المعقد . أدى في النهاية إلى التفكك السياسي في جسم الدولة ، وإلى ظهور الحركات الانفصالية على مركز الخلافة ، فبرز أمراء الأمراء ، وحكام الدول الانفصالية على حساب الخلافة ، وضعف مركز الخليفة ، وفقد جميع اختصاصاته كمصدر أول للسلطة وتعرض الخلفاء للعزل والمصادرة والقتل ، وسمل العينين في أحيان كثيرة .

ساعدت الأحوال المضطربة في العراق – بسبب تنازع القادة العسكريين على منصب إمرة الأمراء وعجزهم عن استتباب الأمن في البلاد – البهويهيين على أن يكونوا سادة الموقف في جنوب العراق ، ثم ما لبثوا أن زحفوا بجنودهم نحو بغداد ودخلوها سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م .

وقد كان لسياسة البويهيين الواقعية – التي لا تتعارض مع مبدأ التعايش السلمي مع المذاهب الأخرى – أثرٌ إيجابي في استقرار الخلافة العباسية وبقاء الخلفاء العباسيين فترات طويلة في مناصبهم دون عــزل أو خلع ، ويعود ذلك الاستقرار إلى جعل إمرة الأمراء وراثية في الأسرة البويهية فلم يترك للقادة العسكريين مجالاً للتنافس .

إلا أن ذلك الاستقرار لم يستمر طويلاً ، فقد شهد نهاية العصر البويهي الكثير من الفتن والاضطرابات داخل بغداد بين مختلف عناصر الجند مــن ديلم ، وأتراك ، وعرب ، ووصلت المنازعات المذهبية على أشدها بين الشيعة والسنة ، هذا بالإضافة إلى المنازعات والانقسامات الأسرية داخل البيت البويهي . كما ازداد نشاط دعاة الفاطميين في بغداد خاصة بعد أن لقى الدعم والتأييد من كل من الملك البويهي أبي كاليجار ، وقائد حرس الخليفة القائم (البساسيري) بعد أن أمده الخليفة الفاطمي بالمال والذخيرة والسلاح وأعلن عصيانه على الخلافة العباسية .

أمام هذا التحدي لم يجد الخليفة غير الاستعانة بالسلاجقة السنة لحماية الخلافة من التحالف البويهي الفاطمي الشيعي ، ومن استبداد البساسيري . فسار السلاجقة تحت زعامة طغرلبك ودخلوا بغداد في المحرم سنة ٤٤٧هـــ/١٠٥٥م وبذلك قضى على الدولة البويهية لتحل محلها الدولة السلجوقية . وقد حرص سلاطين السلاجقة على بناء دولة مترامية الأطراف من أهم أهدافها القضاء على النفوذ الفاطمي الشيعي والجهاد ضد الروم ؛ لذلك أبقوا على الخلافة العباسية حتى يحصلوا على تأييد العالم الإسلامي السني .

تميز أواخر العهد السلجوقي بالضعف والتفكك والانقسام داخل البيت السلجوقي فبرزت نتيجة لذلك دول منفصلة على حسابهم عرفت بالدول الأتابكية ذات الأصول التركية والشاهات الخوارزمية . فاستغل الخلفاء العباسيون ذلك الانقسام والضعف لاستعادة ما كان للخلافة من سلطة ونفوذ ، وعملوا على توسيع رقعة ممتلكاتهم . كما استـــغل شاهات الخوارزميين أيضاً ذلك الانقسام والضعف في البيت السلجوقي فعملوا على ضم أكبر قدر ممكن من أراضي السلاجقة إلى دولتهم . وبذلك تم القضاء نهائياً على دولة السلاجقة سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م على يد الخوارزميين .

أزعجت سياسة الخوارزميين التوسعية ، وسيطرتهم على جميع ممتلكات السلاجقة في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران وطمع زعمائها بالهيمنة على العالم الإسلامي بما فيه بغداد – كلاً من الخليفة العباسي والمغول المتربصين بهم ، فأراد أن يضع كل منهما حداً لأطماع الخوارزميين بطريقته الخاصة .

إلا أن المصاعب العديدة والمشاكل الجمة التي كانت تعاني منها الخلافة العباسية من شلل كامل في جهازها الإداري والعسكري ، ومن صراعات مذهبية ، ساعد المغول عدوهم الأكبر الذي كان يتربص بالعالم الإسلامي على القضاء عليهم وتدميرهم .

وبهذه النهاية المأسوية انتهت حقبة من أحقاب التاريخ الإسلامي ، عدت من أزهى عصوره ، شهد فيها التاريخ فترات من القوة والرخاء ، وأخرى من الضعف والتراجع .

قائمـــة

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- الاصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي .
مسالك الممالك . بيروت: دار صادر ، د.ت .

- ابن أعثم الكوفي ، أبي محمد أحمد بن أعثم .
كتاب الفتوح . تحقيق: علي شيري . بيروت: دار الأضواء ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

- ابن الأثير ، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الواحد الشيباني .
الكامل في التاريخ . ط٢ . بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

- الأزدي ، أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم .
تاريخ الموصل . تحقيق: علي حبيبة . القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

- الأزدي ، علي بن منصور ظافر بن حسين .
أخبار الدول المنقطعة . تحقيق: عصام هزايمة وآخرون . اربد: دار الكندي للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م .

- الأصفهاني ، أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم .
مقاتل الطالبيين . بيروت: دار المعرفة ، د.ت .

- الأصفهاني ، حمزة بن حسن الأصفهاني .
تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . ط٢ . بيروت: مكتبة الحياة ، د.ت .

- البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر .
الفرق بين الفرق . تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي . ط٥ . بيروت: دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- البلاذري ، الإمام أبي الحسن أحمد بن يحيى بن جابر .

فتوح البلدان . تحقيق: رضوان محمد رضوان . بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

أنساب الأشراف . تحقيق: سهيل زكار وآخرون . بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د.ت .

- البنداري ، الفتح بن علي بن محمد .

تاريخ دولة آل سلجوق . ط٣ . بيروت: دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- الجهشياري ، أبي عبد الله محمد بن عبدوس .

كتاب الوزراء والكتاب . تحقيق: مصطفى السقا وآخرون . القاهرة: مطبعة مصطفى الباني الحلبي ، د.ت .

- ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد .

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة . جمع وتحقيق: سهيل زكار . دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- ابن حوقل ، أبي القاسم بن حوقل النصيبي .

صورة الأرض . القاهرة: دار الكتاب الإسلامي ، د.ت .

- ابن أبي الحديد .

نهج البلاغة . بيروت: دار الأندلس ، د.ت .

- الحموي ، ياقوت .

معجم البلدان . بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن .

تاريخ ابن خلدون " المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر " . بيروت: دار الفكر ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

مقدمة ابن خلدون . تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندورة . مكة المكرمة: المكتبة التجارية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

- ابن خلكان ، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر .
وفيات الأعيان ، تحقيق: إحسان عباس . بيروت: دار صادر ، ١٩٧٠م .
- خياط ، خليفة بن خياط .
تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق: إكرام ضياء العمري . ط٢ . الرياض: دار طيبة للنشر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- الدميري ، كمال الدين .
حياة الحيوان الكبرى . بيروت: دار الفكر ، د.ت .
- الدينوري ، أبي حنيفة أحمد بن داود .
الأخبار الطوال . تحقيق: عبد المنعم عامر . بغداد: مكتبة المثنى ، د.ت .
- الدينوري ، أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة .
الإمامة والسياسة . تحقيق: طه محمد الزيني . القاهرة: دار المعرفة ، د:ت .
المعارف . تحقيق: ثروت عكاشة . ط٦ . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م.
- الذهبي ، الحافظ .
العبر في خبر من غبر . تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد زغلول . بيروت: دار الكتب العلمية . د.ت .
- سنان ، ثابت بن سنان .
تاريخ أخبار القرامطة ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة . جمع وتحقيق: سهيل زكار . دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
- الصابي ، أبي الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم .
تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . وضع حواشيه: خليل المنصور . بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .
- ابن طباطبا ، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا العلوي .
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . بيروت: دار بيروت ، ١٣٨٥هـ .

٢٨- الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير .
تاريخ الأمم والملوك . تحقيـق: محمد أبو الفضل إبراهيم . بيـروت: دار سويـدان ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

٢٩- ابن طفيور ، أبي الفضل أحمد بن طاهر الكاتب .
بغداد في تاريخ الخلافة العباسية . بغداد مكتبة المثنى ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

٣٠- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .
العقد الفريد . تحقيق: محمد عبد القادر شاهين . ط٢ . بيروت: المكتبة العصرية للطباعة . ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٣١- ابن العبري ، أبو الفرج جمال الدين .
تاريخ الزمان . نقله إلى العربية: إسحاق أرملة . بيروت: دار الشرق ش م م ،١٩٨٦م

٣٢- ابن العديم ، كمال الدين أبي القاسم الحلبي .
بغية الطلب في تاريخ حلب ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة . جمع وتحقيق: سهيل زكار . دمشق: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٣٣- ابن العمراني ، محمد بن علي بن محمد .
الأنباء في تاريخ الخلفاء . تحقيـق: قاسـم السامرائـي . ط٢ . الرياض: دار العلـوم ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٣٤- أبو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود .
تقويم البلدان . بيروت: دار صادر ، د.ت .
المختصر في أخبار البشر . علـق عليـه: محمود ديوب . بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٢٥- ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني .

مختصر كتاب البلدان . بيروت: دار صادر ، د.ت .

٢٦- قدامة بن جعفر .

كتاب الخراج وصناعة الكتابة . فرانكفورت: معهد تاريخ العلومالعربية والإسلامية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

٢٧- القرطبي ، عُريب بن سعد .

صلة تاريخ الطبري . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة: دار المعارف. د.ت

٢٨- ابن القيسراني .

الأنساب المتفقة . تحقيق: دي جونج . بريل: د.ن ، ١٨٦٥م .

٢٩- ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي .

البداية والنهارية . ط٢ . بيروت: مكتبة المعارف . ١٩٧٤م .

٤٠- الكندي ، أبي عمر محمد بن يوسف .

كتاب الولاة وكتاب القضاة . القاهرة: دار الكتاب الإسلامي . د.ت .

٤١- الماوردي ، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري .

الأحكام السلطانية والولايات الدينية . بيروت: دار الكتب العلمية ، د.ت .

٤٢- مجهول ، مؤلف من القرن الثالث الهجري .

أخبار الدولة العباسية . تحقيق: عبد العزيز الدوري . بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧١م .

- مجهول المؤلف .

العيون والحدائق في أخبار الحقائق . ج٣ . تحقيق: دي خويه . ليدن: د.ن ، ١٨٦٨م .

العيون والحدائق في أخبار الحقائق . ج٤ . تحقيق: عمر السعيدي . دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٧٣م .

- المسعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين .

مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد . ط٥ . بيروت: دار الفكر ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

التنبيه والأشراف . تحقيق: لجنة تحقيق التراث . بيروت: دار مكتبة الهلال ، ١٩٨١م

ابن مسكويه ، أحمد بن محمد بن مسكويه أبو علي الخازن .

كتاب تجارب الأمم . القاهرة: طبع فرج الله زكي الكردي ، د.ت .

المقدسي ، المعروف بالبشاري .

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ط٣ . القاهرة: مكتبة مدبولي ، ١٤١١هـ/١٩٩١م

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي .

اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة . جمع وتحقيق: سهيل زكار . دمشق: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

كتاب المقفى الكبير . تحقيق: محمد اليعلاوي . بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- ابن منظور ، أبي الفضل جمال الدين بن مكرم .

لسان العرب . بيروت: دار صادر ، د.ت .

- ابن النديم ، محمد ابن إسحاق .

الفهرست . بيروت: دار المعرفة ، د.ت .

- النرشخي ، أبي بكر محمد بن جعفر .

تاريخ بخاري . عربه عن الفارسية: أمين عبد المجيد بدوي . القاهرة: دار المعارف ، د.ت.

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

نهاية الإرب في فنون الأدب . تحقيـق: محمد جابر عبد العال . القاهـرة: الهيئة العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ .

الهمذاني ، القاضي عبد الجبار .

تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة . جمع وتحقيق: سهيل زكار . دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- الهمذاني ، محمد عبد الملك .

تكملة تاريخ الطبري ، منشور ضمن كتاب ذيول تاريخ الطبري . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة: دار المعارف ، د.ت .

- ابن وَادرَان ، حسين بن محمد .

تاريخ العباسيين . تحقيق: منجي الكعبي . بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٣م .

- ابن الوردي ، زين الدين عُمر بن مظفر .

تاريخ ابن الوردي . بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٩م .

- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب .

تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر د.ت

- اليماني ، محمد بن مالك .
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة . جمع وتحقيق: سهيل زكار . دمشق: د.ن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

ثانياً: المراجع

- إبراهيم ، أيوب .
التاريخ العباسي السياسي والحضاري . بيروت: الشركة العربية العالمية للكتاب ش م ل ، ١٩٨٩م .

- برانق ، محمد أحمد .
الوزراء العباسيون . القاهرة: المطبعة النموذجية ، د.ت .

- البيطار ، أمينة .
دراسات في تاريخ الخلافة العباسية . الرياض: مكتبة دار القلم والكتاب ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

- توفيق ، عمر كمال .
الدبلوماسية الإسلامية . الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٦هـ .

- التونجي ، محمد .
بلاد الشام إبان الغزو المغولي . بيروت: دار الفكر ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- الجميلي ، رشيد عبد الله .
دراسات في تاريخ الخلافة العباسية . الرباط: مكتبة المعارف ، ١٩٨٤م .

- حسنين ، عبد المنعم .
سلاجقة إيران والعراق . ط٢ . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠م .

- الخضري بك .
تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) . القاهرة: دار الفكر العربي . د.ت .

- الخطيب ، عبد الله مهدي .
الحكم الأموي في خراسان . بيروت: مؤسسة الأعلمي ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

- الرحيلي ، سليمان ضفيدع .
العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة . الرياض: دار الهدى للنشر ، د.ت .

- الزهراني ، ضيف الله يحيى .
موارد بيت المال في الدولة العباسية . مكة المكرمة: مكتبة الفيصلية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
النفقات وإدارتها في الدولة العباسية . مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

- سالم ، السيد عبد العزيز .
العصر العباسي الأول . الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ، ١٣٩٨هـ .

- شاكر ، مصطفى .
دولة بني العباس . الكويت: وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣م .

- طقوش ، محمد سهيل .
تاريخ الدولة العباسية . بيروت: دار النفائس ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

- العبادي ، أحمد مختار .
في التاريخ العباسي والفاطمي . بيروت: دار النهضة العربية ، د.ت .

- عبد الفتاح ، صفاء حافظ .
السودان وثورتهم في المدينة المنورة . القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٩١م .
- عبد المولى ، محمد أحمد .
العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي . الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٦م .
- عثمان ، فتحي .
الحدود الإسلامية . القاهرة: الدار القومية للطباعة ، د.ت .

- العريني ، السيد الباز .
المغول . بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٨١م .

- العش ، يوسف .
تاريخ عصر الخلافة العباسية . دمشق: دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- عطوان ، حسين .
الدعوة العباسية ، مبادئ وأساليب . بيروت: دار الجيل ، د.ت .
الدعوة العباسية ، تاريخ وتطور . بيروت: دار الجيل ، د.ت .

- علبي ، أحمد .
ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد . بيروت: دار مكتبة الحياة ، ١٩٦١م .

- علم الدين ، مصطفى .
الزمن العباسي . بيروت: دار النهضة العربية . ١٩٩٣م .

- العلي ، صالح أحمد .
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري . ط٢ .
بيروت: دار الطليعة ، ١٩٦٩م .

- الغامدي ، سعد بن محمد بن حذيفة .
سقوط الدولة العباسية . الرياض: د.ن ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- فوزي ، فاروق عمر .
طبيعة الدعوة العباسية . بيروت: دار الإرشاد ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م .
بحوث في التاريخ العباسي . بيروت: دار القلم ، ١٩٧٧م .
العباسيون الأوائل . ط٢ . بغداد: جامعة بغداد ، ١٩٧٧م .
الجذور التاريخية للوزارة العباسية . بغداد: د.ن ، ١٩٨٦م .

- الكروي ، إبراهيم سلمان .
البويهيون والخلافة العباسية . ط٢ . الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٧م

- ماجد ، عبد المنعم .
العصر العباسي الأول . ط٣ . القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية . ١٩٨٤م .

- محمود ، حسن أحمد ؛ الشريف ، أحمد إبراهيم .
العالم الإسلامي في العصر العباسي . ط٥ . القاهرة: دار الفكر العربي ، د.ت .

- الوالي ، طه .
القرامطة أول حركة اشتراكية في الإسلام . بيروت: دار العلم للملايين ، ١٩٨١م .

- اليوزبكي ، توفيق سلطان .
الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية . بغداد: مطبعة الإرشاد ، ١٣٧٠هـ/١٩٧٠م .

ثالثاً: المراجع المعربة

- بروكلمان ، كارل .

تاريخ الشعوب الإسلامية . ط٨ . بيروت: دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م .

- جواتياين ، س . د .

التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية . تعريب وتحقيق: عطية القوصي . الكويت: وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠م .

- دي خويه ، ميكال يان .

القرامطة نشأتهم ، دولتهم ، وعلاقاتهم بالفاطميين . ترجمة وتحقيق: حسني زينة ، بيروت: دار ابن خلدون ، ١٩٧٨م .

- فلهاوزن ، يوليوس .

تاريخ الدولة العربية . ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده . القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨م .

- لسترنج ، كي .

بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة: بشير فرنسيس وآخرون . ط٢ . بيروت: مؤسسة الرسالة ، د.ت .

رابعاً: المقالات

- أكبر ، فائزة إسماعيل .

" الزط وموقعهم في التاريخ الإسلامي " مجلة العصور . دار المريخ للنشر ، لندن . مج٨ ، ج١ (رجب ١٤١٣هـ/يناير ١٩٩٣م) .

" ثورة الزنج هل هي ثورة عبيد ؟؟ " مجلة المؤرخ المصري . قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة . ع١٤ (يناير ١٩٩٥م) .

" البطائح تحت نفوذ عمران بن شاهين " مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود . مج٧ (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

" وزراء العصر العباسي الأول " مجلة المؤرخ العربي . اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . ع٨ ، ج١ (مارس ٢٠٠٠م) .

- البيطار ، أمينة .

" الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢-٣٥٩هـ " دراسات تاريخية . تصدرها لجنة تاريخ العرب دمشق . ع٣ (١٤٠١هـ/١٩٨٠م) .

- جواد ، مصطفى .

" الغجر في المراجع العربية " مجلة العربي . وزارة الإعلام الكويتية . ع١٢٦ (صفر ١٣٨٩هـ/مايو ١٩٦٩م) .

- العبادي ، أحمد مختار .

" حركة الزط في العصر العباسي الأول " البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، الدوحة . اتحاد المؤرخين العرب: لجنة تدوين تاريخ قطر (١٩٧٦م) .

- فراند ، جبرائيل .

" مادة الزط " . دائرة المعارف الإسلامية . يصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون . القاهرة: دار الفكر ، د.ت . مج١٠ .

- فوزي ، فاروق عمر .
" عمران بن شاهين السُلمي " . مجلة آفاق عربية . ع١٠ (١٩٨٤م) .
- المسري ، حسين .
" الإمارة الشاهينية في البطائح " . المجلة الإسلامية . ع١٧ (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) .

خامساً: المراجع الأجنبية

- Bowen, Harold,
The Life and Time of Ali b. Isa, the good wazir. Cambridge Univ press1928 .
- Bury, J . B
History of Later Roman Empire. London: 1912.

- E. A. Belyaev,
Arabs, Islam and the Arab Caliphate. TR. by Gourevitch, pall Mall: 1969.

- Faiza Akbar,
The Qaramita, ph. D.Theses. Exeter univ: 1984.

- Lewis, Bernard,
The Origins of Isma'ilism. Cambrige Univ: press, 1940.

- L. Massignon,
karmatians, Encyclopaedia of Islam, Leiden: 1927.

- M. A. Shaban,
Islamic History. Combrige: Univ. Press 1976.

- Noldeke, Theodor,
Sketches From Eastern History. TR. by J. S. Black. Edinburgh: 1892.

- W. Ivanow,
The Islma'ili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids. oxford Univ: Press, 1942.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثالث عشر